القبول

شروطه وموجباته ودرجاته وعلاماته ومحبطاته
وكيف نسعى أن نكون من المقبولين

إيمان بنت عبد اللطيف بن كامل الكردي

القَبُــولُ

شروطه وموجباته ودرجاته وعلاماته ومحبطاته

وكيف نسعى أن نكون من المقبولين

إيمان بنت عبد اللطيف بن كامل الكردي

ماجستير في التفسير وعلوم القرآن

جامعة طيبة بالمدينة المنورة

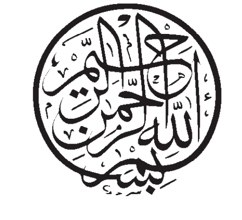
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

كردي ، ايمان بنت عبداللطيف بن كامل
القبول. / ايمان بنت عبداللطيف بن كامل كردي .- المدينة المنورة ، ١٤٤١هـ
٣٤٦ ص ؛ ..سم

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٣-١٨٣٢-٢

١- الوعظ و الارشاد ٢- التوبة ٣- الاخلاق الاسلامية أ.العنوان
ديوي ٢١٣ ١٤٤١/١٤٩١

رقم الإيداع: ١٤٤١/١٤٩١
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٣-١٨٣٢-٢



﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ
أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾

[الأحقاف: ١٦]

أصل الكتاب

رسالة علمية لنيل درجة الماجستير من جامعة طيبة

وقد نالت عليها المؤلفة امتياز مع مرتبة الشرف الاولى

رقم الإيداع بمكتبة الملك فهد الوطنية

١٤٣٦/٧٦٥٤

ونظرا لأهمية الموضوع

تم إعداده للنشر

ككتاب للقرّاء

المقدمة

الحمد لله ذي الآلاء والنعم ، الممتن على أمة الإسلام بالاصطفاء على سائر الأمم ،والمتفضّل عليها بالعفو والمغفرة للخطايا و اللمم . والمحسن فوق ذلك بالقَبول وواسع العطاء والكرم . أحمده تعالى ،وأصَلّي وأسلم على النبي المصطفى فيما بلّغ عن ربه بأخلص جَنانٍ ،وأفصح لسان،وعلى آله وصحبه ومن تَبعهم بإحسان .

أما بعد.. فإن من نعم الله تعالى أن فرض على عباده ما يثيبهم عليه ،وشرع لهم من العمل ما يقع منه سبحانه موضع القبول ،خلق عباده ويعلم ما يعتَورهم من هِنات وهفوات ،بل من عظائمَ وموبقات ،ومازال يقبل التوب ،ويغفر الذنب ،ويتجاوز عن السيئات . وما يزال العبد يتّبع هواه ،ويتعدّى حدود مولاه،ويسلك في الجناية أبعد مداه ،ثم يستغفر الله ،فيجد الله لذنبه غافراً،ولقليل عمله متقبلاً ،فيُثيبهُ عليه أعظم الأجر،حتى على ما قد نوى في قلبه من خير،مثنياً على عبده فوق ذلك بالثناء الجميل ،والشكر الجزيل . يرْبي القليل بيمينه فيجعله لعبده كالجبل،ويثيبه عليه جنة الخلد بعد انتهاء الأجل.

يقبل التوبةَ عن عباده ،ويقبل العملَ الصالح ،ويقبل العبدَ ويُدنيه منه ويقرّبه ،فسبحانه ما أجزل إكرامه! وما أجلّ إنعامه !.

ويجدر القول بأن القبول متعلق بمشيئته سبحانه أولاً وآخراً،فإن شاء تقبّل العمل وإن شاء ردّه،ولكنه عز وجلّ قد أوعد عباده الذين لهم قدم صدق عنده بالقبول ،والمتأمّل في كتاب الله،والسنة المطهرة يجد أن هناك علامات ومنارات كمنار السبيل نستمد من ضيائها دلالات القبول،ونسترشد بهديها إلى شروط القبول وما يتعلق به ،لذا آثرت أن أتتبعها في هذا البحث ،عسى أن نصل بذلك إلى جماع الرأي،وسداد القول ،لعل الله تعالى أن يجعلنا بذلك إلى الحق أهدى سبيلاً ،وإلى الصواب أقوم قيلاً.

هذا وينبغي للمؤمن أن يتلمّس مكامن القبول ،ومواقع الرضوان كما يتلمّس مواضع القطر،ومواطن الكلأ ،ليرتع في الخصب ،وينال أطيب الثمر. فذلك لعمر الله غاية ما يرجوه العبد وهو مصداق لقوله ﷺ: (إِنَّ الْعَبْدَ لَيَلْتَمِسُ مَرْضَاةَ اللهِ فَلَا يَزَالُ بِذَلِكَ، فَيَقُولُ اللهُ لِجِبْرِيلَ: إِنَّ فُلَاناً عَبْدِي يَلْتَمِسُ أَنْ يُرْضِيَنِي أَلَا وَإِنَّ رَحْمَتِي عَلَيْهِ، فَيَقُولُ جِبْرِيلُ: رَحْمَةُ اللهِ عَلَى فُلَانٍ، وَيَقُولُهَا حَمَلَةُ الْعَرْشِ، وَيَقُولُهَا مَنْ حَوْلَهُمْ حَتَّى يَقُولَهَا أَهْلُ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ، ثُمَّ تَهْبِطُ لَهُ إِلَى الْأَرْضِ) [1]. فلو تأملنا لفظ (يلتمس) لوجدنا أن فيه دلالة على البحث والتحرّي لمواضع الرّضا،ومواطن القبول ،نسأل الله تعالى أن يهدينا لما يرضيه.

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٧/ ٧٨ /ح ٢٢٤٠١) وحسّنه الأرناؤوط في مسند أحمد ،ورواه الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (١٠/٢٧٥/ح ١٧٥٣٩ (وقال: ورجاله رجال الصحيح غير ميمون بن عجلان وهو ثقة.

القبول مطلب

القبول عند الله مطلب كل إنسان،ولكنه مطلب لا يتحقق إلا بشروطه فمِن أعظم الخسارة أن تُؤدي العبادات على غير ما شرع الله.

أو يبتغى بها غيره. أو تُؤدّى على العادة والغفلة .

أو يتهاون فيها ويُتثاقل عنها.

وأن تمارس المعاملات،وسائر أمور الحياة ،ثم لا يُبتغى بها وجهه الكريم .

فقد يعمل أحدنا العمل لحظّ نفسه ،أو لأجل فلان ،أو هكذا لأنه محبٌ للخير

أو لأنها عادة عنده ووافقت هواه .

كلّ ما سبق عيوب منها ما يُفسد العمل ومنها ما يُنقص ثوابه.

وشتان بين العمل لله والعمل لغيره وإن تساويا في الأداء ولكن هذا مقبول عند الله والآخر غير مقبول والمعوّل عليه في كلّ أمرنا هو القبول

فكلٌ منا سوف يُقدم سجلّ أعماله بين يديه في ختام هذه الحياة

وكأنه يقول هذه حياتي .. هذه أيام عمري التي عشتها.. هذه ساعاتي التي قضيتها .. كانت وفق طاعتك يارب.

هذه عبادتي .. كانت وفق أمرك يارب .

هذه معاملاتي بين الناس .. كانت كما تحب يارب .

حتى تقوّم كلها في ميزان لا يغادر منها صغيرة ولا كبيرة .

ثم وفقاً لذلك كله تُعلن النتيجة على رؤوس الأشهاد ..فمقبول وغير مقبول

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩﴾ [القارعة: ٦ – ٩]

إذن فالقبول نتيجة مرتبطة بالنجاح .. وعاقبتها الفوز والفلاح

ومن خلال هذا البحث المتواضع نتعرف على سبل الوصول إليه ،والترقي في درجاته .

****

القبول وألفاظه الدالة عليه

القبول أمر جليل ،ومطلب أساس ،يسعى إلى تحقيقه كل الخلائق ،والقبول موضوع متّسع باتساع الإسلام جميعه ،كيف لا والإسلام عمل والقبول نتيجته ،والإسلام زرع والقبول حصاده ،وخير ما نستهل به هذا الموضوع المتشعب هو إلقاء الضوء على لفظه وتحقيق معناه حتى نتعرّف على الموضوع من جميع جوانبه، ونتتبع ذلك على ضوء لغة القرآن ،ونرسل النظر فيما تخبئه من تصوّر وبيان.

أولاً : مفهوم القبول:

القبول في اللغة : ضد الرفض والرد(١)، ويقال تقبّله أي أخذه. والله تعالى يقبل الأعمال من عباده ويتقبّلها. ويقال قبلت الشيء قَبولاً إذا رضيته,فالقبول الرضا بالشيء(٢).

ومما سبق يظهر أن الألفاظ المتعلقة بالموضوع لفظان رئيسان :

الأول: لفظ (يقبَل):كما في قوله تعالى:﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى:٢٥]

---

(١) ومنه قول عائشة رضي الله عنها: (من عملَ عملا ليسَ عليهِ أمرُنا فهو ردٌّ) أي مردود غير مقبول والحديث أخرجه مسلم في صحيحه (١٣٤٣/٣/ح ١٧١٨).

(٢) ينظر لسان العرب (١١ / ٢١) ،و المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص: ٦٥٤.

ويراد به الموافقة على الشيء ويتبين معناه بحسب موقعه في سياق الآية فقد يراد به قبول الإجزاء أو الإثابة أو قبول الرضا وقبول المحبة المؤدي إلى المزيد من العناية والرعاية والارتقاء عند الله[١].

الثاني : لفظ (يتقبَّل): وهو مضارع على وزن يتفعَّل كما في قوله تعالى :﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ المائدة: ٢٧ وفيه أربعة أقوال :

١- أنه يفيد دوام الصعود والترقي في معارج القبول[٢]. فإن محبة الله للعبد تتفاوت بحسب التماس العبد واتيانه لمحابّ الله ،وكلما أدام العبد رفْع العمل الصالح بين يدي ربه وتقبّله الله منه خالصاً لوجهه انتهى به ذلك إلى شرف الحصول على أعلى درجات المحبة والقبول.

٢-ويفيد الأخذ والتلقي والتكفّل بالشيء فمعنى قوله تعالى﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ [آل عمران: ٣٧] أي تكفّل بها وتسلّمها وتلقّاها بالرضا والمحبة[٣].

٣- ويفيد قبول الشيء على الوجه الذي يقتضي ثواباً كالهدية.

---

(١) ينظر تفسير الرازي (مفاتيح الغيب) (٨/٢٠٥).
(٢) ينظر المفردات في غريب القرآن ص: ٦٥٣ .
(٣) ينظر تفسير الخازن (لباب التأويل في معاني التنزيل) (١/ ٢٤١)،وتفسير الزمخشري (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل) (١/ ٣٥٧).

٤- ويفيد معنى التكلّف في القبول أو المبالغة في إظهار القبول [١] قال ابن حيان ((فالتَّقَبُّلُ تَكَلُّفُ الْقَبُولِ، وَذَلِكَ حَيْثُ يَكُونُ الْعَمَلُ نَاقِصًا لَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُقْبَلَ)) [٢] أو كما يتوهم صاحبه ذلك، فيتقبله الله ويتجاوز عن عيوبه ويتلقاه بالنظرة الراضية المستحسنة [٣]، لذا قالت أم مريم حينما نذرت ما في بطنها: ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ﴾ [آل عمران: ٣٥] فتقبّل الله منها مريم عليها السلام وقال تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا﴾ [آل عمران: ٣٧] أي تسلّم هذه النذيرة بالرضا وذلك مع كونها أنثى والمعلوم أن الأنثى لاتصلح لخدمة بيوت العبادة فتقبلها كما يقبل الذكر بل وتقبّلها قبل أن تنشأ وتصلح للسدانة [٤] .

وكذا قول النبيين الكريمين إبراهيم واسماعيل عليهما السلام وهما يبنيان البيت كما حكى الله تعالى عنهما في قوله: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ [البقرة: ١٢٧] فهما يقدّمان هذا العمل المتواضع على حريرة من الإشفاق واعتراف بالتقصير والقِلّة وخوف عدم القبول [٥].

يظهر من خلال المعنى السابق أن طلب التقبّل من مقدّم العمل كقولك (تقبّل مني) فيه استشعار بقصور العمل وتواضع العامل.

(١) ينظر تفسير الرازي (مفاتيح الغيب) (٨/ ٢٠٥).
(٢) تفسير البحر المحيط (١/ ٥٥٧).
(٣) ينظر زهرة التفاسير (٣/ ١١٩٩).
(٤) ينظر تفسير البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (١/ ٣٤٧)، وتفسير النيسابوري (غرائب القرآن ورغائب الفرقان)(١/ ٤٠١) .
(٥) ينظر تفسير ابن عرفة (١/ ٤١٨)، ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (٢/ ١٥٨).

والتقبل من المتلقي كقولك (تقبّلت منك) هو أخذه بالاستحسان والرضا والتجاوز عما فيه من عيوب. ويمكن الجمع بين المعاني الأربعة للتقبّل من المتلقي بأن يقال: هي المبالغة في القبول بالإثابة عليه والترقّي في درجاته [١].

والقبول في الاصطلاح:

لم أعثر على تعريف له ولكن من خلال استقراء آيات القبول والبحث في معانيه يمكن أن يُستخلص معنى القبول بأنه:

تلقّي الله تعالى للعمل الصالح وتسلّمه من العبد المؤمن على الوجه الذي يقتضي الإجزاء أو الإثابة أو الثناء عليه والرضا عنه والمحبة له.

****

(١) ويكون الترقي في درجاته مع إدمان العمل والمداومة عليه تحقيقاً لقوله: (وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ) جزء من حديث في صحيح البخاري (٨/١٠٥/ح٦٥٠٢).

ثانياً : الألفاظ الدالة على القبول أو الترغيب فيه:

القبول ثمرة العمل الصالح ،وقد رغّب القرآن الكريم فيه ،وبسطه على أوجه مختلفة للتشويق ،وزرع أهميته في النفوس،وبيّنه بدلالات وإشارات و أساليب متنوعة إما باللفظ أو بالمعنى أو بهما معاً .

ومن خلال استقراء آيات الاصطفاء في القرآن الكريم يظهر أن الاصطفاء في القرآن هو أحد المعاني الدالة على القبول، فالاصطفاء والاختيار دليل القبول ، وهو درجات متفاوتة، فالله تعالى اصطفى هذه الأمة على سائر الأمم، واختصها بالقبول. ومناط الاصطفاء هومناط القبول و هو الإيمان المتمثل في الاعتقاد والانقياد بالقول والعمل.

والاصطفاء في اللغة : هو الاختيار والصِّفوة بالكسر هو خيار الشيء وخلاصته (١).

وكما أن هناك قبول عام لأمة محمد ﷺ (أمة الإجابة) وقبول خاص لأفراد وفئات ،فكذلك الاصطفاء فإن الله اصطفى المؤمنين واختارهم وتقبل أعمالهم على ثلاثة مراتب في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ۝٣٢﴾[فاطر: ٣٢].

---

(١) ينظر لسان العرب (٧/ ٣٧٠) ،والكليات لأبي البقاء الحنفي ص: ١٣٠.

فمنهم مؤمن﴿ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ بالذنوب، والتفريط في المأمورات و﴿مُّقۡتَصِدٞ﴾ وهو من اقتصر على أداء الفروض والواجبات تائب إلى الله من الذنوب ، و﴿سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾مقرب إلى ربه بالنوافل وهذا في المرتبة العليا، وكلاً وعد الله الحسنى[١]. قال ابن تيمية رحمه الله: (فالمسلم الذي لم يقم بواجب الإيمان هو الظالم لنفسه، والمقتصد هو المؤمن المطلق الذي أدى الواجب وترك المحرم، والسابق بالخيرات هو المحسن الذي عبد الله كأنه يراه)[٢] .

فالظالم لنفسه من هؤلاء تحت المشيئة وقد يُؤخَر قبوله حتى يصفو من الخبث وقد فُصّل ذلك في مؤخرات القبول[٣].

واصطفاء الله للعباد يتفاوت في درجاته كتفاوت السموات والأرض بدءًا من اصطفاء النجاة من الخلود في النار إلى اصطفاء مريم عليها السلام في قوله تعالى:﴿ وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [آل عمران: ٤٢]. وأعلى من ذلك اصطفاء الأنبياء .قال تعالى :﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾[آل عمران: ٣٣].

---

(١) ينظر الإيمان لابن تيمية ص: ١١ .

(٢) ينظر المصدر السابق ص: ٢٨١.

(٣) ينظر مطلب مؤخرات القبول في هذا الكتاب ص: ١٢٢

فهل يستوي اصطفاء الأنبياء واصطفاء الظالم لنفسه من الموحدين.

وهل يستوي الظالم والمقتصد والسابق في ذلك؟ وفي آية مريم إشارة إلى درجات الاصطفاء فقد بينت الآية اصطفاءها مرتين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فالاصطفاء الأول يرجع إلى علو قدرها وما خصّها الله به من الصفات الحميدة والأفعال السديدة، والاصطفاء الثاني يرجع إلى تفضيلها على نساء العالمين(١).
وقد قال الله تعالى في محكم كتابه أنه تقبّل مريم بقبول حسن و قال أنه اصطفاها فدل على أن الاصطفاء كما هو القبول مراتب ودرجات فهو اصطفاء واختيار واجتباء ثم كرامة ومنزلة وعلو شأن ورفعة على الخلق وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

ومن هنا يتضّح أن الاصطفاء في القرآن يندرج فيه معنى القبول وهو متضمّن له.

وهناك ألفاظ في الكتاب الكريم تشير إلى القبول تصريحاً أو تتضمّن أن الله تعالى تقبل عملاً معيناً أو عبداً معيّناً ممن دلّت عليهم بعض الآيات على وجه الخصوص،أما على وجه العموم ففيها دعوة للعمل بمقتضى هذه الآيات لنيل شرف القبول والدخول في حظيرته ومن ذلك التصريح:

١- بلفظ القبول أو أحد مشتقاته كقوله تعالى:﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾[آل عمران: ٣٧] وذلك لما

---

(١) ينظر تفسير السعدي ص:١٣٠،والبحر المحيط في التفسير (٣/١٤٦)،وتفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن((٤/٨٢).

منّ الله به على مريم عليها السلام من صفات الصلاح والتقوى،والقبول الحسن هو حصول العبد فوق ما يتمنى ،ويتولاه الله في أحسن من تولى في جميع أمره،وسلوك سبيل السعداء(١).

٢- بنيل محبة الله تعالى كقوله : ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]فالله تعالى يحب المؤمنين،والمحبة دالّة على القبول وما يتبع ذلك من رحمة وعفو وتكريم ورفعة بحسب مكانة العبد عند الله، روى الإمام أحمد عن الحسن رضي الله عنه قال: ((والله لا يعذب الله حبيبه ولكن قد يبتليه في الدنيا))(٢) كما صرّح النَّبِيّ ﷺ فقَالَ:(إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ العَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحْبِبْهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فِي الأَرْضِ)(٣).

٣- بالبشارة بالجنة: كما في قوله تعالى:﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ٧٦﴾[طه: ٧٦] . والمعلوم أن الجنة جزاء المقبولين .

٤-باختصاصهم برحمته:﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [التوبة: ٧١] ولا يرحم الله تعالى إلا من تقبلهم واختارهم ونالوا رضاه.

---

(١) ينظر تفسير ابن كثير (٢/ ٣٩) ،وتفسير الثعلبي (الكشف والبيان عن تفسير القرآن) (٣/ ٥٦).
(٢) الزهد لابن حنبل ص: ٤٨/ح٢٩٨.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١١١/ح٣٢٠٩) .

٥- بتعليق الفلاح عليهم أو الهدى وما شابه ذلك كقوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[البقرة: ٥] أي: أولئك على بيان وبصيرة من الله [١]. ومن كان على بيان وهداية من الله كان ولا شك مفلحاً فائزاً مقبولا عند ربه.

٦ -بالوعد بالثواب أو تكفير السيئات كقوله تعالى :﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ٧٠﴾[الفرقان: ٧٠] قال أبو حيان: ((مَنْ تَابَ وآمن وعمل صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنات وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَلاَ يَلْقَى عَذَابًا البتة)) [٢].

٧- بالثناء على العبدكقوله تعالى:﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَـٰنَۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[ص: ٣٠] ففيه ثناء على عبده سليمان عليه السلام لأنه رجّاع إلى طاعة الله توّاب إليه مما يكرهه منه [٣] وكفى بثناء الله تعالى على العبد دليل قبول ومحبة.

---

(١) ينظر البرهان في علوم القرآن (١٠٣/١).

(٢) البحر المحيط (١٣١/٨) وقيل: التبديل في الدنيا فيمحو الكفر بالإيمان و يمحو المعاصي بالتوبة . وقيل: بل في الآخرة يغفرها لهم فيجعلها حسنات وقد جاء في الصحيح : (إِنِّي لَأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا الْجَنَّةَ، وَآخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا، رَجُلٌ يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُقَالُ: اعْرِضُوا عَلَيْهِ صِغَارَ ذُنُوبِهِ، وَارْفَعُوا عَنْهُ كِبَارَهَا، فَتُعْرَضُ عَلَيْهِ صِغَارُ ذُنُوبِهِ، فَيُقَالُ: عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا، وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: نَعَمْ، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَ وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنْ كِبَارِ ذُنُوبِهِ أَنْ تُعْرَضَ عَلَيْهِ، فَيُقَالُ لَهُ: فَإِنَّ لَكَ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً، فَيَقُولُ: رَبِّ، قَدْ عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لَا أَرَاهَا هَا هُنَا (فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ) أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٧/١/ ح٣١٤) ولا يمنع الجمع بين القولين فيكون التبديل في الدنيا و الآخرة .

(٣) ينظر تفسير مقاتل بن سليمان (٦٤٣/٣) ،وتفسير الطبري (١٩١/٢١).

٧- بالرضا عن العبد كقوله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[المائدة: ١١٩] إنهم صدقوا الله ما وعدوه ،فوصلوا إلى رضاه ،فوفّى الله لهم ما وعدهم به من الثواب. ورضاء الحق- سبحانه- إثبات محلّ لهم، وثناء عليهم ومدح لهم. والفوز العظيم هو الظفر بالطِلبة فنالوا ما كانوا يطلبون ويؤملون من ربهم[١] وماذا بعد الرِّضا والجنة من قبول؟

ثالثاً: الألفاظ الدالة على التهديد بعدم القبول أو تأخيره:

بتأمل ما ورد في القرآن الكريم من الآيات الدالة على التهديد بعدم قبول العبد أو عدم قبول عمل بعينه أو تأخير القبول لما بعد استيفاء العقاب . وهي الآيات التي تضمنت الوعيد الشديد للخارجين عن الملة ، أما بالنسبة لأهل الكبائر من الموحدين فقد تكون لهم أعمالاً تمنع إنفاذ العقوبة كالتوبة وكثرة الحسنات الماحية، وكثرة المصائب المكفرة، وإقامة الحدود في الدنيا أو عفو الله تعالى أو شفاعة الشافعين يوم الدين[٢] ، ولكن لابد من ذكر هذه الألفاظ لما تحتمله من وعيد حتى يأخذها المسلم على محمل الجدّ ويتجنب أسباب تأخير القبول،ولايجوز

(١) ينظر تفسير الطبري (٩/ ١٤٢)،وتفسير ابن كثير (٨/ ٤٥٨).

(٢) ينظر المستدرك على مجموع الفتاوى لابن تيمية (١/ ٢٢٣).

إسقاطها على شخص بعينه بل هي عامة للردع والزجر. ونجد ألفاظ الوعيد قد عبر بها القرآن الكريم بمعان شتى وألفاظ مختلفة ،وعلى أوجه متعددة ترهيباً وتحذيراً ومن ذلك:

١-التصريح بعدم القبول كقوله تعالى: ﴿قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمًا فَٰسِقِينَ﴾ [التوبة:٥٣]فالخارج عن دائرة الإيمان لا يقبل منه توصّل ولا تَقرّب،فعملهم مردود لا ثواب عليه إلا بتوبة(١).

٢- التعبير بالسخط أو المقت إما للعمل أو لصاحبه كقوله تعالى:﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ﴾[المائدة: ٨٠] وكما قال النبيﷺ: (من أعان على خصومة بظلم ،لم يزل في سخط الله حتى ينزع) (٢) فهذه صفات تبين التحذير من نفي الرضا ،للوقوع في الكبيرة

---

(١)ينظر تفسير ابن كثير (٢/١٤٨) ،وتفسير الطبري (١٤/٢٩٣)، وهذه الآية المراد بها المنافقون قال الشيخ عبد اللطيف آل الشيخ " بل المنافقون قد يصومون ويصلون ويصدقون، ولكن لا يقبل منهم. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [النساء: ١٤٢] وقال تعالى: ﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٥٣]" منهاج التأسيس والتقديس في كشف شبهات داود بن جرجيس ص:٢٦٩. وقال صاحب كتاب نور الإيمان (النفاق الأكبر يُحبط جميع الأعمال، قال الله – عز وجل -: ﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ نور الإيمان وظلمات النفاق في ضوء الكتاب والسنة للدكتور سعيد القحطاني ص:٥٢.

(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن(٢/٧٧٨/ ٢٣٢٠)،وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٠٤٩).

وعظيم الجرم إن مات على ذلك ،فمن كان مسخوطاً عليه ممقوتاً ومبغوضاً عند الله فأنى له القبول ؟ إلا أن يستوفي عقوبته إن كان من الموحدين أو يعفو الله عنه[١]. قال تعالى:﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [آل عمران: ١٦٢].

٣- النذارة أو التخويف بجهنم كقول القوي العزيز سبحانه:﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥] فبغض النظر عن نوع المعصية فإن النذارة بجهنم قد تكون للخلود المستلزم لعدم القبول البتة، وقد تدلّ على تأخير القبول إذا عُني بها عُصاة الموحدين حتى يأخذوا حظهم من جهنم عياذا بالله . ومثل ذلك الوعيد بالخلود فيها[٢]كما قال تعالى :﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا

(١) هذه الألفاظ دالة على الوعيد لعظم الجرم و" الكبيرة هي ما جُعل له حدٌّ في الدنيا أو توعد عليه بلعنة أو غضب أو نار أو حبوط عمل ونحو ذلك" قطف الجني الداني شرح مقدمة رسالة ابن أبي زيد القيرواني لعبد المحسن العباد البدر ص: **١٢٠** "أصحاب الكبائر التي دون الشرك ليسوا كفاراً، وأنهم إذا لقوا الله ولم يتوبوا من هذه الكبائر فإنهم تحت المشيئة، إن شاء عذبهم بقدر ذنوبهم، ثم يخرجهم من النار ويدخلهم الجنة بتوحيدهم وإيمانهم، لا يخلدون في النار، ... هذا مذهب أهل السنة والجماعة" التعليقات المختصرة على متن العقيدة الطحاوية للشيخ صالح الفوزان.

إذن صاحب الكبيرة هو من الظلمين لأنفسهم الداخلين تحت المشيئة إذا لم يتب منها فهي دالة على تأخير القبول حتى تُستوفى العقوبة أو يعفو الله عنه. وينظر تخريج العقيدة الطحاوية للألباني ص:**٦٠**.

(٢) قال ابن تيمية: " فليس بين فقهاء الملة نزاع في أصحاب الذنوب إذا كانوا مقرين باطناً وظاهراً بما جاء به الرسول، وما تواتر عنه أنهم من أهل الوعيد، وأنه يدخل النار منهم من أخبر الله ورسوله بدخوله إليها، ولا يخلد منهم فيها أحد" الإيمان لابن تيمية ص:**٢٣٣**،و ينظر تفصيل ذلك في هامش رقم **١** ص: **٢١** من هذا البحث في بند التعبير بالسخط.

فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[النساء: ٩٣].

٤-الوعيد بالعذاب الأليم كقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾[البقرة: ١٠] والتخويف بالعذاب الأليم كذلك يستلزم عدم القبول في كثير من الآيات الدالة على الكفر والنفاق،وأما بخصوص عصاة الموحدين فتدلّ على تأخير القبول واستحقاق العذاب المسبق أو يوكل إلى مشيئة الله وسعة عفوه كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾[المائدة: ٩٤]. فمن قتل الصيد متعمداً عالماً بحرمته على المحرم ، فذلك يوكل إلى نقمة الله[1].

ومثل ذلك قوله ﷺ: (ثَلاَثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) قَالَ: فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلاَثَ مِرَارًا، قَالَ أَبُو ذَرٍّ: خَابُوا وَخَسِرُوا، مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: (الْمُسْبِلُ، وَالْمَنَّانُ، وَالْمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ)[2]

---

(١) ينظر تفسير الطبري (٩/١٠). وقد أفتى بعض الفقهاء بأن قتل المحرم للصيد عمداً من الكبائر لما فيه من وعيد في قوله تعالى:﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [المائدة: ٩٤] وقوله:﴿وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾[المائدة: ٩٥] ينظر الزواجر عن اقتراف الكبائر لأحمد أبوالعباس(١/٣٣٢).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، (١/١٠٢ / ح١٠٦).

فما ذُكر من وعيد في الحديث هو جزاء للموعودين به إن لم يعف الله عنهم أو ماتوا على غير توبة[1].

٥- التهديد بالخسارة كقول الحكم العدل سبحانه:﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[فصلت: ٢٣]وباستقراء الآيات المتضمنة للوعيد بالخسران يظهر أنها تدل على غبن النفس فهوتهديد بانتفاء القبول في كثير من الآيات أو بتقديم المؤاخذة وتأخير القبول في بعض منها إن لم يتب أو يعفو الله عنه وذلك كما في قوله تعالى:﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[المائدة: ٣٠].وإنما تحرّج هابيل الصالح من قتل أخيه قابيل في قوله:﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[المائدة: ٢٨] لأنه يعلم أنه مؤمن موحّد ولو علم كُفره لقتله بلا حرج لقتاله ومنها قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾[الحج: ١١]. وكذا في قوله تعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[المنافقون:٩] ووجه الاستدلال

---

(١) ينظر التكفير وضوابطه للسقار ص:٣٨ .

بالآية الكريمة أنه سبحانه حكم بالخسران المطلق لمن ألهاه ماله وولده عن الصلاة والخسران المطلق لا يحصل إلا للكافرين، فإن المسلم لو خسر بذنوبه ومعاصيه فآخر أمره إلى الربح[١] وذلك بعد المؤاخذة وهي الخسران الجزئي- إن صح التعبير - إن لم يتب أو يعف الله عنه.

٦- التخويف بحبوط العمل جميعه للكافر أو إبطال ثوابه للمؤمن كقوله تعالى:﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[هود: ١٦]. وأما ما يدل على إبطال ثوابه للمؤمن فقوله تعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢][٢]. قال ابن جرير ((أَنْ لَا تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ فَتَذْهَبَ بَاطِلَةً لَا ثَوَابَ لَكُمْ عَلَيْهَا، وَلَا جَزَاءَ بِرَفْعِكُمْ أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ نَبِيِّكُمْ))[٣]. وقال السعدي : ((فكما أن الحسنات يذهبن السيئات فالسيئات تبطل ما قابلها من الحسنات، وفي هذه الآية مع قوله تعالى ﴿وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾[محمد: ٣٣]حث على تكميل

(١) الأدلة على كفر تارك الصلاة ,كتاب التوضيح عن توحيد الخلاق في جواب أهل العراق وتذكرة أولي الألباب في طريقة الشيخ محمد بن عبد الوهاب،لسليمان بن عبد الوهاب ص:١١٢.

(٢) ((ومذهب أهل السنة أنها لا تحبط إلا بالكفر، ويتأول حبوط عمل هذا على أنه أسقطت حسناته في مقابلة سيئاته)) أصول الإيمان للشيخ محمد بن عبد الوهاب ص: ٤٧، وهو ما يراد به في هذا البحث بأنه قبول إجزاء لا قبول إثابة.

(٣) تفسير الطبري (٢١/ ٣٤٢) ،و قال البغوي : ((أن تحبط حسناتكم)) تفسير البغوي (٤/ ٢٥٣)

الأعمال وحفظها من كل ما يفسدها لئلا يضيع العمل سدى»[١].

٧- التخويف باللعن والطرد كقوله تعالى:﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾[غافر: ٥٢]وبناء على ما هو معلوم من الدين فإن اللعن من الله تعالى على درجات فمنه الماحق والمانع للقبول بالكلية كلعنهِ إبليس وطرده من رحمته ,ولعنهِ الكافرين والمشركين ،ثم هناك اللعن المؤخِّر لقبول الحسنات وهو لعصاة الموحّدين،الموجب للنقمة والحسرة عياذا بالله،فيُحمل هذا التهديد على طول المكث إن أنفذ الله الوعيد،فيبقى في تلك اللعنة يمكث في بوارها إلى ما شاء الله ثم يخرج بعفو الله[٢]. وقد قال تعالى في عقوبة القذف:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣] فرمي المحصنات من كبائر الذنوب،ومن أكبر الذنوب ما

---

(١) تفسير السعدي ص: ١١٣،وانظر التفسير الوسيط (٩/ ٩٧٢),وتفسير العز بن عبد السلام (٣/ ١٩٩).

(٢) بين ابن تيمية أن لعن زوجات الرسول ﷺيستوجب اللعن الذي لا توبة منه أما لعن إحدى المحصنات غيرهن فتقبل توبته إذا تاب وقال:«فهذا ابن عباس قد بين أن من لعن هذه اللعنة لا توبة له واللعنة الأخرى أبلغ منها». الصارم المسلول على شاتم الرسول ص: ٣٣٨. يظهر من ذلك أن هناك لعن أبلغ من لعن . واللعن للمؤمن على الكبيرة إنما يراد به المكث الطويل وليس الخلود وقد يراد به الوعيد والتهديد والله له المشيئة المطلقة في إنفاذه من عدمه أو قد يكون سبباً لكفره في مستقبل أمره فيكون مآله إلى النار. ينظر شرح العقيدة الواسطية لابن عثيمين ص: ٢٦٢.

تعلّق بظلم الغير فكيف بقذف المحصنات الطاهرات العفيفات؟ فلعن الفاعل المسلم هنا هو طول مكثه مطرودا في نار جهنم عياذا بالله إن لم يتب ويعفو الله عنه.

٨- الطبع والختم على القلب كقوله تعالى:﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾[محمد:١٦] وقال:﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[البقرة: ٧]. وَأَصْلُ الْخَتْمِ: الطَّبْعُ، وَالْخَاتَمُ: هُوَ غلقها عن إدراك حقائق الدار الآخرة و الغيبيات[١] فلا يصل بذلك إليها الخير ولا يخرج منها خير،والطَّابَعُ هو الذي يُختم به الكتاب،فالقلوب كالكتب أوعية للمعارف والختم عليها هو إحكام غلقها حتى يعود صاحب ذلك القلب إلى صوابه إن حصل له ذلك ،وإلا فإن من ختم الله على قلبه وطبع عليه مُنع الخير كله[٢] وحُرم الرحمة وبعيدٌ أن تعودان إليه; لأن الطبع والختم إنما يحصل له بعد إمهال من الله، فإذا انقضت مدة الإمهال وهو على ما هو عليه من شرّ وباطل استحق به المقت ،وكان الطبع بعد ذلك طبعاً لا صلاح بعده ،ولا هادي له بعد الله إلا هو إذا تغمده برحمته،كما قال تعالى:﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾[محمد: ٢٣] وذلك مصداق قول المصطفى ﷺ:(تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى

(١) ينظر تفسير الطبري (١/ ٢٦٥).
(٢) ينظر الاستذكار للقرطبي (٢/ ٥٥).

الْقُلُوب كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ، عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلاَ تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ، مُجَخِّيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ)[١] . قال حذيفة رضي الله عنه ((القلب كالكف فإذا أذنب العبد انقبض وقبض إصبعاً، ثم إذا أذنب انقبض وقبض إصبعاً أخرى، ثم إذا أذنب انقبض،وقبض أصابعه،ثم يُطبعُ عليه))[٢].

وقد ورد الطبع في القرآن والختم بما يدل على عدم القبول البتة في معرِض الحديث عن الكفار والمنافقين واليهود،وقد وردت في السنّة في حق الموحدين وتُحمل على الوعيد بسوء العاقبة أو تأخير القبول حتى استيفاء العقوبة كما أسلفنا[٣] قال النبيﷺ: (لَيَنْتَهِيَنَّ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه(١/١٢٨/ح٢٣١). ومعنى مرباداً أي: شدة بياض في سواد قيل كالجمل الأجرب يُطلى بالقار،ارْبَدَّ لَوْنُهُ إِذَا تَغَيَّرَ وَدَخَلَهُ سَوَادٌ ومجخّياً أي: منكوساً. ينظر صحيح مسلم وفيض الباري على صحيح البخاري (٥/ ١٣١/ح ٤٣٥٦) ,،المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووي (٢/١٧٣/ح ٢٣١).
(٢) يؤثر ذلك عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه ينظر تفسير الثعلبي (١/ ٩).
(٣) ينظر مطلب مؤخرات القبول في هذا البحث ص: ١٢٢.

أَقْوَامٌ عَنْ وَدْعِهِمُ الْجُمُعَاتِ، أَوْ لَيَخْتِمَنَّ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ، ثُمَّ لَيَكُونُنَّ مِنَ الْغَافِلِينَ) (١).

٩- التصريح بعدم الرضا كقوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْۖ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[التوبة: ٩٦] وعدم الرضا يدل على السخط وعدم القبول فالله تعالى لا يرضى عن النفاق وأهله ومن كانت سجيته الكذب،وغضب الله تعالى يؤدي بالعبد إلى الشقاء ولزوم المساءلة والعقاب ،فلا ريب أن الله تعالى لا يرضى من القول والعمل إلا عبادته وحده لا شريك له واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم.

---

(١)أخرجه مسلم في صحيحه(٢/٥٩١/ح٨٦٥).قال الغزالي "ومهما تراكمت الذنوب طبع على القلوب وعند ذلك يعمى القلب عن إدراك الحق وصلاح الدين ويستهين بأمر الآخرة ويستعظم أمر الدنيا ويصير مقصور الهم عليها فإذا قرع سمعه أمر الآخرة وما فيها من الأخطار دخل من أذن وخرج من أذن ولم يستقر في القلب ولم يحركه إلى التوبة" إحياء علوم الدين للغزالي (٢/١٢).

الفصل الأول

مسَلّمات القبول وشروطه وموجباته
وعلاماته ومحبطاته

توطئــة

القبول نتيجة مغيّبة ،لا يعلمها إلا الله تعالى ،وهو أمرٌ مطلوب لذاته ،بل هو غاية ما يرجوه العبد من وراء عمله ،والعمل بذاته لا يوجب على الله تعالى ثواباً ،إنما الله تعالى هو المتفضل على العبد وهو الذي أوجب على نفسه حقاً لعباده بأن يرحم ويعفو ويغفر ويجعل دار كرامته لمن تقبّل منهم[١]،ودار المهانة لمن أشرك معه . ولقد تفاني السلف الصالح في العمل لنيل شرف القبول ، وما يترتب عليه من فوز و فلاح ،وما يترتب على انتفائه من خيبة وخسران عياذا بالله. قَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ[٢]: ((الْوَعْدُ وَالْوَعِيدُ حَقٌّ، فَالْوَعْدُ حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ ضَمِنَ لَهُمْ إِذَا فَعَلُوا كَذَا أَنْ يُعْطِيَهُمْ كَذَا وَمَنْ أَوْلَى بِالْوَفَاءِ مِنَ اللهِ؟ وَالْوَعِيدُ حَقُّهُ عَلَى الْعِبَادِ. قَالَ: لَا تَفْعَلُوا كَذَا فَأُعَذِّبَكُمْ فَفَعَلُوا فَإِنْ شَاءَ عَفَا وَإِنْ شَاءَ أَخَذَ لِأَنَّهُ حَقُّهُ))[٣].

---

(١) ينظر شرح العقيدة الواسطية لابن عثيمين ص: ٢٥١.
(٢) هو يحيى بن معاذ بن جعفر الرازيّ، أبو زكريا: واعظ، زاهد، كان حكيم زمانه قال عنه الذهبي : من كبار المشايخ، له كلام جيد، ومواعظ مشهورة من أهل الري. أقام ببلخ، ومات في نيسابور توفي عام ٢٥٨ هـ،ينظر المتفق والمفترق للخطيب البغدادي(٣/ ٢٠٤٩) ،وسير أعلام النبلاء (١٣/ ١٥)،والأعلام للزركلي (٨/ ١٧٢).
(٣) تفسير المنار (٨/ ٨٤).

ولـما كان القبول متعلقاً بالمشيئة فينبغي عدم الجزم به لعدم الجزم بتمام الفعل من نقصانه[١] لأن الحكم بالقبول إنما يكون بناء على الظاهر وعلى ما جاء من النصوص الثابتة ،ونكل السرائر والمشيئة إلى المختصّ بها جلّ شأنه.

ففي نُشدان القبول والفوز به وجلت القلوب،وطارت الأنفس ,واقشعرّت الجلود،قـال تعـالى مبيناً حال هؤلاء :﴿ وَٱلَّذِيـنَ يُؤۡتُـونَ مَـآ ءَاتَـواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَـةٌ أَنَّهُـمۡ إِلَىٰ رَبِّهِـمۡ رَٰجِعُونَ ﴾[المؤمنون:٦٠].

وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ (الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا، وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَهُوَ الرَّجُلُ يَزْنِي وَيَسْرِقُ وَيَشْرَبُ الْخَمْرَ؟ قَالَ: لَا يَا بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ أَوْ لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ يَصُومُ وَيُصَلِّي وَيَتَصَدَّقُ، وَهُوَ يَخَافُ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُ)[٢] .

ويحسن هنا إيراد طائفة من أقوال السلف تجسّد مدى اهتمامهم بأمر القبول ،وشدة الإشفاق والوجل أن تُردّ أعمالهم عليهم.

قال ابن رجب الحنبلي : "كان السلفُ الصَّالح يجتهدون في إتمام العمَل وإكماله وإتقانه، ثم يهتمُّون بعد

(١) ينظر مجموع الفتاوى لابن تيمية (٧ / ٤٤٧).
(٢) أخرجه أحمد في المسند (٤٢ / ٤٦٥/ح٢٥٧٠٥) (٢/ ١٤٠٤/ح٤١٩٨) ،والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٢١٢/ح٧٤٧) ,والترمذي في السنن (٥/ ٣٢٧/ح٣١٧٥) .وقال الألباني في صحيح ابن ماجة: (حسن) (ح٤١٩٨).

ذلكَ بقبـولهِ، ويخافـونَ من رَدِّه، وهـؤلاء الـذينَ :﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾))[1] .

ورُويَ عن عليٍّ رضي الله عنه أنه قال: ((كونُوا لقبول العمل أشدَّ اهتمامًا منكمُ بالعمل، ألم تسمعُوا اللَّهَ عزَّ وجلَّ يقولُ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[المائدة: ٢٧]))[2]

وعن فضالةَ بنِ عبيدٍ رضي الله عنه[3] قالَ: ((لأن أكونَ أعلمُ أنَّ اللَّهَ قد تقبلَ منّي مثقالَ حبة من خردلٍ أحبُّ إليَّ من الدنيا وما فيها ؛ لأنَّ اللَّهَ يقول:﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾))[4].

---

(١) تفسير ابن رجب الحنبلي (روائع التفسير) (٢/٢٨).

(٢) المصدر السابق (٢/٢٨).

(٣) هو فضالة بن عبيد بن نافذ بن قيس بن صهيب بن أصرم بن ججحبى القاضي الفقيه أبو محمد الأنصاري الأوسي . صاحب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من أهل بيعة الرضوان .شهد أحدا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله. ثم خرج إلى الشام وسكن بها ،وولي بها القضاء ،مات سنة ثلاث وخمسين وقيل تسع وخمسين.ينظر سير أعلام النبلاء (٣/١١٦) ،والوافي بالوفيات (٢٤/١٢).

(٤) روائع التفسير لابن رجب (٢/٢٨).

وقال ابنُ دينار[١] :((الخوفُ على العملِ أن لا يُتقبَّلَ أشدّ من العمل))[٢].

وقال عطاءٌ السُّليميُّ [٣]:((الحذرُ: الاتقاءُ على العملِ أن لا يكونَ للهِ))[٤].

وقالَ عبدُ العزيزِ بنُ أبي روَّاد[٥]:((أدركتُهم يجتهدونَ في العملِ الصالح، فإذا فعلوه وقع عليهم الهمّ، أيقبلُ منهُم أم لا ؟)) [٦].

قال بعضُ السَّلفِ: ((كانوا يدعُون اللَّهَ ستَّةَ أشهرٍ أن يبلِّغهم شهر رمضانَ. ثم يدعونَ اللَّهَ ستَّةَ أشهرٍ أن يتقبَّلَهُ منهُم)) [٧].

---

(١) هو أبو يحيى مالك بن دينار البصري من ثقات التابعين ، ومن أعيان كتبة المصاحف ،ولد أيام ابن عباس، وسمع من أنس بن مالك ، فمن بعده ، وحدث عنه ،توفي سنة سبع وعشرين ومائة وقيل : سنة ثلاثين ومائة.ينظر سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٦٢)،ووفيات الأعيان (٤/ ١٣٩).

(٢) روائع التفسير لابن رجب (٢/ ٢٨).

(٣) عطاء السليمي بصري عابد ، من صغار التابعين . أدرك أنس بن مالك ، وسمع من الحسن البصري قيل مات بعد الأربعين ومائة. ينظر سير أعلام النبلاء (٦/ ٨٤) والوافي بالوفيات (٢٠/ ٧٩).

(٤) روائع التفسير لابن رجب (٢/ ٢٨).

(٥) عبد العزيز بن أبي رواد شيخ الحرم مولى الأمير المهلب بن أبي صفرة ،أحد الأئمة العباد ،توفي سنة تسع وخمسين ومائة . ينظر سير أعلام النبلاء (٧/ ١٤٥).

(٦) روائع التفسير لابن رجب (٢ / ٢٨).

(٧) المصدر السابق (٢ / ٢٨).

فمن الناس من تكون أعماله كَسَرَابٍ بِقِيعَة ،ومنهم من تحفظُ أعماله عند ربه وديعة.

ومنهم من ربَت أعمالهم أمثال الجبال،ومنهم من غدت أعمالهم هباء لا يوزن بمثقال.

وهذا وهيْب بن الورد[١] صلى ذات يوم صلاة العيد فلما انصرف الناس جعلوا يمرون به فنظر إليهم ثم زفَر ،ثم قال :((لئن كان هؤلاء القوم أصبحوا مستيقنين أنه قد تُقُبِّل منهم شهرهم هذا لكان ينبغي لهم أن يصبحوا مشاغيل بأداء الشكر ،ولئن كانت الأخرى لقد كان ينبغي لهم أن يصبحوا أشغل وأشغل))[٢].

((وكان عدى بن أرطاة[٣] يخطب بعد انقضاء شهر رمضان فيقول كأن كبداً لم تظمأ وكأن عيناً لم تسهر،فقد ذهب الظمأ وأبقى الأجر فيا ليت شعري من المقبول منا فنهنئه ومن المردود منا فنعزيه،فأما أنت أيها المقبول فهنيئاً هنيئا ،وأما أنت أيها المردود فجبر الله مصيبتك))[٤].

لذا فإن نشدان القبول ،وتحري موجباته ،هو الأمر الثالث الذي درج على الاهتمام به السلف

---

(١) هو وهيب بن الورد أخو عبد الجبار بن الورد العابد الرباني أبو أمية ويقال أبو عثمان المكي مولى بني مخزوم ويقال اسمه عبد الوهاب ،وكان شديد الورع كثير التعبد وكان سفيان الثوري إذا فرغ من حديثه يقول قوموا بنا إلى الطبيب يعني وهيباً مات سنة ثلاث وخمسين ومئة. ينظر تهذيب الكمال في أسماء الرجال (٣١/ ١٦٩- ١٧٥).

(٢) شعب الإيمان (٣ / ٣٤٦).

(٣) هو عدِي بن أرطأة الفزاري الدمشقي ولاه عمر بن عبد العزيز على البصرة ,كان خطيباً واعظاً ،روى لَهُ مُسلم وَالْأَرْبَعَة ،قتل في فتنة يزيد بن معاوية سنة اثنتين ومائة . ينظر الوافي بالوفيات (١٩/ ٣٤٨) .

(٤) الصيام للفريابي ص:٩٥.

بعد الإخلاص وتحري الصواب ،فهنيئا لمن تُقبّلت منهم حسناتهم ، و صلواتهم ، وصيامهم وصدقاتهم ، فأولئك لعمر الله تحرّوا رشدا ،ووفوا مع الله عهدا ,فلهم الرضوان من ربهم فالمقبول لا يسخط الله عليه أبدا.

ومن هنا نجد أنّ القبول له ارتباط وثيق بالأعمال ،وعليه يدور المآل ،ويترتب عليه الجزاء بالجنة أو النار ،فاللهَ تعالى نسأل أن يلهمنا رشدنا ،ويتقبل أعمالنا ،ويجعلها خالصة لوجهه ويجزينا عليها الأجر والثواب إنه سميع مجيب الدعاء.. اللهم آمين.

❊❊❊❊

مسلّمات القبول

هناك أمران قطعيان ومسلّم بهما ،حيث لا مجال فيهما للأخذ والرد :

أولاً : اختصاص الله تعالى بالقبول :

العبد ضعيف خطاء ،تعصف به الأهواء ،وتميله الشبهات والشهوات فتصدر منه الذنوب والهفوات،ولولا فضل الله تعالى بالعفو والصفح والمغفرة لشدّد العقوبة ولهلك ابن آدم كما قال عز وجل في محكم كتابه : ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [النحل: ٦١] وقال:﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾[فاطر: ٤٥]. فَلَوْلَا سَعَة رحمة الله ومغفرته لما قامت الدنيا ، ولما طاب فيها عيش لأحد،فمن آثار أسماء الله تعالى (العفو ،الغفور ،الرحمن) ومن صفاته غافراً للذنب،وقابلاً للتوب،ما يبين تفضّله عزّ وجلّ برحمة عباده وغفران ذنوبهم وقبول طاعاتهم واختصاصه وحده بذلك،قال تعالى:﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ

مَـا تَفۡعَلُـونَ﴾ [الشورى: ٢٥] أي هو وحده الذي يقبل التوبة ويردّها فاقصدوه بها ،ووجهوها إليه [١].

وقال تعالى: ﴿قُـلۡ هُـوَ رَبِّي لَآ إِلَٰـهَ إِلَّا هُـوَ عَلَيۡـهِ تَوَكَّلۡـتُ وَإِلَيۡـهِ مَتَابِ﴾[الرعد:٣٠] أي هو وحده الذي يَقبل التوبة فينبغي أن يُتاب إليه ،ويُطلب العفو منه ، وكما أن التوبة والعفو والمغفرة بيد الله وحده ،فبدهيّ أن قبول العمل كلّه بيده وحده يتقبّل من يشاء وما يشاء فيحبّه ويقرّبه ،ويردّ من يشاء وما يشاء ولا رادّ لحكمه ولا معقّب لأمره. فقد يكون العمل في ذاته صحيحاً ،وموافقاً للشرع ،ولا يقبله الله لعلّة في صاحبه ،لذلك فإن من مأثور الدعاء سؤال الله تعالى القبول،وكما جاء حكاية عن النبيين الكريمين إبراهيم وإسماعيل عند أدائهما لطاعة وهي بناء الكعبة سألا ربهما القبول في قوله تعالى :﴿وَإِذۡ يَرۡفَـعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِـدَ مِـنَ ٱلۡبَيۡـتِ وَإِسۡـمَٰعِيلُ رَبَّنَـا تَقَبَّـلۡ مِنَّـآۖ إِنَّـكَ أَنـتَ ٱلسَّـمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[البقرة: ١٢٧]. والآية دالة على استحباب الدعاء بقبول الأعمال عند البدء وبعد الفراغ .فسؤال النبيين ربهما القبول كان حينما شرعا في رفع القواعد بدليل قوله: ﴿وَإِذۡ﴾ للمضيّ في الأمر وهي إشارة بدء

(١) ينظر تفسير القاسمي (محاسن التأويل) (٥/ ٤٩٦).

لحال ماضية ،وقوله :﴿يَرۡفَـعُ﴾ بالمضارع الدال على استمرار الحال حتى الفراغ من البناء[١] ثم قوله: ﴿رَبَّنَـا تَقَبَّـلۡ مِنَّـآۖ﴾ أي: وهما يقولان ربنا تقبل أعمالنا التي قصدنا بها طاعتك، وهذا ما يرجحه ما جاء في قوله ﷺ :(فَجَعَـلَ إِسۡـمَاعِيلُ يَـأْتِي بِالحِجَـارَةِ وَإِبْرَاهِيـمُ يَبْنِـي، حَتَّـى إِذَا ارْتَفَـعَ البِنَـاءُ، جَـاءَ بِهَـذَا الحَجَـرِ فَوَضَعَـهُ لَـهُ فَقَـامَ عَلَيْـهِ، وَهُـوَ يَبْنِـي وَإِسْـمَاعِيلُ يُنَاوِلُـهُ الحِجَـارَةَ، وَهُمَـا يَقُـولاَنِ: ﴿رَبَّنَـا تَقَبَّـلۡ مِنَّـآۖ إِنَّـكَ أَنـتَ ٱلسَّـمِيعُ ٱلۡعَلِيـمُ﴾ قَالَ:فَجَعَلاَ يَبْنِيَانِ حَتَّى يَدُورَا حَوْلَ البَيْتِ وَهُمَا يَقُولاَنِ: ﴿رَبَّنَـا تَقَبَّـلۡ مِنَّـآۖ إِنَّـكَ أَنـتَ ٱلسَّـمِيعُ ٱلۡعَلِيـمُ﴾)[٢].

****

(١) ينظر إعراب القرآن العظيم للأنصاري ص: ١٨١.وتفسير الالوسي (روح المعاني)(١/ ٣٨١)،والتصوير الفني في القرآن ص: ٥٧.

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٤٢/ح٣٣٦٢).

ثانياً : الإيمان أصلٌ في قبول العمل :

ذُكر آنفاً أن القبول مختص بالله تعالى وحده يقبل من يشاء ،ويردّ من يشاء ولا معقب لحكمه،وقد ذكر الله تعالى في محكم التنزيل أنه لا يقبل العمل إلا ممن هو على دين الإسلام قال تعالى:﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[آل عمران: ٨٥]. فالإسلام المراد به الدين برمته الذي يتضمنه الإيمان وأركانه وفرائضه ،فهما متلازمان فلا إيمان بغير إسلام،ولا إسلام بغير إيمان. ولا إيمان بغير عمل[1] ،فمسمى الدّين اسْم وَاقع على الْإِيمَان وَالْإِسْلاَم[2].

فلا يقبل عمل بغير دين الإسلام قال عزّ من قائل :﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾[الإسراء: ١٩]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾[آل عمران: ٩١].

---

(١) وهي عقيدة أهل السنة والجماعة خلافاً للمرجئة الذين يقولون أن العمل مكمّل للإيمان لا أصلٌ فيه.
(٢) ينظر الرد على الشاذلي في حزبيه، وما صنفه في آداب الطريق لابن تيمية ص: **٢٠٢**،والفقه الأكبر لأبي حنيفة ص: **٥٧**

والآيـات في ذلك مستـفيضة ،وهو أمر معلوم من الدين فلا يُتصور قـبول عمل الكـافر وقد قال عز وجل في شأنه: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾[الفرقان: ٢٣]. فعمل الكافر وإن كان صالحاً في ذاته إلا أنه غير مقبول ،وهو غير مجزي به في الآخرة [١].

وعلى هذا فالإيمان المنوط بقبول العمل من أتباع الأمم السابقة من أهل الكتاب هو ما كان فيه اتّباع لأنبيائهم قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم .

وأما بعد البعثة فإن الإيمان المنوط بقبول العمل هو ما كان فيه اتباع لسيد البشر ،النبي المبعوث رحمة للعالمين محمد عليه الصلاة والسلام لأن رسالته عالمية ناسخة لجميع الأديان قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[سبأ: ٢٨]. وقد استدل المستشرقون بشبهة داحضة ،وحجة سقيمة على أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ

(١) عمل الكافر غير مقبول قبول نجاة وإثابة في الآخرة وإنما يثاب على حسناته في الدنيا لحديث الرسول عليه الصلاة والسلام في صحيح مسلم وقد ذكرته آنفا وأعيد ذكره هنا للفائده قال ﷺ: (إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً، يُعْطَى بِهَا فِي الدُّنْيَا وَيُجْزَى بِهَا فِي الْآخِرَةِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِ مَا عَمِلَ بِهَا لِلَّهِ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الْآخِرَةِ، لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَى بِهَا) أخرجه مسلم في صحيحه(٤/٢١٦٢/ح٢٨٠٨) إذن فعمل الكافر في الآخرة مردود ،ينظر ثلاثة الأصول وشروط الصلاة والقواعد الأربع للشيخ محمد بن عبد الوهاب ص: ٢٧.

ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢] يدل على أن من كان من هذه الطوائف صالحاً في عمله ،وظلّ على دينه حتى بعد بعثة الرسولﷺ فعمله مقبول وهو مثاب عليه ولا خوف عليهم من عقاب يوم القيامة. والردّ عليهم هو أن هذه الآية فيها حكم لأهل الكتب السماوية السابقة(١)،فأخبر الله أن المؤمنين

---

(١)وفيما يخص لفظ ﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾قال السعدي : « لما ذكر [الله تعالى] بني إسرائيل وذمّهم، وذكر معاصيهم وقبائحهم، ربما وقع في بعض النفوس أنهم كلهم يشملهم الذم، فأراد الباري تعالى أن يبين من لم يلحقه الذم منهم بوصفه، ولما كان أيضا ذكر بني إسرائيل خاصة يوهم الاختصاص بهم. ذكر تعالى حكماً عاماً يشمل الطوائف كلها، ليتضح الحق، ويزول التوهم والإشكال» (تفسير السعدي ص: **٥٤**).وإذا سلّمنا جدلاً بأن الآية الكريمة فيها إخبار عن تلك الطوائف بعد البعثة فيكون المراد منها هو كما علّق الطبري في شرحها بقوله :« معنى إيمان المؤمن في هذا الموضع، ثباته على إيمانه وتركه تبديله. وأما إيمان اليهود والنصارى والصابئين، فالتصديق بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به، فمن يؤمن منهم بمحمد، وبما جاء به واليوم الآخر، ويعمل صالحاً، فلم يبدل ولم يغير حتى توفي على ذلك، فله ثواب عمله وأجره عند ربه» تفسير الطبري **(٢/ ١٤٨)**. وقال الشوكاني : «إِنَّ الْمُرَادَ الَّذِينَ صَدَّقُوا النَّبِيَّ صَلَّى الله عليه وَسَلَّمَ وَصَارُوا مِنْ جُمْلَةِ أَتْبَاعِهِ، وَكَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَرَادَ أَنْ يُبَيِّنَ أَنَّ حَالَ هَذِهِ الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَحَالَ مَنْ قَبْلَهَا مِنْ سَائِرِ الْمِلَلِ يَرْجِعُ إِلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ أَنَّ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا اسْتَحَقَّ مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ مِنَ الْأَجْرِ، وَمَنْ فَاتَهُ ذَلِكَ فَاتَهُ الْخَيْرُ كُلُّهُ وَالْأَجْرُ دِقُّهُ وَجِلُّهُ» فتح القدير **(١/ ١١٠)**. وينظر تفسير الطبري **(٢/ ١٤٨)** ,و فتح القدير **(١/ ١١٠)** ،تفسير السعدي ص: **٥٤**

من هذه الأمة، واليهود والنصارى، والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر، وصدقوا رسلهم، فإن لهم الأجر العظيم والأمن، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وأما من كفر منهم بالله ورسله واليوم الآخر، فهو بضد هذه الحال، فعليه الخوف والحزن.

فهذا الحكم بين هذه الطوائف، من حيث هم، لا بالنسبة إلى الإيمان بمحمد، عليه الصلاة والسلام و هذا إخبار عنهم قبل بعثة النبي عليه الصلاة والسلام[١].

❋❋❋❋

(١) ينظر الإيمان لابن تيمية ص : ٤٨،وتفسير السعدي ص: ٥٤.

شروط القبول

يرتكز القبول على مقومات عقدية ،والبنية الرئيسة التي ينهض عليها القبول هي الإيمان بالله تعالى وعدم الإشراك به فهي تشكل الإطار الذي من داخله تنطلق شروط القبول بحيث يعتبر أي عمل خارج عن هذا الإطار ولو كان صالحاً في ذاته فهو خارج عن إطار القبول كما قرر ذلك من بيده الأمر سبحانه وتعالى.

ويتفاوت القبول وتتعدد أنواعه بناء على تحقيق تلك المقومات والشروط ،وبناء على درجة كمال العمل والإخلاص فيه.

والقبول له شرطان أساسيان :

أولاً: الإخلاص :

والإخلاص شرعاً:عرفه العزّ بن عبد السلام فقال :"الْإِخْلاَصُ أَنْ يَفْعَلَ الْمُكَلَّفُ الطَّاعَةَ خَالِصًا

لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا يُرِيدُ بِهَا تَعْظِيمًا مِنْ النَّاسِ وَلَا تَوْقِيرًا، وَلَا جَلْبَ نَفْعٍ دِينِيٍّ، وَلَا دَفْعَ ضَرَرٍ دُنْيَوِيٍّ))(١) .
وقيل: هو أن تجعل عبادتك لله وحده لا شريك له ، و لا ترجو إلاّ ثوابه، ولا تخاف إلاّ عقابه(٢).

واعلم أنه قد يدّعي العبد الإسلام ظاهراً وينكره باطناً ويشرك مع الله غيره فيخلو قلبه من حقيقة الاستسلام لله ،فلا يدخل الإخلاص قلب العبد إلا إذا خلا من أمرين هامّين:

أولاً: الشرك الأكبر: وهو ما كان في صميم التوحيد وهو محبط للعمل وعامله،قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾[النساء: ١١٦] فلا يُقبل العمل من مشرك كائناً ما كان ومن صور الشرك الأكبر والذي يقع فيه بعض من يدّعي الإسلام ،صرف شيء من العبادة لغير الله كالذبح والتوسل،قال جلّ ذكره :﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ﴾ [البقرة: ١٦٥].

ثانياً : النفاق الاعتقادي: وهو الجحود والكفر في الباطن ولذلك لم يتقبل الله تعالى عمل المنافقين إذ قال جل وعلا : ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾[سورة

---

(١) قواعد الأحكام في مصالح الأنام (١/ ١٤٦) .
(٢) ينظر تفسير ابن باديس(١/ ٥٢) .

التوبة ٥٤] فجعل نفاقهم وكفرهم في الباطن مانعاً لقبول النفقة وإن أظهروا الإسلام بل هو مانعٌ لقبول العامل وعمله لقوله تعالى:﴿بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ١٣٨ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ١٣٩ وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓ إِنَّكُمۡ إِذًا مِّثۡلُهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾[النساء:١٣٨-١٤٠](٣) وقال جلّ وعلا:﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا﴾[النساء:١٤٥].

والنفاق الاعتقادي غير الرياء الذي هو (الشرك الأصغر) ،فالنفاق فسادٌ في الدين أما الرياء ففسادٌ في العمل مع بقاء صاحبه على الدين . وكلاهما مرده النية ،لكن فساد الدين محبط لجميع العمل ومقوّض لأساسه ،أما في حال صدق الإسلام ووجود الإخلاص في القلب فإن العمل قد تشوبه الشوائب كما في الرياء والقبول هنا يتفاوت بتفاوت ما في القلوب ،والمقصود أن يبتغي العبد بعبادته كلها وجه الله لا شيء سواه ،فالإخلاص عمل قلبي مرده النية ،ولله تعالى الحكم في قبول

(٣) ينظر إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد للفوزان(١/ ٢٠٠).

العمل ورده قال ﷺ: (إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى)[١] ولا يُتقبل العمل إذا لم يكن خالصاً لله كما جاء في الحديث الذي رواه الرسول ﷺ عن ربه : (قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ) [٢].

فبصحة الاعتقاد و صحة النية في الأعمال يرجى قبول العمل ،وعليه يترتب الثواب أو العقاب. وفي ذلك قيل لبعض السلف : الحاجّ كثير ،فقال: الداجّ كثير والحاجّ قليل [٣]. والدّجّ هو الدبّ[٤]وهو المشي ،فالكلُّ يمشي قاصداً البيت الحرام فمنهم من هو مسرعٌ إلى الله للحج ومنهم من هو مسرعٌ لدنيا يصيبها .

فالرياء يشوب الإخلاص ويعكر صفوه قال ابن جزي : ((الرياء في العبادات وهو الشرك الأصغر وهو ضد الإخلاص ولهما مراتب متفاوتة في قبول العمل وإحباطه وفي استحقاق العقاب على الرياء فقد يكون العمل أولا خالصا ثم يحدث الرياء في أثنائه فيفسده إن تمادى،أو يحدث بعد

---

(١) جزء من حديث في صحيح البخاري(٣/٧/ح ٥٠٧٠) ،وذكر نحوه مسلم (٣/١٥١٦).
(٢) صحيح مسلم ،كتاب الزهد والرقائق ،باب من أشرك في عمله غير الله (٤ / ٢٢٨٩/ح٢٩٨٥) .
(٣) منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٦/٢١٨).
(٤) ينظر لسان العرب (٢/٢٦٤).

الفراغ منه فلا يضر ،وقد يكون أولا على الريـاء ثم يحدث الإخلاص في أثنائه أو بعد الفراغ منه، فينبغي استئنافه وقد يبدأه ممتزجاً فينظر أيهما أغلب فيناط به الحكم . قال بعضهم العمل لأجل الناس شرك وترك العمل لأجل الناس رياء وما يتعلق بالرياء تسميع الناس بالعمل والتزين للناس بإظهار الخير في القول أو في الفعل))[١].

والإخلاص يتغلغل في كل عمل ابن آدم فما يُنفق من نفقة ولا يزور من زورة أويعمل من عمل إلا وينبغي أن يتوجه به إلى الله أو يراعي به وجه ربه إن كان من المباح أن يقترف ما يعصيه،ولا يجاهد نفسه أو عدوه إلا ويبتغي بها وجهه الكريم،وهكذا المسلم في سائر عمله ،وفي هذا يتفاوت الناس أشدّ التفاوت .

❊❊❊❊

(١) القوانين الفقهية لابن جزي (١ /٢٨٥- ٢٨٦).

ثانياً : الاتباع وترك الابتداع :

ومن شروط القبول بعد الإخلاص ،الاتباع وهو موافقة الكتاب و السنة : فقد يكون العمل صادراً من عبد مسلم ومتوجهاً بكليته إلى الله مخلصاً فيه لوجهه تعالى ،لكن العمل في ذاته ليس صواباً ،مخالفاً لسنة المصطفى ﷺ فإنه بذلك قد لا يُتقبل من صاحبه ،ولا يُرفع إلى الله . قال تعالى:﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [آل عمران: ٣١].وقال:﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[الأعراف: ١٥٧] مما يدل على أن القبول موقوف على الاتباع. وفي الخبر : عن العرباض ابن سارية[١] رضي الله عنه قال : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقيل: يارسول الله! كأنها موعظة مودع فأوصنا ، قال : (عَلَيْكُمْ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ

---

(١) العرباض هو أبو نجيح السلمي رضي الله عنه ،صحابي جليل،كان من أهل الصفة، سكن الشام وتوفي بها سنة ٧٥ في خلافة عبد الملك بن مروان،ينظر الثقات لابن حبان (٣/ ٢٦٩)،والاستيعاب في معرفة الأصحاب (١٢٣٨/٣).

الرَّاشِـدِينَ الْمَهْدِيِّـينَ، عَضُّـوا عَلَيْهَـا بِالنَّوَاجِـذِ وَإِيَّاكُـمْ وَمُحْدَثَـاتِ الْأُمُـورِ؛ فَـإِنَّ كُلَّ بِدْعَـةٍ ضَلَالَـةٌ)[١]. وكان عليه الصلاة والسلام يصدّر خُطَبه بالتحذير من البدع كقوله : (وَشَرُّ الْأُمُـورِ مُحْدَثَاتُهَـا، وَكُلُّ مُحْدَثَـةٍ بِدْعَـةٌ وَكُلُّ بِدْعَـةٍ ضَلَالَـةٌ، وَكُلُّ ضَلَالَـةٍ فِي النَّـارِ) [٢] وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ: (مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ، فَهُوَ رَدٌّ)[٣] .

ويحسُن في هذا المقام تقسيم الضلالة إلى ثلاث فئات مع كون جميعها نابعة من الجهل واتباع الهوى:

أ- ضلالة منشؤها الفرق المنحرفة : كالجهمية وغلاة الصوفية والأباضية والرافضة وغيرهم ومما شاع بين كثير من البسطاء نقلاً عنهم ادعاء الإلهام والوحي المزعوم للأولياء،وما يصاحب إقامة المـوالد من ضلالات ومنها ما يسمونه بـ(الحضرة)[٤] والغلوّ في مدح الرسول ﷺوالتعبد لله بمصاحبة الألحان والأشعار والرقص والطبول ونحو ذلك.

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٤/ ٢٠٠/ ح ٤٦٠٧) ،وأخرج نحوه البيهقي في شعب الإيمان (١٠/ ٢٠/ ح ٧١٠٩)،وذكره ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١١٦٤/ح ٢٣٠٥) وصححه الألباني في صحيح أبي داود.
(٢) أخرجه النسائي في السنن (٣/ ١٨٨/ ح١٥٧٨)،وابن خزيمة في صحيحه (٣/ ١٤٣/ح١٧٨٥)،وصححه الألباني في صحيح النسائي.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٣ / ١٨٤/ ح٢٦٩٧).
(٤) وهي ادّعاء حضور الرسولﷺ فيقفون مهابة وخشوعاً وما إلى ذلك من أباطيل وضلالات .

ب-ضلالة منشؤها الجهل بالدين: كمن يصلي الظهر خمساً والمغرب أربعاً،أو تكون صلاته ناقصة مبتورة ،منقوصة الشروط والأركان. وقد قال رسول اللهﷺ: (إِنَّ الرَّجُـلَ لَيُصَـلِّي سِـتِّينَ سَـنَةً مَـا تُقْبَـلُ لَـهُ صَـلَاةٌ، لَعَلَّـهُ يُتِـمُّ الرُّكُـوعَ وَلَا يُتِـمُّ السُّـجُودَ، وَيُتِـمُّ السُّـجُودَ وَلَا يُتِـمُّ الرُّكُـوعَ)[1].

هذا بالإضافة إلى المعتقدات الشركيّة الخاطئة المنتشرة بين الناس من التمسح بالقبور لاعتقاد نفعها، أو الاعتقاد بأن بعض الأفعال تجلب الحظ ،أو ترزق الولد ،أو لُبس خرزات معيّنة للوقاية من العين، و ما شابه ذلك من جهالات .

وقد أفصح ابن القيم رحمه الله عن انتشار هذه العوائق من شركيات وبدع ومخالفات وعادات جاهلية باطلة في زمنه فكيف بها وقد تفاقمت وزاد أوارها في هذا العصر فقال : ((عمّ بهَا الْمُصَاب وهجر لأَجلهَا السّنة وَالْكتاب من استنصر بهَا فَهُوَ عِنْد الله مخذول وَمن اقْتدى بهَا دون كتاب الله وَسنة رَسُوله فَهُوَ عِنْد الله غير مَقْبُول))[2].

---

(١) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ١٩٩ /ح٧٥٣)،وابن أبي شيبة في مصنفه (١/ ٢٥٧ح٢٩٦٣) وحسنه الألباني في صحيح الترغيب ورقمه ٥٢٩.

(٢) الفوائد (١/ ١٥٤) .

ج – ضلالة منشؤها العلوم الحديثة الوافدة : التي دخلت بلاد المسلمين في ظل أحداث العصر الحديث ومشكلاته التي جثمت على القلوب فأسقمتها ،وأضعفت صمود كثير من الناس أمام معترك الحياة ،فأفرزت بطالة وقلقاً وأدواءً شتى وبات الناس يتلهفون لأي شاردة أو واردة تخرجهم مما هم فيه بعد بعدهم عن النهج الأقوم ،فوقع البعض كالفريسة تتصيدها العوافي،وتفتك بها الأوهام. وفي ظل تلك الظروف وما تموج به بلاد المسلمين من فتن وفرَق، ومع استشراء آفة الجهل بالدين ،ظهرت تلك العلوم محمّلة بطقوس غريبة من الشرق والغرب،لتكفكِف الدموع المحزونة ،والصيحات الملهوفة ،والهموم المتراكمة ،ومن ذلك الادعاء بقوة العقل الباطن,والقدرة على التغيير في القدَر والتحكّم في أمور المستقبل وغير ذلك مما سبق الإشارة إليه في المطلب الأول من سمات المقبولين [١] .

(١) ينظر أصول الإيمان بالغيب وآثاره للدكتورة فوز كردي ص:**٤٣٦**. وانظر سمات المقبولين من هذا البحث ص:**١٨٩**

موجبات القبول

من مأثور الدعاء قوله ﷺ: (وَأَسْــأَلُكَ مُوجِبَــاتِ رَحْمَتِــكَ وَعَزَائِــمَ مَغْفِرَتِــكَ)[١] فهو ابتهال إلى الله تعالى إلى ما يوجب قبول العبد في عباده المرحومين ،إلى ما يوجب الجنة،والمغفرة ،من أفعال وخصال وصفات تتسبب في ذلك كالتوبة وأداء الفرائض،وامتثال الأمر والنهي[٢]. وبناء على ما ظهر من هذه الدراسة فإن موجبات الرحمة،وموجبات المغفرة،وموجبات المحبة ،جميعها من موجبات القبول ،وعلى قدر ما يحقق العبد من تلك الموجبات يرتقي فيما يقابلها من درجات القبول بعد فضل الله وكرمه . وباستقراء أقوال العلماء والنظر في الموجبات والمنجيات تبرز أهمها فنسردها ثم نفصل في كل منها :

١- أداء الفرائض والحرص عليها.

٢- تحري الحلال.

---

(١) المعجم الكبير للطبراني(٧/ ٢٧٩/ح٧١٣٥)، صححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (٣٢٢٨).

(٢) ينظر التنوير شرح الجامع الصغير للصنعاني(٣/ ١٣٤)،ومرقاة المفاتيح في مشكاة المصابيح للهروي(٣/ ٩٩٢)،وتطريز رياض الصالحين (١/ ٨١٧)،وإحياء علوم الدين(٤/ ٢).ويدخل في الموجبات الأسباب العشرة الموجبة لمحبة الله التي ذكرها ابن القيم في مدارجه (٣/ ١٨-١٩).

٣- الخشوع والتذلل.

٤- دوام الذكر.

٥- التوبة و عدم الإصرار على المعاصي.

٦- حسن الظن بالله تعالى.

٧- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٨- الرضا والشكر.

أولا: أداء الفرائض والحرص على كمالها :

من نافلة القول أن إيجاب القبول على العمل إنما هو محض تفضل وتكرّم من الله تعالى ،فلا أحد من الخلق يوجب على الله شيئاً ولكن الله سبحانه هو الذي أوجب على نفسه ذلك كرماً منه تعالى (١) فحث على أمور وأمر بها ،وعلق عليها القبول و الفلاح وأول تلك الموجبات هي أداء الفرائض قال تعالى:﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[لقمان: ٤ – ٥]

---

(١) ينظر إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد للشيخ صالح للفوزان (١/٤٧).

والفرض شرعاً:((هو ما طلب الشرع فِعله طلباً جازماً، بحيث يترتب على فعله الثواب، كما يترتب على تركه العقاب))(١).

قيل في الفرق بين الفرض والواجب :أن الْفَرْضَ هُوَ مَا كَانَ فِي أَعْلَى مَرَاتِبِ اللُّزُومِ، وَالثُّبُوتِ ، فالفرض أثبت من الواجب(٢) .

ولا شك أن أداء الفرائض والواجبات والحرص عليهما من أهم موجبات القبول قال النبي ﷺ حكاية عن ربه جل وعلا في الحديث القدسي : (وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ) (٣). فأداء الفرائض طاعة لله وانقياد لأمره ،وهي أعظم أسباب القبول .

قال الصديق – رضي الله عنه – : ((واعلم أن لله حقاً بالليل لا يقبله بالنهار ، وحقاً بالنهار لا يقبله بالليل ، وأنه لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة))(٤) .

---

(١) الفقه المنهجي للدكتور مصطفى الخن (١/ ٢٢).
(٢) ينظر الفصول في الاصول (٣/ ٢٣٦).
(٣) ينظر مدارج السالكين ص : ٤٩٥ .
(٤) ينظر الفتاوى الكبرى (١ / ١٣٥).

والناس في أداء الفرائض يتفاوتون في أمرين مردّهما إلى درجة الصدق مع الله ومحبته فكلّما كان مع الله أصدق ومحبته مقدمة على كل ما سواها كان أكثر حرصاً أن تكون فريضته أتمّ وأكمل وهذان الأمران هما:

١- سرعة الامتثال :فمن الناس من يقوم ملبياً داعي الفريضة فيؤديها لأول وقتها أو فور سماعه للأمر بها ومنهم من يتأخر عن ذلك.

٢- حُسن الأداء : فمنهم من يجاهد نفسه الإتيان بها على وجهها الأمثل ،ومنهم من يفرط في ذلك فالناس في أدائها على درجات .

وبناء على درجات التفاوت في الامتثال والأداء تكون درجات الرضا والقبول ،ويتبع ذلك درجات المحبة والثواب ،ومن جمع بينهما فأسرع في أداء الفريضة لوقتها وأحسن الأداء فلاشك أنه بأفضل المراتب.

فعلى قدر استجابة العبد لأوامر الله ،تكون استجابة الله له وقبوله له ولطاعته.

والله تعالى يحب من العبد أن يكون ملتزماً ما أمره به ،مستجيباً معظماً لشعائره وشرائعه،طائعاً لمنهجه وحكمه،لأن تعظيم أوامر الله وشرعه إنما هي تعظيم لله تعالى. فبقدر تعظيم الأمر والنهي

وبقدر الاستجابة والطاعة يكون تعظيم الله في النفس. فمَن أجَلَّ الله تعالى وقدّره ،أنزل أحكامه منزلة التعظيم والتوقير .

وقد تكلم ابن القيم رحمه الله في منـزلة التعظيم مبيناً بأن أول التعظيم هو تعظيم الأمر والنـهي وهو أن لا يُعارَضا بترخّص جاف ،أو يُعرّضا لتشدد غالٍ فالأول تفريط والثاني إفراط [(١)]،فإذا أدى العبد الطاعة على وجهها فقد أحقّ الله تعالى على نفسه الإجابة والقبول تفضلا وكرماً.

وقد ذكر ابن القيم مثالاً على تباين الناس في أداء الصلاة ومن ثم تباينهم في قبولها فبين أنهم على مراتب خمسة وقد ذكرها في مدارجه وهي بإيجاز :

الأول : مرتبة الظالم لنفسه المفرط الذي انتقص من ومواقيتها وحدودها وأركانها.

الثاني: من حافظ عليها لكنه ضيع مجاهدة نفسه فذهب مع الوساوس والأفكار.

الثالث: من حافظ عليها وجاهد نفسه في دفع الوساوس والأفكار، فهو في صلاة وجهاد.

الرابع: من حافظ عليها واستغرق قلبه مراعاة حدودها وحقوقها ,وهمه مصروف إلى إقامتها واتمامها، واستغرق قلبه عبودية ربه تبارك وتعالى فيها.

---

(١) ينظر الوابل الصيب من الكلم الطيب ص: ٢٣.

الخامس: من أقام صلاته وحافظ عليها، وأخذ قلبه ووضعه بين يدي ربه ناظراً بقبله إليه،ممتلئاً من محبته وعظمته، كأنه يراه ويشاهده، وقد اضمحلت الوساوس وارتفعت الحجب فهو مشغول بربه قرير العين به.

فالأول معاقب، والثاني محاسب، والثالث مكفّر عنه، والرابع مثاب، والخامس مقرب من ربه. لأنه ممن جعلت قرة عينه في الصلاة، فمن قرت عينه بصلاته ،قرت عينه بقربه من ربه(١).

****

ثانياً :تحرّي الحلال :

طيّب الله المؤمن ظاهراً بالوضوء والغسل،وطهره باطناً بالطيّب الحلال ينمو منه لحمه وأعضاؤه ليكون أهلاً لعبادة الملك القدوس، فماله حلال، وطعامه حلال ، وشرابه حلال ، إذ كيف يقف بين يدي ربه دنس الطينة،خبيث العطن ،فالله تعالى طيبٌ لا يقبل إلا طيباً قال النبي ﷺ: (أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾[المؤمنون : ٥١] وَقَالَ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ﴾[البقرة

(١) ينظر مدارج السالكين (٢/ ٤٦٤)

[١٧٢: ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟[١] قال ابن دقيق العيد[٢] في شرح قوله: (أشعث أغبر) أي : "يطيل السفر في وجوه الطاعات: الحج والجهاد وغير ذلك من وجوه البر ومع هذا فلا يستجاب له لكون مطعمه ومشربه وملبسه حراماً فكيف بمن هو منهمك في الدنيا أو في مظالم العباد أو من الغافلين عن أنواع العبادات والخير"[٣] .

فينبغي للمؤمن طلب الحلال في سماحة ورفق، وترك الحرام في زهدٍ وأنفه ,إيماناً واحتساباً للحصول على القبول والثواب.

قال تعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٨٧ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢/٧٠٣/ح١٠١٥).

(٢) هو الإمام العلامة مُحَمَّد بن عَلِيّ بن وهب بن مُطِيع أبو الفتح ابْن دَقِيق الْعِيد الْقشيرِي المنفلوطي الْمصْرِيّ الْمَالِكِي،أحد كبار علماء زمانه ،له تصانيف مشهورة ولد بالحجاز ونشأ بمصر واشتغل بمذهب الإمام مالك ثم الشافعي رحمه الله اشتهر بالعلم والورع والزهد ،توفي سنة ثلاث وسبع مائة بالقاهرة . ينظر سير أعلام النبلاء (٣/٢٤٤) ،وطبقات الشافعية ص: ٩٥٢.

(٣) شرح الاربعين النووية لابن دقيق العيد ص:٥٩.

مُؤْمِنُــونَ ﴾[المائدة: ٨٧ – ٨٨]. فمن موجبات قبول العمل التي يحرص الشرع على بيانها للارتقاء بالإنسان ،وتطهيره مادياً ومعنوياً ،وإعداده ليكون طيب الروح طيب الجسد،تحرّي الرزق الحلال بأنواعه من مأكل ومشرب ومنكح ومسكن ..إلخ والبعد عن الحرام. ومن مقتضيات رحمة الله بعباده أن هيأ لهم أسباب القرب منه. وللكسب الطيب علاقة بالإخلاص ،ففيه خلوصٌ للجسد من خبَث الحرام ،ليكون الطُهر والنقاء قد عمّ دين العبد وقلبه وبدنه فلا يبقى فيه خبث ولا يشوبه دنس. ويكون عند ذلك نفساً طيبة ،تُشرع لها أبواب القبول بإذن الله . وفي الصحيح قال رسول الله ﷺ: (مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلاَ يَقْبَلُ اللهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، وَإِنَّ اللهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ، كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الجَبَلِ) [(١)].

والرزق الحلال يطهّر الجسد ويضفي على الروح إشراقة الطهر،ويهيئ صاحبه للقرب من الملك القدوس ، ويمنحه الفرصة بالفوز بمحبته فإن الله تعالى هو القدوس والطاهر في ذاته وصفاته،لا يقبل إلا الطيب النقي ..فمن تحرى الطيّب من الرزق طابت ذاته ,وطابت بعد ذلك دنياه وآخرته. و تفسير قوله تعالى :﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾[المائدة :٤] هو الحلال الذي أباحه

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ٥١١/ح ١٣٤٤) ،وروى نحوه مسلم ،كتاب الزكاة ،باب قبول الصدقة من الكسب الطيب (٢/ ٧٠٢١٠١٤/).

الله وهو الذي تحصل من تناوله على طِيبة القلب فإنَّ أَكْلَ الحرام يُوجِبُ قسوته ووحشته، وضياءُ القلوب متصلٌ بصَوْن النفس عن تناول الحرام والشبهات[١]. والحرام تربة خبيثة فكيف لوعاء دنّسه الحرام أن يحمل النور والإيمان وهدي خير الأنام.. إنه غير مؤهل لذلك. فإذا نبت منه الجسد خبُث معدنه وأظلم قلبه، واستمرأت ذاته فعل الحرام وهانت عليها صغائر الذنوب وكبارها وقسى قلبه وكانت النار أولى به كما في الخبر النبويّ: (إنه لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ لَحْمٌ نَبَتَ من سُحْتٍ النَّارُ أَوْلَى بِهِ)[٢].

وكما في أنواع العبادات كلها أو أكثرها فإن تحرّيّ الحلال والورع فيه درجات يتفاوت الناس فيها أشدّ التفاوت بحسب تعظيمهم للآمر سبحانه وبحسب جذْبة الشهوة وإغرائها من حولهم ،وإنما يكون انجذابهم لتلك الشهوات بقدر ما في قلوبهم من علم بالله تعالى وتعظيم له،ويقينٍ بما عنده. فانظر إلى حرص أبي بكر الصديق رضي الله عنه أن لا يدخلَ جوفه ذرّة من حرامٍ تورّعاً، فلما أكل من طعام

(١)- ينظر تفسير الثعالبي (الجواهر الحسان في تفسير القرآن) (١/ ٣٥٤),وتفسير القشيري (لطائف الإشارات (١/ ٤٠٣)،والتفسير الوسيط للقرآن الكريم (٢/ ١٠١٦).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٢٢/ ٣٣٢ح ١٤٤٤١)،وقال شعيب الأرناؤوط في مسند أحمد : (إسناده قوي على شرط مسلم).

قيل له أنه من مال الكهانة أدخل إصبعه في حلقهِ فاستقاءه حرصاً على طهارة بدنه وتنقيته من الخبَث[١].

وشرب عمر بن الخطاب رضي الله عنه لبناً أعجبه فَسَأَلَ الَّذِي سَقَاهُ: (مِنْ أَيْنَ هَذَا اللَّبَنُ؟) فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ وَرَدَ عَلَى مَاءٍ، قَدْ سَمَّاهُ، فَإِذَا نَعَمٌ مِنْ نَعَمِ الصَّدَقَةِ وَهُمْ يَسْقُونَ، فَحَلَبُوا له مِنْ أَلْبَانِهَا، فَجَعَلَهُ فِي سِقَائِهِ فهو هَذَا اللبن ، فَأَدْخَلَ عُمَرُ يده ،فَاسْتَقَاءَهُ[٢].

وقد أعلن الله تعالى الحرب على آكل الربا ،وأغلظ التهديد والعقوبة مما يبين بُعده عن موجبات السلامة الأخروية والدنيوية قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٢٧٨ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧٨ – ٢٧٩] وقال:﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ﴾[البقرة: ٢٧٥] كما شنع على الذين يأكلون أموال اليتامى وبالغ في الوعيد بقوله عز وجلّ :﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ [النساء: ١٠].

---

(١) والأثر هو : (كَانَ لأَبِي بَكْرٍ غُلاَمٌ يُخْرِجُ لَهُ الخَرَاجَ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يَأْكُلُ مِنْ خَرَاجِهِ، فَجَاءَ يَوْمًا بِشَيْءٍ فَأَكَلَ مِنْهُ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ لَهُ الغُلاَمُ: أَتَدْرِي مَا هَذَا؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: كُنْتُ تَكَهَّنْتُ لِإِنْسَانٍ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَمَا أُحْسِنُ الكِهَانَةَ، إِلَّا أَنِّي خَدَعْتُهُ، فَلَقِيَنِي فَأَعْطَانِي بِذَلِكَ، فَهَذَا الَّذِي أَكَلْتَ مِنْهُ، فَأَدْخَلَ أَبُو بَكْرٍ يَدَهُ، فَقَاءَ كُلَّ شَيْءٍ فِي بَطْنِهِ) أخرجه البخاري في صحيحه(٥/٤٣/ح٣٨٤٢).

(٢) أخرجه الإمام مالك في الموطأ (١/٢٦٩/ح٣١)وشرح السنة للبغوي (٦/ ٩١).

فتحرّي الحلال يقتضي اتقاء الشبهات والبعد عن الحرام . ويبعد المؤمنين من أسباب سخط الله ويقربهم من رضاه (١) وما أكثر من استهان اليوم بالحرام فولجه من أوسع أبـوابه من أكل للربا ،وأكل مال اليتيم ،وأكل أموال الناس بالباطل بالغــش والاحتيال والنهب والقائمة تطول والله المستعان .

****

ثالثا : الخشوع والتذلل :

امتدح الله تعالى أهل الخشوع في كتابه العظيم فقال :﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[الأنبياء: ٩٠].

وقـال تعالى:﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾[المؤمنون:١– ٢].

والخشوع كما عرفه ابن القيم هو:((قِيَامُ الْقَلْبِ بَيْنَ يَدَيِ الرَّبِّ بِالْخُضُوعِ وَالذُّلِّ، وَالْجَمْعِيَّةِ عَلَيْهِ)) (٢).

وقال صاحب التفسير المنير:((هو السكون والطمأنينة، والتؤدة والوقار، والتواضع لله تعالى قلباً وسلوكاً، خوفاً من عقاب الله تعالى، ومراقبته))(٣) .

(١) ينظر تفسير الطبري (٥/ ٥٢)،وتفسير ابن كثير (١/ ٧١٦)،وتفسير الخازن (١/ ٢١٢).
(٢) مدارج السالكين (١/ ٥١٦).
(٣) التفسير المنير للزحيلي (٢٢/ ١٩).

والخشوع لله يتضمن أمرين :

أحدهما: التواضع والذل .

والثاني : السكون والطمأنينة [(١)].

وأصل الخشوع الحاصل في القلب، إِنَّمَا هو من معرفة الله، واستشعار عظمته وجلاله وكماله، واستحضار معيته ومراقبته فمن كان بالله أعرف كان له أذلّ وأخشع [(٢)].

والخشوع مستلزم للين القلب مناف لقسوته متضمّن لعبودية الله ،ومن هنا كان الخشوع من موجبات القبول ومن أسباب الارتقاء في مراقيه ودرجاته ،فهو عبادة مختصة بجلال الله وتعظيمه ومهابته وهو ما يستجلب محبته والقرب منه ،ونمو الخشوع وزيادته إنما يكون بمداومة المراقبة على النفس،وطول النظر في آفاتها وعيوبها ونقائصها من الكبر،والعجب ،والرياء،وضعف الصدق،وقلة اليقين،وتشتّت النية ،وعدم إيقاع العمل على الوجه الذي يرضاه العبد لربه وغير ذلك من عيوب النفس[(٣)].

---

(١) الإيمان لابن تيمية ص: ٢٦.

(٢) ينظر مجموع رسائل ابن رجب (١/ ٢٩٣).

(٣) ينظر الإيمان لابن تيمية ص :٢٦،والتوضيح عن توحيد الخلاق في جواب أهل العراق للشيخ محمد بن عبد الوهاب ص: ٤٦.

وإذا خشع القلب تبعته سائر الجوارح بالذلة والسكينة . فالخشوع بذوره في القلب وثماره على الجوارح ،وكلما كان العبد أشدّ استحضاراً لمقام ربه كان قلبه أشد خشوعاً وخشيةً،وكان له ربه أكثر قبولاً ،ولمآله أرفع منزلةً.

وتتفاوت القلوب في الخشوع بحسب معرفتها لمن خشعت له ، ويقينها بأسمائه وصفاته،فمن خاشع لاستشعاره بأن الله هو القريب المجيب ،ومن خاشع محبةً بأنه تعالى الودود اللطيف الوهاب الرزاق ،ومن خاشع لاستحضار المشاهدة والمراقبة بأنه سبحانه الحفيظ الرقيب ، ومن خاشع استحياء بأنه السميع البصير ،ومن خاشع لاستشعار صفات العزة والكبرياء والجبروت، ومن خاشع شوقاً لكماله وجماله بأنه جميلٌ قدّوس ، من خاشع خوفاً بأنه العزيز المنتقم ، ومن خاشع رجاءً بأنه العفو الكريم ، والله تعالى قريب من الخاشعة قلوبهم قريب ممن يناجيه ،وممن يستغفرونه بالأسحار،ومن زوّار بيوته المتضرعين إليه ، ينظر إليهم ،ويباهي بهم الملائكة.

فإذا نظر الله لقلب عبده المؤمن ورآه خاشعاً ساكناً متذللاً منكسراً له تقبّله وأحبّه فالله تعالى عند المنكسرة قلوبهم[1].

****

(١) ينظر روائع التفسير لابن رجب (٢/ ١١) ومدارج السالكين (١/ ١٩٥) .

رابعاً: دوام الذكر:

قــال تعالى في امتداح أهل الذكر وبيان ماهم من عظيم الثواب :﴿وَٱلذَّٰكِرِيــنَ ٱللَّهَ كَثِــيرًا وَٱلذَّٰكِـرَٰتِ أَعَــدَّ ٱللَّهُ لَهُــم مَّغۡفِــرَةً وَأَجۡــرًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب: ٣٥].

وقال تعالى:﴿فَٱذۡكُــرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُــمۡ﴾ [البقرة: ١٥٢] وكفى بهذه الآية الكريمة من عظيم الدلالة على محبة الله وفتح أبواب القبول لعبده الذاكر ،وهل هناك أعظم من أن يذكر الله العبد،في نفسه،أويذكره في ملأ الملائكة الكرام، والذكر من الله للعبد دلالة على رضاه وقبوله ومن رضي الله عنه رحمه وأثابه وأثنى عليه في الملأ الأعلى(١).فاذكر الله في كل حال في سفرك وحضرك في فرحك وترحك ،في طاعتك وتفريطك،اجعل الله أقرب منك من نفسك يذكرك ومن فاز بذكره كان معه.

فذكر الله جلّ وعلا ،من أعظم موجبات القبول ،ومن أهم العبادات التي يحبها الله تعالى،لأن فيه ثناء عليه ،واعتراف بألوهيته وربوبيته ،وتمجيد له بما هو أهله.

هذا ولا شك أن التنزيه والتحميد و التسبيح قُبيل تقديم العمل الصالح بين يدي أكرم الأكرمين

---

(١) ينظر تفسير الخازن (١/ ٩٢)،والتفسير الوسيط للقرآن الكريم (١/ ٢٢٩).

مسبوقاً بالثناء والذكر فيه كمال الاعتراف بجلال الله وكمال الخضوع له سبحانه فذلك أحرى أن يُستجاب لذلك العبد وتُقبل مسألته،ويُتقبّل منه عمله[١].

و أهل الذكر هم أهل السبق إلى أعالي الجنان قال النبي ﷺ: (سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ قَالُوا: وَمَا الْمُفَرِّدُونَ؟ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا، وَالذَّاكِرَات)[٢] . ومعنى المفردون: هُوَ من تَفْرِيدُ النَّفْسِ بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى فِي أَكْثَرِ الْأَوْقَاتِ وألا يُنسى الله تعالى على كل حال[٣].

ومعنى السبق في قوله (سبق) أي سبقوا إلى مرضاة المولى، وإلى الدرجات العُلى[٤].

قال ابن القيم : ((فِي كُلِّ جَارِحَةٍ مِنَ الْجَوَارِحِ عُبُودِيَّةٌ مُؤَقَّتَةٌ، وَالذِّكْرُ عُبُودِيَّةُ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَهِيَ غَيْرُ مُؤَقَّتَةٍ، بَلْ هُمْ مَأْمُورُونَ بِذِكْرِ مَعْبُودِهِمْ وَمَحْبُوبِهِمْ فِي كُلِّ حَالٍ))[٥].

ومما يدل على عظمة الذكر ورفعة شأنه عند الله أنه يقترن بالأعمال الصالحة فالصلاة مقرونة بالذكر من تسبيح وتحميد وثناء على الله وتلاوة للقرآن الكريم وكذا الحج والعمرة و كثير من العبادات

---

(١) ينظر شرح المشكاة للطيبي (٥/١٧١٣) ،وفتح الباري لابن حجر (١١/١٤١).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٦/٢٠٦٢/ح٢٦٧٦).

(٣) ينظر مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/ ١٥٤٠-١٥٤١) .

(٤) ينظر دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين (٧/ ٢٣٤).

(٥) مدارج السالكين (٢/٣٩٦).

والأعمال من طعام وشراب ومنام ولا تخلو حياة العبد المؤمن من ذكر الله في جميع أحواله فالذكر روح العمل ، فإذا خلا العمل من الذكر كان كالجسد الذي لا روح فيه (١) .

والذكر على إطلاقه يكون باللسان والقلب والجوارح ويدخل فيه تلاوة القرآن الكريم والصلاة على النبيﷺلأنها تتضمن ذكر الله وذكر رسوله واعترافاً بحقه عليه الصلاة والسلام،كما تدخل فيه الصلاة قال تعالى:﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾[النور: ٣٦]أي يُصلي له فيها بالغداة والعشي (٢) .

****

خامساً :التوبة و عدم الإصرار على المعاصي :

ومن موجبات القبول التوبة من الذنب والتوبة هي: الندم والاستغفار فقد قال الرسولﷺ: لعائشة رضي الله عنه :(إن كنتِ ألمْمتِ بذنبٍ فاستغفِري اللهَ وتوبي إليهِ ، فإن التوبةَ من

(١) ينظر المصدر السابق.

(٢) ينظر تفسير الخازن (٣/٢٩٨)،وتفسير عبد الرزاق (٢/٤٤٢) ،و تفسير السعدي ص:١٠٦ ،ومرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٢/٧٤٦/ح٩٢٩).

الذنـبِ : النـدمُ والاسـتغفارُ)[١].

وهي: ((الاستغفار بعد الاعتراف بالذنب وتركه والندم على فعله))[٢].

وقيل هي: ((الإقلاع عن الذنب، والشعور بالندم، والعزم المؤكد على ألا يعود إليه من بعد))[٣].

وحقيقة التوبة أنها تكون من الله للعبد ابتداءً وذلك بالتوفيق لها ،ثم تكون من العبد لله حيث يرجع العبد إلى الله بالتوبة ،ويرجع الله تعالى بقبوله ،ورفع المؤاخذة على الذنب ،ورضاه عنه. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾[غافر: ٣] وقال في شأن الثلاثة الذين خلفوا :﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[التوبة: ١١٨] . قال أهل التفسير[٤]: أكرمهم الله فوفقهم للتوبة ،و تدارك قلوبهم قبل أن يصيبها الضعف والزيغ ،فأمطر عليهم سحائب جوده،ولم يقنطهم من كرمه ،فهداهم لتقويم ما اعوج ،وأرشدهم للسير على النهج ، فإنه إن لم

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤٢/ ٣١٤/ح ٢٦٢٧٩)،والبيهقي في شعب الإيمان (٩/ ٢٥٢/ح٦٦٢٧)،وقال الألباني في السلسلة الصحيحة: (صحيح) (٥٦١/ ح١٢٠٨).

(٢) أيسر التفاسير (١/ ٤٦).

(٣) زهرة التفاسير (١/ ٤٨٠).

(٤) ينظر تفسير زاد المسير لابن الجوزي (٢/ ٣٠٨)،وتفسير السمعاني (٢/ ٣٥٨)،وتفسير الوجيز للواحدي (١/ ٤٨٥)،وتفسير القاسمي (محاسن التأويل) (٥/ ٥٢٠).

يوفقهم الله سبحانه إلى هذا الموقف، ويربط على قلوبهم فيه، لم يكن منهم هذا الصبر على البلاء، ولا احتمال هذا المكروه الذي وقعوا فيه. وقوله:﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُـوَ ٱلتَّـوَّابُ ٱلرَّحِيـمُ﴾ أي: الكثير القبول للتوبة ،المتجاوز عن الذنب ، الرَّحِيمُ بهم بعد التوبة(١).

وهنا يشعّ من بين حروف الآية الكريمة معنىً واضحٌ لا لبس فيه وهو أن توبة الله على العبد سابقةٌ ﴿ثُـمَّ تَـابَ عَلَيۡهِـمۡ ﴾ولاحقة ﴿لِيَتُوبُـوٓاْ ﴾ بتوفيق منه ،فالله جل وعلا ينظر إلى قلب العبد فإن رأى إرادة الندم ،وصدق النية ،وقلق النفس وتأنيب الضمير ،واستعظام ما أقدم عليه في حق خالقه، وفّقه للتوبة وهداه إليها ،فإن تاب وأصلح تقبّله وتقبّل منه .

فمن موجبات القبول التوبة عن المعصية ،لأنها تصحّح للمؤمن إيمانه ،وتقيل عثرته ،فإن المعاصي قد تقف سداً منيعاً عن قبول العمل ،إذ كيف يجرؤ عبد أن يعصي سيده ويستجلب نقمته عليه، ثم يسأله ويطلب منه . وبالرغم من أن ابن آدم خطاء ومن طبيعته الزلل ,وتجرّه أهواؤه للوقوع في دائرة الخطل، وَقد قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (وَالَّـذِي نَفْسِي بِيَـدِهِ لَـوْ لَمْ تُذْنِبُـوا لَذَهَـبَ اللهُ بِكُـمْ، وَلَجَـاءَ بِقَـوْمٍ يُذْنِبُـونَ، فَيَسْـتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِـرُ لَهُـمْ)(٢) والاستغفار جابر

(١) ينظر تفسير السمر قندي (٢/ ٩٦)،وتفسير ابن عثيمين (١/ ١٣٦)،والتفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب (٦/ ٩١٢) ،و فتح القدير للشوكاني (٢/ ٤١٧).
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢١٠٦/ح٢٧٤٩) .

للطاعة،متمّم لجوانب النقص فيها ،مطهر للعمل من شوائب الشرك والرياء،ومع أن الله تعالى من صفاته أنه يغفر الذنب ويقبل التوب ،ويستجيب لعبده على معاصيه إلا أن الإصرار على الذنب ،ومبارزة الله تعالى بالمعاصي والاستمرار عليها وعدم التوبة يعدّ عناداً واستكباراً وهو الذي يحجب العبد عن ربه [١]. و الله تعالى يبغض المعاصي وبعضها عند الله تعالى أبغض من بعض فقد يعمل العبد المعصية فيلقى من سخط الله بسببها مالو عمل واستكثر من غيرها فإن الله تعالى قد خبّأ سخطه في معاصيه فلا يدري عبدٌ أي معصية استجلبت نقمة الله عليه ،فيغلق باب القبول دون العبد بسببها ،وكما قال جعفر الصادق رضي الله عنه[٢]: ((إن الله تعالى خبأ ثلاثاً في ثلاث رضاه في طاعته فلا تحقروا منها شيئاً فلعل رضاه فيه وغضبه في معاصيه فلا تحقروا منها شيئاً فلعل غضبه فيه وخبأ ولايته في عباده فلا تحقروا منهم أحداً فلعله ولي الله تعالى وزاد وخبأ إجابته في دعائه فلا تتركوا الدعاء فربما كانت الإجابة فيه))[٣] .

---

(١) ينظر جامع الرسائل لابن تيمية (٢/٤٣٣)،والجواب الكافي لابن القيم ص١٤١ .

(٢) هو جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين، أبو عبد الله المعروف بالصادق ،أمه أم فروة بنت القاسم بْن مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بكر الصديق، وأمها أسماء بنت عَبْد الرَّحْمَنِ بْن أَبِي بكر الصديق، إمام من أئمة أهل السنة ،ومن ساداتِ أهل البيت علماً وفقهاً وفضلاً روى عنه الثوري ومالك وشعبة ،مات سنة ١٤٨هـ . ينظر الثقات لابن حبان (٦/١٣١) ،وتهذيب الكمال للمزي (٥/٧٤).

(٣) الزهد الكبير ص: ٢٩٠ ،وإحياء علوم الدين (٤/ ٤٩).

في ضوء ما تقدم يُلاحظ أن العبد قد يُحرم القبول من جهتين :

١ – من معصية جلبت سخط الله : كالذي قال كلمة من سخط الله أو تألّى عليه[١] فيُحرم بذلك القبول.

٢ – للإصرار وعدم التوبة: وقد ذكر النبي ﷺ أن من أسباب منع قبول الدعاء اقتراف الحرام فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :(أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١] وَقَالَ:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾[البقرة: ١٧٢] ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟)[٢] فهذا مُصرّ على الحرام،والتعامل به،مع أنه يطيل السفر في وجوه الطاعات كالحج والعمرة وصلة الأرحام ،مما أدى إلى منع قبول دعائه وعدم الاستجابة له[٣].

---

(١) ينظر الحديث في مطلب مؤخرات القبول ،التألي على الله ص١٣٠ .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢/ ٧٠٣ /ح١٠١٥).

(٣) ينظر شرح الأربعين النووية لابن دقيق العيد (٦٠/ح ١٠) ،والمنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (٧/ ١٠٠/ح١٠١٥).

فالتوبة وعدم الإصرار على الذنب ،وعدم استصغاره واحتقاره من موجبات القبول ومعزازاته ولذلك بين الله تعالى أن ليس كل توبة يقبلها فقال:﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[النساء: ١٧-١٨] فقبول التوبة على الله وتوفيقه لها وتجاوزه عن صاحبها إنما يكون لمن أذنب من المؤمنين وهو جاهل غير متعمّد ولا مصرّ مصحوبة بالندم والاستغفار وترك العود إلى مثله قبل نزول الموت بهم ،وقيل الجهالة تحتمل أمرين :

- أن يعملوا العمل وهم يجهلون المكروه فيه.
- أن يُقدموا عليه على بصيرة وعلم بأن عاقبته مكروهة، ولكن سوّلت لهم أنفسهم وآثروا العاجل على الآجل، فسموا جهالاً لإيثارهم القليل الزائل على الكثير الدائم.

ولكن ليس قبول التوبة للذي أصرّ على فعله،وتمادى في غيّه حتى غرغرت منه الروح ،وإذا بملك الموت على رأسه يلوح ،ولا لمن استكبر وكفر ،وعاين الموت على جحود وغرر.

فالله تعالى يحب التوابين ويتقبل منهم بل ويفرح سبحانه بتوبتهم[1] وقد يرفعهم بتلك التوبة عنده إلى أفضل ماكانوا عليه ،فكلما صاحب التوبة العزم والصدق والإصرار ،ورافقها الذلّ والاعتراف والانكسار ،وتبعها بعمل صالح لمحو الأوزار ارتقى صاحبها في درجات القبول ،وقد يرقى بتلك التوبة إلى مالا يرقى إليه غيره من أهل الصلاح ،وقد ذكر ابن تيمية أنّ من التائبين من يعود إلى أرفع من درجته، ومنهم من يعود إلى مثل درجته، ومنهم من لا يصل إلى درجته. وعلّق ابن القيم أن هذا بحسب قوة التوبة وكمالها، وما أحدثته المعصيةُ للعبد من الذلّ والخضوع والإنابة[2].

سادساً :حسن الظن بالله تعالى :

حسن الظن بالله تعالى يكون بتغليب الرجاء والطمع في القبول ،وترجيح جانب حسن الظَّنِّ بِالله تعالى لكن لا يخلو ذلك من مخافة الله فما أحسن الظانّ بالله عمله إلا خوف عدم القَبول[3]. أما كثرة التوجس وظنٌّ عدم قبول العمل يوجب الفتور وَالْكَسل بل يقود للقنوط واليأس ، واعتقاد قبوله يُشعل في النفس النشاط ويوقد فتيل الحماس،ويحرك الهمّة للمزيد. والله تعالى وعد بالأجر والثواب فِي مُقَابل الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ في القرآن الكريم

(١) ينظر الحديث في مطلب قبول خاص لأفراد وفئات ،فئة التوابين والمتطهرين ص **٢٤٢**.
(٢) ينظر الجواب الكافي ص:**٢٠٩**.
(٣) ينظر الجواب الكافي ص:**٨٦-٨٧**.

في أكثر من خمسين موضعاً وطمأن المؤمن بحفظ عمله وعدم ضياعه،وبالمغفرة لذنبه ومن ذلك قوله تعالى:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠]وقوله عزّ مِن قائل:﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٩] و في الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ (أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي)[١] وَ قال ﷺ : (لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَيُحْسِنُ الظَّنَّ بِاَللَّهِ)[٢] فالظنّ الحسن ورجاء الْقَبُولِ ،هو في ذاته مُوجِبٌ لِلْقَبُولِ إذا ما اقترن بالعمل الصالح [٣].

ولا ريب أن حسن الظن بالله لا يتحقق إلا مع الإحسان في العمل ، فمن أحسن العمل أحسن الظن بربه فيجازيه الله على إحسانه بأحسن منه وأكرم وأشرف ،ويُنجز له وعده، ويتقّبل منه توبته، وأما المسيء المصرّ على الكبائر والظلم والمخالفات فإن وحشة المعاصي ودركات الظلم ومهاوي الحرام تمنعه من حسن الظن بربه . فأنى لمن سلك طريق القبائح ونأى عن المحاسن ،أن يحسن الظنّ!. لا جرم أنه لا يتجرّأ على مثل ذلك إلا المغترّ .

فنرى النص القرآني يرسم صورة المؤمن حَسَن الظنّ بربه يوم القيامة عند تطاير الصحف آخذاً

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٩/ ٢١ /ح٧٤٠٥).
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٥/٢٢٠٥ /ح ٢٨٧٧).
(٣) ينظر بريقة محمودية في شرح طريقة محمدية وشريعة نبوية في سيرة أحمدية للخادمي (٢/ ١٨٢).

كتابه بيمينه ،لقد كان على يقينٍ بأنه سـيُلاقي ذلك الجزاءَ فإنَّ الله لا يُضيعُ أجرَ من أحسنَ عملاً فتراه رافعاً رأسَه بابتهاجٍ في أسعدِ موقـفٍ مرَّ عليه منذ يوم خُلـقَ قائلاً كما حكى عنه ربه عـز وجل: ﴿هَـآؤُمُ ٱقۡـرَءُواْ كِتَـٰبِيَهۡ ۝١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَـابِيَهۡ﴾[الحاقة: ١٩ – ٢٠] قال الحسن البصري:(إن المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل، وإن الفاجر أساء الظن بربه فأساء العمل)(١).

فحسن الظن بالله هو حسن العمل نفسه ، فإن العبد إنما يحمله على حسن العمل حسن ظنه بربه أن يجازيه على أعماله ويتقبلها منه ويثيبه عليها ، فكلما أحسن ظنه بربه أحسن عمله تبعاً لذلك ،قال تعالى:﴿وَٱسۡـتَعِينُواْ بِٱلصَّـبۡرِ وَٱلصَّلَـوٰةِۚ وَإِنَّهَـا لَكَبِـيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَـٰشِـعِينَ ۝٤٥ ٱلَّذِيـنَ يَظُنُّـونَ أَنَّهُـم مُّلَٰقُـواْ رَبِّهِـمۡ وَأَنَّهُـمۡ إِلَيۡـهِ رَٰجِعُونَ﴾[البقرة: ٤٥ – ٤٦]. فالذين استيقنوا من لقاء ربهم وعلموا أنهم ملاقوه للحساب أحسنوا العمل وهو في حدّ ذاته إحسان ظن نابع من قلوبهم دافعٌ إلى حسن العمل. وهنا يمكن أن نستنبط من لفظ﴿يَظُنُّون﴾ومعناه يستيقنون(٢) إشارة خفيه إلى حسن الظن ،لأن اليقين بلقاء الله مسـتلزم لحسن الظـن به(٣)،وهو ما يدعو

(١) صفة النفاق وذم المنافقين للفرياني ص: ١٢٩ ،و الجواب الكافي ص: ٢٥.
(٢) ينظر تفسير ابن ابي حاتم (٢/٤٧٦)،وتفسير السمر قندي (١/ ٤٩).
(٣) فحسن الظن بالله إيمان به ويقين بلقائه ،وسوء الظن بالله كفر قال تعالى﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾[الفتح: ٦].ينظر إعانة المستفيد المستفيد بشرح كتاب التوحيد لفضيلة الشيخ صالح الفوزان (٢/ ٢٤٠).

الخاشع إلى الاستعانة بالصبر والصلاة .ويؤكد على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩] إنّ المؤمنين بربهم الذين نصبوا بين أعينهم لقاء الله وأنهم ملاقوا وعد الله بالمعونة و النصر والتأييد على سبيل حُسن الظن ّ كان لهم ذلك[١]. فإن الله تعالى قال في محكم كتابه :﴿ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾[الكهف: ١١٠]. فكل من رجا الله واستيقن لقاءه فإن الله يحقق له رَجَاءَهُ من الثواب والكرامة إِذَا مَات عَلَى الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ[٢]. وكما أن حُسن الظنّ يقود إلى حسن العمل ،فسوء الظن قائدٌ ولا شك إلى الإصرار والغروروالانهماك في المعاصي. قال قتادة: "من استطاع منكم أن يموت وهو حَسن الظنّ بربّه فليفعل، فإنّ الظنّ اثنان: ظنّ يُنجي ، وظنّ يُردي"[٣].كما قال تعالى:﴿وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٣]. قال ابن القيم : "حسن الظن هو الرجاء فمن كان رجاؤه هادياً له إلى الطاعة فهو

(١) ينظر تفسير الكشاف للزمخشري (١/ ٢٩٦)، ومفاتيح الغيب للرازي (٦/ ٣٩٥)،وتفسير ابن كثير (١/ ٥٠٨).
(٢) ينظر مفاتيح الغيب (٦/ ٣٩٥)، .
(٣) تفسير الثعلبي (٨/ ٣٩٣).

رجاء صحيح،ومن كانت بطالته ورجاؤه تفريطا فهو المغرور. وحسن الظن مع اتباع الهوى عجـز، كما قال الـنبي ﷺ: (الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَـوَاهَا وَتَمَنَّـى عَلَى اللَّهِ)[1] »[2].

❋❋❋❋

سابعاً :الدعوة إلى الله و الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

- والدعوة بتعريف شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله –:«هي الدعوة إلى الإيمان به، وبما جاءت به رسله، بتصديقهم فيما أخبروا به وطاعتهم فيما أمروا»[3] .

ومن يتتبع ما ورد في القرآن عن موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يجد أن القرآن الكـريم –كعهده في الحث على كل خير – رغّب فيه في أكثر من آية ، وما ذلك إلا أنه من موجبات القبول وأساساته ، ومن سبل الفـوز برضـاه سبحانه ،كيف لا وهو القائل جل في علاه : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥) (٤/٢١٩/ح٢٤٥٩) ،وقال حديث حسن ،وأخرجه أحمد في المسند (٢٨/٣٥٠/ح١٧١٢٣)،وابن ماجه في السنن أبواب الزهد(٢/١٤٢٣/ح٤٢٦٠)وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي (ح ٤٢٦٠)

(٢)الجواب الكافي : ص ٢٥.

(٣) مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٥/ ١٥٧).

قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾[فصلت:٣٣].

وإذا كانت الدعوة إلى الله هي سبيل إقامة الدين ،فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو سبيل الحفاظ عليه بين من دخلوا فيه فهما بنفس المنزلة من الله تعالى فكل من أمر بالمعروف أو نهى عن المنكر فقد دعا إلى الله بشكل من الأشكال ،وهي جميعاً أحسن الأقوال على الإطلاق ،وأحسن عمل مجتمعي ينشر في الناس، وأصحابها بأحسن منزلة عند الله وأرفعها ،وقد ورد الحث عليها بهذا اللفظ في ثمان آيات منها قوله تعالى:﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾[التوبة: ٧١]فبين الله تعالى أن من الخواص التي يتميّز بها عباده المؤمنين،التعاون على البرّ والتقوى والتواصي بالحق والصبر وعلق الفلاح على ذلك فقال:﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾[آل عمران: ١٠٤].

كما ورد في القرآن الحث عليه بمعان أخرى متقاربة ومنها ما جاء في سورة العصر:﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ فجعله من التواصي بالحق والصبر قال المفسرون: وَأَوْصَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالصَّبْرِ عَلَى الْعَمَلِ بِطَاعَةِ اللَّهِ،وعلى

أَدَاءِ الْفَرَائِضِ وَإِقَامَةِ أَمْرِ اللَّهِ[1].

وما بلغت الأمة هذه المرتبة السامية من الخيرية إلا للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[آل عمران: ١١٠].

وفي المقابل فقد ذم الله تعالى بني إسرائيل ولعنهم، وسخط عليهم لتركهم هذه الشعيرة العظيمة فقال: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[المائدة: ٧٩].

والدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمرٌ يستلزم الصبر والمصابرة ولهذا اختص الله الصابرين بالمحبة وعظيم الثواب، وفي الحقيقة فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد يقود الفرد إلى ما يكره ممن يأمرهم وينهاهم فيتسببون في ظلمه والتطاول عليه، وهذا يندرج تحت الصبر الاختياري[2] وهو النوع الأعلى والدرجة الأسمى التي هي من سمات أولي العزم من الرسل.

---

(١) ينظر تفسير الطبري (٢٤/٦١٤)، وتفسير البغوي (٨/٥٢٢)، وزاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي (٤/٤٨٧).

(٢) فالصبر قسمان: صبر اضطراري، وصبر اختياري، فالصبر الاضطراري هو: صبر على أقدار الله عزوجل كالمصائب التي تجري بدون اختيار العبد، أما الصبر الاختياري فهو الصبر على أمر غير مرغوب فيه كالمصائب الواقعة على العبد من جراء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كالظلم والسجن والعقاب ولهذا ذكر ابن تيمية أن الصبر الاختياري أشد وأعظم أجرا . فصبر أيوب على المرض صبر اضطراري، أما صبر النبي صلى الله عليه وسلم على أذية قريش فصبر اختياري فقد خيره ملك الجبال أن يطبق عليهم الأخشبين فأبى. انظر أمراض القلب وشفاؤها لابن تيمية ص ١٩-٢٠

فمن موجبات القبول والأدعى لاصطفاء الله أن يكون العبد آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر داعياً لربه موافقاً قوله فعله ،فهي وظيفة الرسل وأنعم بها وظيفة ،وقد جعل الله أصحابها والقائمين عليها هم الفئة الناجية إذا أخذ الله الناس بعذاب فقال :﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥]. قال أهل العلم:(نَجَا النَّاهُونَ، وَهَلَكَ الْفَاعِلُونَ، وَلَا أَدْرِي مَا صُنِعَ بِالسَّاكِتِينَ)[١] فكانت عاقبة الذين ينهون عن السوء النجاة في الدنيا إذا أخذ الله الناس بعذاب ،والقبول والرفعة في الآخرة[٢] .

****

(١) تفسير الطبري (١٠/ ٥٢١) ونسب القول لابن عباس وهو ضعيف جدا لأجل الهذلي وهو متروك وفيه ابن وكيع وهو ضعيف. انظر (وكيع ابن الجراح أقواله ومروياته)من رسالة دكتوراه من جامعة أم القرى لمحمد أحمد القرشي ص٩٣٥.

(٢) وللأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شروطاً وهي:

١- وجوب اتباع الحق من كلا الْآمِرِ وَالْمَأْمُورِ.

٢-أن يكون الآمر له علم بالمعروف الذي يأمر به والمنكر الذي ينهى عنه.

٣-ألا يؤدي إنكاره إلى منكر أكبر منه ; لِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ على ارْتِكَابِ أَخفِّ الضَّرَرَينِ.

وللآمر صفاتٌ ينبغي أن يتحلى بها : ومنها الصبر والعلم والحلم والحكمة وسلامة القصد ,وإرادة الخير. ينظر أضواء البيان (١/ ٤٦١)،وشرح العقيدة السفارينية لابن عثيمين ص: ٦٩٦.

ثامناً : الرضا والشكر:

تناول القرآن الكريم موضوع الرضا والشكر في آيات متعددة،وبيّن الأسباب المؤدية إلى مرضاة الله، مما يدل على وجوب تحرّي مراضي الربّ جلّ وعلا وأنها من موجبات القبول قال تعالى:﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]

أولاً : الرضا:

إن رِضا العبدِ عن الله تعالى ،وعن مقاديره وما يجريه عليه من قضاء من مقتضيات الإيمان.

فإن قضاء الله نافذٌ في عباده شاءوا أم أبوا ،والعبد المتسخّط يجرى عليه القدر وهو مأزور .

والرضا : هو التسليم لقضاء الله وقدره،وسكون القلب له وطمأنينته [١].

وقيل في الرضا والشكر:"الرِّضَاءُ سُرُورُ الْقَلْبِ بِمُرِّ الْقَضَاءِ،وَالشُّكْرُ انْكِسَارُ الْقَلْبِ بِرُؤْيَةِ الْمِنَّةِ"[٢].

(١) خلاصة لعدد من الأقوال ينظر مدارج السالكين (٢/ ١٧٢).

(٢) الزهد الكبير للبيهقي ص: ٣٤١.

وحقيقة العبودية أن يوافق العبد ربه فِي رِضَاه وَسُخْطِهِ، فَيَرْضَى بِمَا يُرضيه وَيَسْخَط بما يسخطه[1].

ومما يجب الرضا به :

الرضا بإلاهيته : بمحبته وخوفه ورجائه وعبادته والإخلاص له.

الرضا بربوبيته : لا يرتضي ربا سواه ينزل به حوائجه ويدعوه .ويرضى بتدبيره فيه .

الرضا بدينه : بما يوجبه من أقوال وأفعال وأحكام وأوامر ونواهٍ.

الرضا بقضائه وقدره :بما يقدره ويجري عليه من قضاء من خير أو شر.

الرضا بنعمائه وبقسمه وعطائه قلّ أو كثُر[2].

ولا يستلزم الرضا بمفعولات الله تعالى كلها فمفعولاته تعالى هي مقضياته - وليس القضاء - وهي نوعان :

- الأول: مقضيّ شرعي ديني: وهو لبّ الدين وأساسه فيجب الرضا به ،الرضا بما أوجب والرضا بتحريم ما حرم كقوله:﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] فكل

---

(١) ينظر لوامع الأنوار البهية للسفاريني (٢/ ٣٤٢).

(٢) ينظر مدارج السالكين (٢/ ٢٣٤) .

تكاليف العبادة من ذلك كالرضا بالصلاة والصيام والحجاب للمرأة وسائر فروض وأركان وأوامر الدين والرضا بحرمة الخمر والربا وسائر المحرمات. فقضاء الله هو الحكم والتقدير بالعبادة والمقضي هنا هي العبادات المشروعة والمأمور بها بأنواعها.

- الثاني: مقضيّ كوني قدري: وهي مفعولات الله ومقدوراته التي أجراها في الكون أوعلى يد العباد أو من آثار أفعالهم فالمقضيات والمفعولات الكونية القدرية ثلاثة أقسام:

١- مقضيات يرضاها الله وهي من مفعولاته من الخير فيجب الرضا بها وشكره عليها فهي بمشيئة الله وتوفيقه وإرادته وقضائه وَقدره ورضائه وأمره كسائر النعم الحسية والمعنوية.

٢- مقضيات أذن بها الله وخلقها وهي من فعل العبد باختياره كالظلم والفسوق والمعاصي والذنوب فهي من مقدورات الله وهي مما يكرهه الله ويسخطه ويعاقب عليه والعبد مأمور ببغضها ، فيجب عدم الرضا بها . وكل ما كان من شر فهو بمشيئة الله وإرادته وقضائه وقدره ولكن لا يرضاه ولا يحبه لأن رضاه ومحبته إنما تكون في ما استحسنه،والشرّ ليس إليه سبحانه .

٣-مقضيات كونية وهي ما يكون من كوارث ومصائب كالفقر والمرض والبلاء مما ليس للعبد فيه اختيار فهي من مفعولات الله ومقدوراته خلقها وقدّرها لما في ذلك من الحكمة والاختبار والابتلاء والعقاب والتمحيص ولا يجب الرضا بها ولكن يرضى بقدر الله وقضائه الذي قدّره فيها،لأن الله

يُقدرها ولا يحبها ولكن يبتلي بها عبده عدلاً وحكمة ،ولا يضره كرهها كما قال تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ (الأحقاف :١٥) فالأم قد تكره الحمل والولادة وتوابعها لما فيها من ألم ومشقة ويكره المريض المرض وما يصاحبه من آلام لكن يُستحب الرضا ولا يجب عليه،كأن يكون شعوره بوجوده وعدمه سواء لما في ذلك من كمال التسليم ،ولا يتعارض ذلك مع دفع المرض ومعالجته لما يسببه من ألم ونحوه والدعاء والابتهال إلى الله برفعه [(١)].

الخلاصة: يجب الرضا بالقدر فهو كل ما قدره الله وكتبه في اللوح المحفوظ ،ويجب الرضا بالقضاء كله فهو فعل الله قائم بذاته وهو ما أنفذه الله من القدر ,فكل ما قضاه الله فهو الحكمة والعدل والخير. وكذلك يجب الرضا بالمقضي الشرعي لأنها مقدورات الله التي حَكم بها وشرعها.أما المقضي الكوني ففيه ما يجب الرضا به ومنه ما لا يجب الرضا به ومنه ما يستحب الرضا به كما سبق تفصيله.

فالقلب المليء بالرضا ،الفيّاض بالشكر ،يقرّبه الله ويجتبيه، ويتقبّل منه أحسن ما عمل ويرضيه وإن استشعر الآلام وكره المشقّة ومعوقات الطريق، فذلك لا يُنافي الرضا ما لم يجزع ويتسخّط .

---

(١) ينظر حاشية الدرة المضية للنجدي (١/ ٦٢) ،ولوامع الأنوار البهية للسفاريني (١/ ٣٤٣)،وأصول الدين لجمال الدين الغزنوي ص: ١٧٤.

ثانياً : الشكر :

الشكر : نقيضُ الكُفرِ، وهو الثناء على المحسِن قال تعالى :﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ﴾[الزمر: ٧].

قال ابن القيم عن الشكر "هو ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده ثناء واعترافاً ،وعلى قلبه شهوداً ومحبة ،وعلى جوارحه انقياداً وطاعة "[١].

والشكر مقام أسمى من مقام الرضا ،فهو ثمرة الرضا ،فلا شكر بدون رضا . والشكر أخصّ فليس كل راضٍ شاكر فالشكر أعلى ،وكل شاكرٍ راضٍ[٢].

وشكر الخالق سبحانه يتضمّن خمس قواعد :

١– محبته: فمن مقتضيات الشكر تقديم محبة المنعم على كل نعمة ،محبة يجد أثرها في انشراح الصدر،والاطمئنان إليه ،وطيب الحياة به .

٢– الخضوع له ،والتسليم لأمره ،والرضا بقدره.

٣– الاعتراف بنعمته،والتجرد من الحول والقوة إلا به كما في الحديث :(وَأَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ)[٣].

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٣٤) .
(٢) ينظر مدارج السالكين (٢/ ١٨١) .
(٣) ينظر الحديث بتمامه في صحيح البخاري (٨/٦٧/ح٦٣٠٦).

٤-دوام الثناء عليه ،وحمده واللهج بذكره بالجنان واللسان والجوارح.

٥- وألا يستعملها فيما يكره [١].

ومن شُكر الله على توفيقه للحسنة أن يأتي العبد بأخرى،وهلمّ جرا،فإن ترادُف الحسنات دليل الشكر المتبادل ; فمن الله التوفيق والسداد ،ومن العبد العمل باجتهاد ،وبهذا يكون الشكر في تقدّم وازدياد،قال الشاعر محمود الورّاق:

إذا كان شكري نعمة الله نعمة ... عليّ له بمثلها يجب الشكر

فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله ... وإن طالت الأيام واتصل العمر

ومن أعظم ما يدنو به العبد إلى تحقيق درجة الشكر هو التوجه إلى الله بالكلية قدر المستطاع عند بلوغ سن الأربعين وهو ما نستنبطه من قوله تعالى :﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ

---

(١) ينظر مدارج السالكين (٢/ ٢٣٤) .

عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف: ١٥-١٦].

وبصرف النظر عمّا إذا كانت هذه الآية قد نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه أو في غيره خاصة،كما تذكر التفاسير،فإن لها دلالة عامة ,وبالغوص في أعماق هذه الوصاة القيّمة من لدن حكيم خبير،يمكن أن يُستنبط بعضاً من جواهرها ،فالآية تتضمن أن التوجّه إلى الله بالكليّة بعد سنّ الأربعين من أعلى مقامات الشكر. فسن الأربعين هو زمن استكمال القوة العقلية ،حيث يكون الفرد قبل ذلك ملتهياً في متطلبات الحياة ، جاهداً في تحصيل مال أو علم أو اكتساب عمل ،وعند بلوغه سن الأربعين يشعر بالتقصير في جنب الله،فيتوجّه فيما تبقّى من عمره إلى تحصيل آخرته ،لاهجاً بالشكر والثناء على من أنعم عليه وعلى والديه لأنه امتدادٌ لهما،ويصلح له ذريته الذين هم امتداد له، وأن يستعملهم جميعاً في طاعته.

وإذا افتُرض جدلاً أن عمر الإنسان يتراوح بين الستين والسبعين [1] ،فإنه في سنّ الأربعين يكون قد تجاوز الثلثين من عمره ،ولم يتبق له من العمر إلا الثلث،الذي هو أوج تكوينه العقلي والمالي والنفسيّ،فيحسن عندئذٍ التوجه بهذا الثلث إلى ربه شاكراً حامداً عابداً سائلا إياه أن

---

(١) إشارة إلى حديث: (أَعْمَارُ أُمَّتِي مَا بَيْنَ السِّتِّينَ إِلَى السَّبْعِينَ، وَأَقَلُّهُمْ مَنْ يَجُوزُ ذَلِكَ) وهو في سنن ابن ماجة (٥/ ٣١١/ح ٤٢٣٦) ،وسنن الترمذي (٥/٥٥٣/ح ٣٥٥٠) وحسنه الألباني في صحيح الترمذي .

يتم نعمته عليه وعلى والديه وذريته ،وقد كان ديدن السلف الصالح التفرغ للعبادة عند بلوغ الأربعين[١]،متوجهين بما بقي من مال وعلم وموارد بدنية إلى اكتساب الحسنات،وسائر العمل الصالح ،وذلك قبل أن تُفتح الدنيا ،ويتعلق الناس بالفاني عن الباقي.

وتخصيص ثلث العمر الباقي في الطاعة ليس بدعاً من القول، فقد ورد في السنة فضل الثلث الأخير من الليل ،والعشر الأواخر من رمضان وهي ثلث الشهر،وعشر من ذي الحجة وهي ثلث الشهر كذلك،وكان رسول الله ﷺ يقوم أحياناً ثلث الليل ،وورد فضل التصدق بالثلث،وغير ذلك مما يدل على أفضلية التوجه بثلث موارد العبد لربه ،حيث لم يُحدد سنّ الأربعين هكذا اتفاقاً وحاشا لله فهو الثلث الأخير من العمر الذي يمثل قمّة التكوين العقلي والمالي والنفسي كما سلف القول. ومما يؤسف له ،أن كثيراً ممن يبلغ تلك المرحلة العمرية اليوم يزداد نهمه في الحياة،ويتوجه بكلكله إلى دنياه،استثماراً للمزيد والمزيد في تحصيل المال والجاه ،و ذلك ما حذّر منه النبيﷺ حين قال: (مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلاَ فِي غَنَمٍ أَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ، وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ)[٢].فمن

(١) ينظر شرح رياض الصالحين للعثيمين (٢/١٣٨).
(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٤/٥٨٨/ح٢٣٧٦)،والنسائي في السنن الكبرى(١٠/٣٨٦/ح١١٧٩٦)،وأحمد في المسند (٢٥/٦٢/ح ١٥٧٨٤) ،والدارمي في السنن (٣/١٧٩٥/ح٢٧٧٢) وقال الألباني:(صحيح)في صحيح الترمذي (ح٢٣٧٦).

موجبات القبول شكر الله تعالى ومن أفضل الشكر التوجّه إليه بالكلية بعد الاكتفاء من مطالب الدنيا،ليُحرز بذلك وعد الله تعالى بقبول أفضل عمله والتجاوز عن سيئاته كما قال:﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾[الأحقاف: ١٦] ولنا أن نتخيل كيف يكون فرح الطالب إذا قيّمه أستاذه على مواد التفوّق التي أحسن فيها وأحرز درجات الامتياز، وغضّ الطرف عن الجيد والمقبول والراسب .ولله المثل الأعلى فهذه الآية فيها دلالة على النيل بنصيب وافر من الشكر،وفيها وعدٌ منه تعالى لمن حققها بقبول أحسن العمل وأفضله والله أعلم .

****

علامات القبول

أولاً : الخوف والخشية من الله:

علامة قبول العبد استقامة سلوكه ،و أن يشعر بالخوف من الله خوفاً لا يشوبه يأس. ومن خلال التأمل في آيات الكتاب الكريم يظهر أن العبد يراوده الخوف في أحوال مختلفة :

١- عند التفكير في المعصية فيدفعه ذلك إلى الامتناع و الارتداع و كأنه سوط يزجره ..الله يراك .. الله ناظرٌ إليك .بل و إذا ضعف وقارف المعصية فتجده خائفاً وجلاً من المؤاخذة والعقاب قال تعالى: ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾[الذاريات: ٣٧].

٢- عند الطاعة فهو يقدمها على حريرة من الإشفاق ،والخوف من عدم بلوغها سمو المقام،راجياً العفو على التقصير،ومن عدم القبول يستجير،فيدعوه ذلك إلى تحسينها والخشوع فيها. وأن لا يرى نفسه في العمل قال الدقاق[١] :((علامة رفع العمل أن لا يبقى منه في نظرك شيء))[٢] قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

(١) هو الْحسن بن عَليّ بن مُحَمَّد أَبُو عَليّ الدقاق الزَّاهِد النَّيْسَابُورِي شيخ أبي الْقَاسِم الْقشيرِي توفّي فِي ذِي الْحجَّة سنة سِتّ وَأَرْبَعمِائَة وَقيل سنة اثْنَتَيْ عشرَة وَأَرْبَعمِائَة . ينظر وفيات الأعيان (٣/٢٠٨) والوافي بالوفيات (١٢/١٠٣) ومع أنه شيخ الصوفية ولكن الحكمة ضالة المؤمن.

(٢) تفسير النيسابوري (٤/٤١٩) .

أن يخاف الله تعالى هيبة منه عز وجل ،ومن يوم القدوم عليه خوف الحساب،ورهبةً من ناره وطمعاً في جنته،فيدفعه ذلك للمبادرة إلى التوبة . وأن يظل ذلك الخوف ملازماً له يراوده ويتناوب عليه مع الرجاء فيغلب هذا تارة وذاك أخرى بحسب الحال فيغلب الخوف في حال الطاعة ويغلب الرجاء في حال المعصية حتى يأتيه الأجل فيغلّب الرجاء [1]قال تعالى:﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور: ٣٧]

أما من نراه سادراً في معاصيه ،آمناً مكر الله ،ضارباً فيما يغضب الله هنا وهناك،بلا اعتبار للآخرة دار القرار فتلك بلا شك علامة من علامات الاستدراج والإملاء نسأل الله السلامة.

ثانياً : الازدياد من الطاعات والحرص عليها:

ومن علامات القبول أن تتبع الحسنة أختها ،والحرص على العمل الصالح ،ومحبة التقرّب إلى الله بالاستكثار من الحسنات ،فترى العبد يستلذّ الطاعة ،ويجد نفسه مشغولاً بها ،شغوفاً بالاغتراف من بحارها ،متحرياً من الأعمال ما يعظّمها ، متمرساً ماهراً في طرق اكتسابها ،واضعاً نُصب عينيه الإخلاص ثم التنويع والإكثار والإحسان.

(١) ينظر تفسير الطبري (١٩/١٩٤) ،والمحرر الوجيز لابن عطية (٤/٢٥١).

وقد قيل : ((الطَّاعَات عَلاَمَات الثَّوَاب لَا عللاً لها)) (١) . فترادف الطاعات ،وتتابع أعمال الخير من النوافل بعد الفرائض ،علامة من علامات القبول،وفي الحديث : (وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ) (٢). فإذا رأى العبد نفسه تحبّ الخير ،وتحرص على فعل الصالحات،وأعمال البرّ ،ورأى حواسه مسخّرة للخير فلا تستمع أذنه إلاّ إلى ما يرضي الله ،ولا تنظر عينه إلا إلى ما أحله الله ،وكذا سائر حواسه وله همة على الازدياد من الطاعات ،فإن ذلك ولا ريب علامة توفيق،وعلامة اجتباء واصطفاء. أما من قلّت طاعاته ،وثقلت نفسه إلى الأرض فاتجه إلى محابّه وشهواته فإنها لعمر الله علامة بُعد وإقصاء ،قال النبي عليه الصلاة والسلام : (إِذَا رَأَيْتَ اللهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ، فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ) ثم تلا رَسُــولُ اللهِﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام:٤٤] (٣). قال العلماء: علامة قبول الحسنة الحسنة بعدها،فعلامة قبول صوم رمضان أن يخرج العبد منه عازماً على مداومة الطاعة،مشمراً لها ،وعلامة قبول الحج

(١) أصول الدين للغزنوي (١/ ١٧٤).
(٢) جزء من حديث في صحيح البخاري (٨/ ١٠٥/ح٦٥٠٢).
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨/ ٥٤٧/ح١٧٣١١) وقال الارناؤوط (حديث حسن وهذا إسناد ضعيف لضعف رشد بن سعد، وباقي رجال الإسناد ثقات).

أن يكون حاله بعد أدائه خيراً مما كان عليه قبله. فهمّته في علوّ ،وصدره في انشراح ،وعمله متّجه إلى طريق الفلاح . وعلامة قبول التوبة أن لا يعود إلى الذنب، ويبغضه ،وأن يترك مجالسة أهل المعاصي ،وقرناء السوء.

فإذا أحب الله العبد وتقبّله حبب إليه الطاعة ،وبغّض إليه المعصية ،ووفقه للعمل الصالح تلو الآخر وسخّر الملائكة تؤزّه أزاً عليه قال ابن القيم رحمه الله : ((ولا يزال العبد يعاني الطاعة، ويألفها، ويُحبّها، ويُؤثرها حتى يُرسل الله سبحانه برحمته عليه الملائكةَ تؤزُّه إليها أزًّا، وتحرّضه عليها، وتُزعجه عن فراشه ومجلسه إليها. ولا يزال يألف المعاصي، ويحبّها، ويؤثرها، حتّى يرسل الله عليه الشياطين فتؤزّه إليها أزًّا.))(١) .

وفي الخبر قال الرسول ﷺ: (إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا، عَسَلَهُ) ، قِيلَ: وَمَا عَسَلُهُ؟ قَالَ: (يَفْتَحُ اللهُ لَهُ عَمَلًا صَالِحًا قَبْلَ مَوْتِهِ، ثُمَّ يَقْبِضُهُ عَلَيْهِ) (٢).

فما أعظم أن يجعل المؤمن العمل الصالح سجيّته،وأن يترفّع عن سفاسف الأمور إلى معاليها،ففي

(١) الجواب الكافي ص: ١٤٠.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٢٩/٣٢٣/ح ١٧٧٨٤)،وأخرج نحوه ابن حبان في صحيحه (٢/٥٤/ح٣٤٢)، وأخرجه الترمذي بلفظ (استعمله) (٤/١٨/ح٢١٤٢) . وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة وقال:(صحيح على شرط مسلم) (٥٦١/ح١١١٤).

ذلك النفع والصلاح والسعادة الحقّة،بل هي سعادة مركّبة ; يُسعد نفسه ،ويُرضي ربه ،ويُسعد غيره. وهو عملٌ يَربو نفعه ويعود على صاحبه بالخير إلى يوم القيامة ثم يجد ثوابه نعيماً دائماً غير مجذوذ.

ثالثاً :محبّة الصالحين:

إن العبد إذا أحب الله تعالى وصدق في محبته بالإخلاص وحسن الاتباع ،أحبه الله ووضع له القبول في الأرض كما ثبت في الحديث الصحيح المذكور آنفاً : (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فِي الأَرْضِ)[1] فمن علامات حب الله للعبد حب الصالحين له ومحبته لهم . فتراهم يكرمونه ويجلّونه محبة في الله تعالى ولو لم يقدم لهم شيئاً من المنافع،ويحمده الناس من غير تعرّضٍ منه لحمدهم ويقبلون ما جاء منه،وإذا رأوه وعليه سيما الصلاح ذكروا الله تعالى[2] .

قال هَرِمُ بْنُ حَيَّانَ[3]: «مَا أَقْبَلَ عَبْدٌ بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا أَقْبَلَ اللَّهُ بِقُلُوبِ أَهْلِ الْإِيمَانِ إِلَيْهِ

---

(١) ينظر الحديث بتمامه في صحيح البخاري (٤/ ١١١/ح٣٢٠٩).

(٢) ينظر شرح العقيدة الواسطية لابن عثيمين ص:٢٢٦،وتفسير الخازن (٢/ ٤٥٢).

(٣) هو هَرِمُ بْنُ حَيَّانَ الْعَبْدِيُّ الْبَصْرِيّ الزَّاهِد من التابعين على أرجح الأقوال أدْرك خلاَفَة عمر رضي الله عنه،وكان عَامِلا له. وكان فارساً شجاعاً ولي بعض حروب العجم ببلاد فارس في خلافة عمر وعثمان رضي الله عنهما ،وكان ثقة وله فضل وعبادة. توفي في حدود الثمانين للهجرة، ينظر الطبقات الكبرى لابن سعد (٧/ ٩٤)،والثقات لابن حبان (٥/ ٥١٣),ومختصر تاريخ دمشق لابن عساكر (٢٧/ ٧٥) ،وجامع التحصيل للعلائي (١/ ٢٩٣).

حَتَّى يَرْزُقَهُ مَوَدَّتَهُمْ))[١] .

قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مريم: ٩٦].

فهو ودٌّ من الودود سبحانه يشيع في الملأ الأعلى، ثم يفيض على الأرض بين الناس وهذه من عاجل بشرى المؤمن.

قِيلَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ مِنَ الْخَيْرِ، وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ؟ قَالَ: (تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ) [٢].

****

(١) تفسير البغوي(٣/ ٢٥٣)

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه(٤/ ٢٠٣٤/ح٢٦٤٢).

محبطات القبول ومؤخراته

أولا: محبطات لجميع الأعمال

قال تعالى : ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾[المائدة: ٥] أي هلك وضاع وخسره بشرط أن يموت على كفره[١].

واعلم أن الحبوط حبوطان :

– حبوط كليٌ لجميع الاعمال وهو مكفّر ومخرج عن الملة .

– وحبوط جزئي لأعمال أو عمل معين غير مكفّر .

فالأعمال الفاسدة المكفرة تسبب فساد غيرها من العمل بل وفساد صاحبها عند الإصرار عليها وعدم التوبة منها.

فعندما تنتصر النفس الأمارة على صاحبها ،وتجره إلى المعاصي والآثام ،يسترسل معها ويتمادى في غيّه حتى يغفل عن عاقبته ،وتخبث نفسه ،وينسى عظمة خالقه عز وجل ،مما يستجلب سخطه ولعنته ،فيحبط بذلك عمله .

(١) ينظر اللباب في علوم الكتاب (٧/٢١٥) ،وتفسير السعدي ص: ٢٢١.

وكما أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب وسائر أعمال الخير في قوله تعالى : ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] فإن العمل السيء يحبط الكلم الطيب وسائر العمل الصالح .فكل ما نهى عنه الشرع وحذر من حبوط العمل بسببه فإنه لا يُتوصل به إلى الجنة ،و يضيع سعي صاحبه فلا يفلح ، ولا يبقى له منه سوى التعب والنصب. قال الحسن : (فَإِذَا كَانَ كَلاَمٌ طَيِّبٌ وَعَمَلٌ سَيِّئٌ رُدَّ الْقَوْلُ عَلَى الْعَمَلِ ،وَكَانَ عَمَلُكَ أَحَقُّ بِكَ مِنْ قَوْلِكَ) (١) .

وقال الحسن وقتادة:((لا يقبل الله قولا إلا بعمل، من قال وأحسن العمل قبل الله منه))(٢) .

فالأعمال المسببة للحبوط الكلي لجميع الأعمال وخلود صاحبها في النار أبداً هي :

١-الشرك أو الكفر: لاسبيل إلى الهدى والفلاح ،ولا يحصل القبول والنجاح إلا بالإيمان التام بكل ما أنزل الله قال تعالى:﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾[الزمر: ٦٥] . فالشرك محبط للعمل مفسد لسعي الإنسان. قال تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ

(١) تفسير عبد الرزاق (٦٨/٣) .
(٢) تفسير الطبري (٤٤٥/٢٠) .

لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٥] وقال تعالى﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾[الفرقان:٢٣].ومن أشرك شركا أكبر مع الله فقد كفر به وبوحدانيته.

٢- الردة: قال تعالى: ﴿وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[البقرة:٢١٧]

والمرتد شرعاً: (الذي يكفر بعد إسلامه نطقاً أو اعتقاداً أو شركاً أو فعلاً)[١].

وقال النووي [٢]: ((والردة هي قطع الإسلام بنية أو قول كُفر أو فعل سواء قاله استهزاء أوعناداً أو اعتقاداً)) [٣].

(١) التوضيح عن توحيد الخلاق في جواب أهل العراق لسليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ص: ٤٢ .
(٢) هو يحيى بن شرف بن مري بن حسن بن حُسَيْن بن مُحَمَّد بن جُمُعَة بن حزَام الْفَقِيه الحَافِظ الزَّاهِد أحد أعْلَام الإِسْلَام محيي الدّين أَبُو زَكَرِيَّا الحزَامِي النَّوَوِيّ نسبة إلى نوى، وهي قرية من قرى حَوْران في سورية،من أئمّة المذهب الشافعي،إلّا أنه أشعري العقيدة وهو صاحب الكتب النافعة المشهورة وهي(الأربعون النووية) و(الأذكار) و(رياض الصالحين) . ولد عام ٦٣١هـ في قرية نوى ، ولما بلغ العاشرة بدأ في حفظ القرآن وانخرط في طلب العلم و الدعوة إليه مات عام ٦٧٦ هـ. ينظر طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (٢/١٥٣) ،وتذكرة الحفاظ للذهبي (٤/١٧٤) ،وتاريخ الإسلام (١٥/٣٢٤).
(٣) منهاج الطالبين للنووي ص: ٢٩٣،وينظر التوضيح عن توحيد الخلاق في جواب أهل العراق ص: ٤٢ .

والردة نوعان:

- ردة مطلقة :وهي الرجوع عن الدين كله .
- ردة ببعض مفسدات الدين : كالاستهزاء بالدين والاستهانة بحرماته فقد يحبط عمل العبد بكلمة.

وحبوط العمل بالكلية مقيد بموت صاحبه على الردة ،وهي محبطة لثواب ما عمل أثناء الردة قيل وإن تاب صاحبها ،وقيل بل يُحسب ثوابها إن تاب [(١)] ونواقضُ الإسلام كثيرة ترجع إلى خمسة أقسام هي :ردة بالقول ،وردة بالفعل،وردة بالاعتقاد،وردة بالشك ،ووردة بالترك [(٢)].

٤- النفاق المخرج من الملة : وهو النفاق الاعتقادي [(٣)] الذي هو إبطان الكفر وإظهار

---

(١) ينظر شرح كشف الشبهات لمحمد آل الشيخ ص: **١٦** و ص : **٩٢** .

(٢) الردة بالقول كسبّ الله تعالى أو رسوله ﷺ أو ملائكته أو ادعاء علم الغيب ...،والردة بالفعل كالسجود لغير الله أو الذبح لغير الله ... والردة بالاعتقاد كاعتقاد عدم وجوب الصلاة ونحو ذلك ،وردة بالشك كمن شك في تحريم الخمر أو الزنا أو في رسالة النبي ﷺ وردة بالترك كمن ترك الصلاة أو صيام رمضان متعمداً ،ينظر عقيدة التوحيد وبيان ما يضادها من الشرك الأكبر والأصغر للشيخ صالح الفوزان ص: **٤٩-٩٥** .

(٣) والنفاق الاعتقادي يتضمّن :

- تكذيب الرسول ﷺ،أو بعض ما جاء به .
- بغض الرسول ﷺ أو بغض ما جاء به قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [محمد: ٩].ومن ذلك استنبط العلماء أن من أبغض شيئاً مما جاء به الرسول ﷺ،ولو عمل به،كفر بالإجماع،وحبط عمله،لأن الكره يتنافى مع المحبة اللازمة لله تعالى ولرسوله ودينه الحنيف،ينظر الرسائل الشخصية للشيخ محمد بن عبد الوهاب ص:**٢١٣**.

الإيمان قال تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ۝٥٢ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ﴾[المائدة: ٥٢ – ٥٣].

****

• المسرة لانخفاض الدين ،أو كراهية انتصاره ،ينظر عقيدة المسلم في ضوء الكتاب والسنة (١/ ٩٤).
السحر،والكهانة والعرافة : السحر من الموبقات وناقض من نواقض الإسلام،والآيات صريحة في كفر الساحر لأن سحره يدعوه للكفر بالله ،ينظر إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد للشيخ صالح الفوزان. قال تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ﴾ [البقرة: ١٠٢] وما يشبهه من الكهانة والتنجيم والعرافة . ففيهم ادعاء علم الغيب المختص بالله وحده قال تعالى:﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾[الجن: ٢٦ – ٢٧] وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (من أتى عرَّافًا أو ساحراً أو كاهناً فسألهُ فصدَّقَهُ بما يقولُ فقد كفرَ بما أنزلَ على محمَّدٍ) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (٤/١٩/ح٤٦١٥)،أبو يعلى في مسنده ،مسند عبد الله بن مسعود (٩/٢٨٠/ح٥٤٠٨)،والبيهقي في السنن الكبرى (٨/٢٣٣/ح١٦٤٩٦)،وقال الألباني:(صحيح موقوف) ،في صحيح الترغيب (ح٣٠٤٨).
والْكَاهِنُ: هو الذي يُخبر بما يكون في مستقبل الزمان ويدعي علم الغيب ، وَيَدَّعِي مَعْرِفَةَ الأَسْرَار بواسطة الجن والشياطين،وَالْعَرَّاف : هُوَ الَّذِي يَدَّعِي علم الغيب ومَعْرِفَةَ الأُمُورَ بِمُقَدِّمَاتِ وأَسْبَاب يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى مَوَاقِعِهَا، كالْمَسْرُوقِ مِنَ الَّذِي سَرَقه، وَمَعْرِفَةَ مَكَانِ الضَّالَّةِ، وَإِذا اتُّهِمت امرأَة بالزِّنَى، يدعي معْرفة صَاحِبهَا وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنَ الأُمُور. وَمِنْهُمْ مِنْ يُسَمِّي الْمُنَجِّمَ كَاهِنًا، ،وقيل العرّاف: اسم للكاهن والمنجّم والرمّال ونحوهم، ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق. ينظر شرح السنة للبغوي (١٢/ ١٨٢)،و التوحيد لابن عبد الوهاب ص: ٧٧.

ثانيا: محبطٌ لعمل بعينه أو محبط لثوابه

الإخلال بالعبادة والإتيان بها على الوجه المنهي عنه يقدح في قبولها ،وكذا مقارفة المنهي عنه يخل أو يفسد العبادة المصاحبة له كالرياء وشرب الخمر ، وفي ذلك فصّل ابن تيمية رحمه الله فقال:"وعندنا لا يُعتد بعبادة يعتريها [أو يعترى] شرائطها نهي الشرع ثم قال: على أن الـردّ(١) يكون بمعنى الإبطال وحكي عن قوم أنهم يقولون الردّ ضد القبول والعمل على الوجه المنهي عنه لا ثواب فيه لكنه صحيح بمعنى أنه يُسقط الفرض ولا ثواب إن كان عبادة"(٢).

وقال السندي (٣): "الْقبُول أخص من الإجزاء فَإِن الْقبُول هُوَ أَن يكون الْعَمَل سَببا لحُـصُول الْأجر وَالرِّضَا والقرب من الْمولى و الإجزاء كَونه سَبباً لسُقُوط التَّكْلِيف عَن الذِّمَّة فَصَلاَة العَبْد الْآبِق صَحِيحَة مجزئة لسُقُوط التَّكْلِيف عَنهُ بهَا لَكِن لَا أجر لَهُ عَلَيْهَا"(٤) .

ومن الأعمال المبطلة لقبول العمل أو ثوابه :

(١) أي ردّ العمل .

(٢)المسوّدة في أصول الفقه لآل تيمية (١/ ٥٢) .

(٣) هو الفقيه الحنفي عالم بالحديث والتفسير والعربية محمد بن عبد الهادي التتوي، أبو الحسن، نور الدين السندي.له حواشي على البخاري ومسلم والنسائي وغيره،أصله من السند ومولده فيها، سكن المدينة إلى أن مات بها ،ينظر الأعلام للزركلي (٦/ ٢٥٣) . .

(٤) كفاية الحاجة في شرح سنن ابن ماجة لمحمد التتوي السندي (١/ ٣٠٧) .

١- المن والأذى : والمنان هو الذي يدلي بإحسانه ،ويعتدّ بإنعامه ،ويتعالى على المحسن إليه بإنفاقه قيل: المنة تهدم الصنيعة ،فهو في حق العبد مذمّة وفي حقّ الله تعالى صفة كمال فالله تعالى هو خالق العبد والمنعم عليه ابتداء[١]. أما (الأذى) فهو ما تسمعه من المكروه بعد الصدقة [٢] أن يذكر ما تصدق به عند غيره فيتأذى به أو يعيره به أو يقع بينهما خصومة في ذلك ،وربما رماه بالجحود وعدم الاعتراف بالفضل . فالمن والأذى يحبط ثواب الزكاة والصدقة و المعروف الذي حدث فيه المنّ والأذى أياً كان ماديا أو معنوياً كالكلمة الطيبة ،وحسن المعاملة ،والصدقة وغير ذلك،قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾[البقرة:٢٦٤].قال ابن عثيمين رحمه الله في الصدقة: ((لقبول الصدقة شروط سابقة، ومبطلات لاحقة؛ أما الشروط السابقة فالإخلاص لله والمتابعة ؛ وأما المبطلات اللاحقة فالمن والأذى))[٣]. وكذلك الزكاة يحبط ثوابها مع إجزائها وبراءة الذمة بها . وقد جاء في السنة التحذير من المنّ ،ومذمّة فاعله والتشنيع عليه قال ﷺ: (ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) قَالَ: فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثَ مِرَارًا، قَالَ أَبُو ذَرٍّ: خَابُوا وَخَسِرُوا، مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟

(١) ينظر لسان العرب (١٣/ ١٩٨)،وتفسير العثيمين (٣/ ٣١٩).
(٢) ينظر تهذيب اللغة (١٥/ ٣٩).
(٣) تفسير العثيمين (٣/ ٣١٤).

قَالَ: (الْمُسْبِلُ، وَالْمَنَّانُ، وَالْمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ)[١] وقال ﷺ: (لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنَّانٌ، وَلَا عَاقٌّ، وَلَا مُدْمِنُ خَمْرٍ)[٢]. وهذا الوعيد ينطبق على من كان المنّ ديدنه وصفةً له لأن الحديث ورد بصفة المنان ومن المعلوم لغة أنه لا يوصف بذلك إلا من اتخذ ذلك عادة أو أكثر منه ,وبذلك يندرج تحت مؤخرات القبول[٣] وكذلك الحال في شرب الخمر والعقوق،وغيره من الكبائر أو مات على الفعل على غير توبة ولو لم يكثر[٤].

٢- شرب الخمر: نهى الله تعالى عن أم الخبائث،فلوثتها ،ورجسها لا يتفقان مع طهارة المؤمن المقبل على الله فقال سبحانه :﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[المائدة:٩٠] وشارب الخمر لا تُقبل صلاته أربعين يوماً قال ﷺ: (مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ وَسَكِرَ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، وَإِنْ مَاتَ دَخَلَ النَّارَ، فَإِنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَإِنْ عَادَ، فَشَرِبَ، فَسَكِرَ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، فَإِنْ مَاتَ دَخَلَ النَّارَ، فَإِنْ تَابَ، تَابَ اللَّهُ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١/١٠٢/ ح١٧١).

(٢) أخرجه النسائي في السنن(٨/٣١٨،ح٥٦٧٢)،و البيهقي في الشعب ،المطاعم والمشارب وما يجب التورع عنه (٧/٤١٠/ح٥٢٠٤) ،وأحمد في المسند ،مسند المكثرين من الصحابة،مسند أبي سعيد الخدري (١٧/٣٢٠ح١١٢٢٢) ،وقال الألباني : (صحيح) في صحيح النسائي.

(٣) ينظر مطلب مؤخرات القبول في هذا البحث ص: ١٢٢ .

(٤) ينظر دليله في ما ذكر في البند الذي يليه (شرب الخمر) حديث (من شرب الخمر وسكر ...) .

عَلَيْهِ، وَإِنْ عَادَ، فَشَرِبَ، فَسَكِرَ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، فَإِنْ مَاتَ دَخَلَ النَّارَ، فَإِنْ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ، وَإِنْ عَادَ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ، أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ رَدَغَةِ الْخَبَالِ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ) قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا رَدَغَةُ الْخَبَالِ؟ قَالَ: (عُصَارَةُ أَهْلِ النَّارِ) (١).

ونفي القبول هو الحرمان من ثواب الصلاة مع إجزائها و تحديد العدد بأربعين للشرب في كل مرة فإن تاب تاب الله عليه (٢) ،فإن كان مدمناً للخمر ،أو مات على هذه الكبيرة فلم يتب منها تأخر قبول حسناته حتى يستوفي عذابه يوم القيامة أو يعفو الله عنه فمذهب أهل السنَّة كما سبق ذكره أن الحسنات لا تحبط كلياً إلا بالكفرِ(٣).

٣ - الرياء : يحبط العمل المرائَى به ويُبطله فلا يجد ثوابه ،أو يحبط القدر الذي فسد بالرياء منه ،وقد حذر الله تعالى بالويل والوعيد للمرائين فقال تعالى:﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ

(١)أخرجه ابن ماجة في السنن(٢/١١٢٠ح٣٣٧٧)، وروى نحوه الإمام أحمد في المسند (٨/٥١٣ح٤٩١٧)،وابن حبان في صحيحه(١٢/١٨٠/ح٥٣٥٧) ،والحاكم في المستدرك (٤/١٦٢/٧٢٣٢) ،وروى نحوه الترمذي في أبواب الأشربة ،باب ما جاء في شارب الخمر (٤/٢٩٠/ح١٨٦٢) ،وقال الأرناؤوط : (إسناده صحيح) في سنن ابن ماجة .

(٢) ينظر القول المفيد على كتاب التوحيد لابن عثيمين (١/٥٣٦) .

(٣) ينظر أصول الإيمان للشيخ محمد بن عبد الوهاب ص: ٤٧.

ٱلۡمَاعُــونَ﴾ [الماعون: ٤ - ٧] وقال الرسول ﷺ فيما يرويه عن ربه: (قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ) [١]. إذا كان باعث الخير غالباً على قصد الرياء حبط من العمل القدر الذي يساويه وبقيت زيادته، وإن كان باعث الخير مغلوباً أسقط بسببه شيء من عقوبة القصد الفاسد [٢] .

٤- إتيان الكهنة والسحرة ومن شابههم : يحرم إتيان الكهنة والسحرة وتصديقهم بل هي من الكبائر قال تعالى في السحر ومن يتعامل به ويختاره :﴿وَيَتَعَلَّمُــونَ مَــا يَضُرُّهُــمۡ وَلَا يَنفَعُهُــمۡۚ وَلَقَــدۡ عَلِمُــواْ لَمَــنِ ٱشۡــتَرَىٰهُ مَــا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِــرَةِ مِــنۡ خَلَٰــقٖۚ وَلَبِئۡــسَ مَــا شَرَوۡاْ بِــهِۦٓ أَنفُسَــهُمۡۚ لَــوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ١٠٢﴾[البقرة: ١٠٢] وقال النبي ﷺ: (مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ لَمْ تُقبل له صَلاة أربعين ليلة) [٣]وقال: (من أتى عرافًا أو كاهنًا فصدَّقه بما يقول ؛ فقد كفر بما أُنزِلَ على محمدٍ)[٤].

فقوله : (لَمْ تُقبل له صَلاة أربعين ليلة) بيّن أهل الفقه أن الصلاة تجزؤه مادامت صحيحة،أي

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/٢٢٨٩/ح٢٩٨٥).
(٢) ينظر شرح البخاري للسفيري (١/ ١٢٤) .
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/١٧٥١/ح٢٢٣٠).
(٤) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (٤/١٨/ح٤٦١٤) ،والبيهقي في السنن الكبرى (٨/٢٣٣/ح ١٦٤٩٦)،وقال الألباني : (صحيح) في صحيح الترغيب (٣/٩٨/ح ٣٠٤٧).

تُسقط المساءلة عنها ،ولكن لا ثواب فيها[١]،وأي خسارة أكبر من أن يمكث العبد أربعين يوماً لا يجني ثواباً من صلواته كلها فرضاً كانت أو نافلة ،فسيئات أعماله اليومية تضاف إليه ولا مورد للثواب يُذكر ،مما يعرّض حسناته للنقص وسيئاته للزيادة المسببة لاختلال ميزانه يوم الدين . وعلى الحديث الثاني فإنّ قوله ﷺ : (فقد كفر بما أُنزِلَ على محمدٍ) كفرٌ لا يخرجه من الملّة ،ولكن يعرّضه للعذاب الأخروي وتأخير القبول وهو لعمر الله هولٌ وأي هول[٢].

٥- المرأة إذا تطيبت للخروج فوجد الرجال ريحها : قال تعالى آمراً النسـاء بالتقوى:﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ﴾[الأحزاب: ٥٥] وهو أمر مطلقٌ في جميع الأحوال[٣]،وخروج المرأة متطيبة ،بعيد كل البعد عن تقواه ،فهو مثارٌ لفتنة الرجال ،وتحريكٌ لكامن الشهوات،وسببٌ للفت النظر إليها وحملهم على شمّ طيبها وهي أجنبية عنهم ،وكعادة الشرع الحنيف في استئصال دابر الفتنة ،والحفاظ على أخلاق المجتمع وطهارة أفراده ، فقد حرّمه وغلّظ تحريمه ، قال الرسول ﷺ:(أَيُّمَا امْرَأَةٍ تَطَيَّبَتْ، ثُمَّ خَرَجَتْ إِلَى الْمَسْجِدِ، لَمْ تُقْبَلْ لَهَا صَلَاةٌ

---

(١) ينظر تحفة المحتاج في شرح المنهاج لابن حجر (٩/٦٣) .
(٢) ينظر التحبير شرح التحرير لعلاء الدين الحنبلي (٣/١١٠٢).
(٣) ينظر التفسير الوسيط (٨/٢١٩).

حَتَّى تَغْتَسِلَ) [١] وقال:(أَيُّمَا امْرَأَةٍ اسْتَعْطَرَتْ، ثُمَّ مَرَّتْ عَلَى الْقَوْمِ لِيَجِدُوا رِيحَهَا فَهِيَ زَانِيَةٌ[٢]. وذكر الهروي[٣] أن صلاتها لا تُقبل قبولاً كاملاً .وذكر صاحب التيسير أنها لا تثاب على الصلاة ولكن تجزؤها [٤]وقال ابن حجر : ((وَقَدْ عَلِمْت أَنَّهُ صَحَّ عَلَى إيجَابِ الْغُسْلِ عَلَيْهَا وَنَفْيِ قَبُولِ صَلاتِهَا إنْ صَلَّتْ قَبْلَ أَنْ تَغْتَسِلَ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ خُصُوصَ الْغُسْلِ بَلْ إذْهَابُ رَائِحَتِهَا))[٥].

---

(١) أخرجه ابن ماجة (٢/١٣٢٦/ح٤٠٠٢)،وقال الألباني:(حسن صحيح)،في صحيح ابن ماجة .

(٢) أخرجه أحمد في المسند(٣٢/٥٢٣/ح١٩٧٤٧)،وابن خزيمة في صحيحه (٣/ ٩١/ح١٦٨١) ,وابن حبان في صحيحه،كتاب الزنى وحده ،ذكر وصف زنى الأذن ... (١٠/ ٢٧٠/ح٤٤٢٤) ،والبيهقي في شعب الإيمان،الحياء (١٠/٢٣٥/ح٧٤٣٠) ،والنسائي في السنن(٨/١٥٣/ح٥١٢٦) ,وقال الأرناؤوط في مسند أحمد :(إسناده جيد) .

(٣) هو الحافظ أبو إسماعيل ، عبد الله بن محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن علي بن جعفر بن منصور بن مت الأنصاري الهروي ، مصنف كتاب (ذم الكلام)، وشيخ خراسان من ذرية صاحب النبي –صلى الله عليه وسلم– أبي أيوب الأنصاري . كَانَ يدعى شيخ الإسلام وَكَانَ إمام أهل السنة بهراة ويسمى خطيب أعجم لتبحر علمه وفصاحته ونبله مات سنة إحدى وثمانين وأربعمائة . ينظر طبقات الحنابلة (٢/٢٤٧).

(٤) ينظر التيسير بشرح الجامع الصغير (١/٤١٥) .

(٥) الزواجر عن اقتراف الكبائر (٢/٧٣) ،وهذا الحكم تمشّيا مع القاعدة التي تنص على أن الحكم يدور مع علته وجوداً وعدماً.

وقال القاري[١]: ((بل حُكم عليها بالغسل كما يحكم على الجنابة زجراً لئلا تعود للفعل)) [٢].

و يجدر بنا الوقوف عند هذا الأمر هنيهة .. فكثير من النساء يحقِرن هذا الفعل ،فقد لا تجد إحداهن غضاضة من مسحة طيبٍ تمسح بها جسدها أو ثوبها وهي خارجة لبعض شأنها،بل يحدث هذا في أوساط من نرى فيهن التزام شرائع الدين ،فترى حجابها كاملاً ولكن رائحة العود وأنواع الطيب تفوح عند الاقتراب منها ،فينبغي الحذر كل الحذر ،فضياع صلاة واحدة أو الحرمان من ثوابها ، خسارة لا غُنية عنها بسواها ،وربما يحصل العذاب بسببها .

٦- عدم الطمأنينة في الصلاة وعدم إقامة الصلب في الركوع والسجود:

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾[النساء: ١٠٣].وفي عدم إقامة الصلب في الصلاة قال ﷺ :(يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ لَا صَلاةَ لِمَنْ لَا يُقِيمُ صُلْبَهُ فِي الرُّكُوعِ

---

(١) هو علي بن سلطان محمد نور الدين، الملا الهروي القاري، ولد في هراة وتوفي بها سافر إلى مكة فسكنها، أحد صدور العلم في عصره، كان فصيح البيان قوي الحجة، واعظاً وعالماً مدققاً وباحثاً لكثرة اطلاعه وسعة معرفته،له تصانيف متنوعة كان يتحلى بالأخلاق الفاضلة والآداب الكاملة ولد عام - ١٠١٤ هـ وتوفي عام ١٦٠٦ م ،ينظر الأعلام للزركلي (١٢/٥).

(٢) ينظر مرقاة المفاتيح (٥٠٧/٣) .

وَالسُّجُودِ)[١]. قال ابن تيمية في معنى :(لا صلاة) أي : نفي الكمال الواجب الذي يُذم تاركه ويتعرض للعقوبة بسببه ,وليس الكمال المستحب[٢]. وكذا نقص إتمام الركوع والسجود يفسد الصلاة قال عليه الصلاة والسلام : (إِنَّ الرَّجُلَ لَيُصَلِّي سِتِّينَ سَنَةً مَا تُقْبَلُ لَهُ صَلاةٌ، لَعَلَّهُ يُتِمُّ الرُّكُوعَ وَلَا يُتِمُّ السُّجُودَ، وَيُتِمُّ السُّجُودَ وَلَا يُتِمُّ الرُّكُوعَ)[٣] . وإذا خلت الصلاة من الطمأنينة فإنها لا تجزئ ولا تُقبل على قول الجمهور[٤] .

قال النووي رحمه الله: ((وَتَجِبُ الطُّمَأْنِينَةُ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ وَالاِعْتِدَالِ مِنْ الرُّكُوعِ وَالْجُلُوسِ بين السجدتين وَبِهَذَا كُلِّهِ قَالَ مَالِكٌ وَأَحْمَدُ وَدَاوُد))[٥].

((فالاعتدال والطمأنينة ركنان في كل ركعة إجماعًا ... وقال لمن تركها (صَلّ فإنَّك لمْ تُصلِّ))[٦] فنفى إجزاء

(١) أخرجه ابن ماجة في السنن (١/ ٢٨٢/ح ٨٧١) ،وأحمد في المسند (٢٦/ ٢٢٤/ ح ١٦٢٩٧) ,وابن خزيمة في صحيحه (١/ ٣٠٠/ح٥٩٣)،وقال الألباني : (صحيح) ,في صحيح ابن ماجة.

(٢) ينظر معالم أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة ص:٣١٩.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١/ ٢٥٧/ح ٢٩٦٣) ،والمنذري في الترغيب والترهيب (١/ ١٩٩/ ح ٧٥٢) وقال الألباني :(حسن) في صحيح الترغيب والترهيب .

(٤) ينظر المطلق والمقيد لحمد الصاعدي ص:٤٠٣ .

(٥) المجموع شرح المهذب للنووي (٣/ ٤١١).

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٥٢/ح٧٥٧).

الصلاة بدون الطمأنينة ونفَى مسماها الشرعي بدونها وأمر بالإتيان بها وهذا شرع محكّم صحيح))(١) .

٧- نشوز المرأة وعصيانها لزوجها وامتناعها عنه بغير حق: قال تعالى :﴿ٱلرِّجَـالُ قَوَّٰمُـونَ عَلَى ٱلنِّسَــآءِ﴾ [النساء: ٣٤] فللزوج حق الطاعة وينبغي للمرأة أن تتحرى رضا زوجها،وتتجنب سخطه عليها ،وذلك لعظيم حقّه،فكثير من النساء تراها غادية في غضب الله وسخطه لا تبالي ،قال النبي ﷺ: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا مِنْ رَجُلٍ يَدْعُو امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهَا، فَتَأْبَى عَلَيْهِ، إِلَّا كَانَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ سَاخِطًا عَلَيْهَا حَتَّى يَرْضَى عَنْهَا) (٢). قال العلماء: المعصية واقعة بغضب الزوج فإن لم يغضب فلا حرج عليها، فلاَ تُقْبَلُ صَلاَتُهَا حَتَّى يَرْضَى عَنْهَا،وقيل لا يرفع ثوابها ولكن تجزؤها،وتبرأ بها ذمتها فقبولها قبول إجزاء لا قبول ثواب(٣).
وقال ﷺ : (اثنانِ لا تجاوز صلاتُهما رؤوسَهما : عبدٌ آبِقٌ من مواليه ، حتى يرجعَ ، و امرأةٌ عصتْ زوجَها ، حتى ترجِعَ) (٤) .

(١) الإحكام شرح أصول الأحكام (١/٣٠١) .
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢/١٠٦٠/ح١٤٣٦).
(٣) ينظر نيل الأوطار للشوكاني (٦/٢٤٨) .
(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط (٤/٦٧/ح٣٦٢٨) ،والحاكم في المستدرك (٤/١٩١/ح٧٣٣٠) ، والمنذري في الترغيب والترهيب (٢/١٨٦/ح١٨٨٨) ،وقال الألباني: (صحيح) في الصحيح الترغيب والترهيب.

٨ - العبد الآبق حتى يرجع : وذلك للحديث السابق: (اثنانِ لا تجاوز صلاتُهما رؤوسَهما...)[١] .محبط لثواب أيام أبقه وعصيانه حتى يعود إن كان بغير عذر[٢].

٩- صوم المرأة في غير رمضان إلا بإذن زوجها : محبط لثواب صيام اليوم الذي لم يأذن فيه،قال جمهور العلماء : لا يقبل صومها إن صامت بغير إذن زوجها في نافلة وكان زوجها يريدها وتأثم بذلك لما فيه من إضرار بالزوج وتفويت لحقه ،أما فرضها فيجزئ ويفوتها الثواب فيه لأنه قضاء فرض موسّع فيه ،وقائم على التراخي وليس في شهر رمضان [٣].

قال النبي ﷺ: (لاَ يَحِلُّ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تَصُومَ وَزَوْجُهَا شَاهِدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ) [٤] . فالنهي في الحديث للتحريم وليس للكراهة كما ذكر البعض فقد ورد في رواية بالنهي: (لاَ تَصُومُ المَرْأَةُ وَبَعْلُهَا

---

(١) سبق تخريجه .
(٢) ينظر فيض القدير (١/١٥٠/ح ١٦٤) ،والتيسير بشرح الجامع الصغير (١/٣٣).
(٣) ينظر شرح منتهى الإرادات للبهوتي (٣/٤٢) ،والفقه على المذاهب الأربعة لعبد الرحمن الجزيري (١/٥٠٨)،والزواجر عن اقتراف الكبائر (٢/٧٦) ،وشرح رياض الصالحين لابن عثيمين (٦/٥٠٠),و الفتاوى الفقهية الكبرى (٤/٢٧٢) ورسالة في الفقه الميسر للسدلان ص٧٤، فالقاعدة أنه عند تزاحم العبادات يقدّم ما لا يمكن تأجيله .
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (٧/٣٠/ح٥١٩٥) .

شَاهِدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ)[١].وفي رواية بنون التوكيد (لَا تَصُومَنَّ امْرَأَةٌ إِلَّا بِإِذْنِ زَوْجِهَا)[٢] .
فَأَمَّا إذَا كَانَ الزَّوْجُ مَرِيضاً أَوْ صَائِماً أَوْ مُحْرِماً لَمْ يَكُنْ لَهُ مَنْعُ الزَّوْجَةِ ، وَلَهَا أَنْ تَصُومَ كما شاءت ، وَإِنْ نَهَاهَا ، وصيامها صحيح ومثابة عليه بإذن الله[٣] .

١٠- الاغترار بالعمل : قال تعالى:﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾[المدثر: ٦].

ومن معاني الآية السابقة : أي تمنن عملك على ربك تستكثره[٤] ولا ريب أن في استكثار العبادة اغترار بها وهو من أكبر الحُجُب بين الله وبين عبده إذ له علاقة وطيدة بالكبر والعُجب الذي يمقته الله ويمقت صاحبه .

والاغترار هو الانخداع بالعمل ،ودخول العجب على النفس والإدلال به واستعظامه. وينشأ عند رؤية العمل ودوام النظر إليه ومقارنته بعمل المقصرين من حوله،مما

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه،(٧/ ٣٠/ح٥١٩٢) .
(٢) أخرجه أحمد في المسند (١٨/ ٢٨٢/ح١١٧٥٩)، وأخرج نحوه ابن حبان في صحيحه(٨/ ٣٣٩/ ح٣٥٧٣)،والنسائي في السنن الكبرى(٣/ ٣٤٥/ح٢٨٩٢) وقال شعيب الارناؤوط: (إسناده صحيح) في مسند الإمام أحمد .
(٣) ينظر رد المحتار على الدر المختار لابن عابدين (٢/ ٤٣٠) ،والموسوعة الفقهية الكويتية (٣/ ١٦٣٧).
(٤) ينظر تفسير الطبري (٢٣/ ١٥)،وتفسير السمر قندي (٣/ ٥١٥)،والبحر المحيط في التفسير(١٠/ ٣٢٧).

يجعله يكبُر في عينه ويُدِل به،ويحسب أنه لا شك في ثوابه وعظيم أجره. قال ابن القيم : ((رِضَاءُ الْعَبْدِ بِطَاعَتِهِ دَلِيلٌ عَلَى حُسْنِ ظَنِّهِ بِنَفْسِهِ، وَجَهْلِهِ بِحُقُوقِ الْعُبُودِيَّةِ))[١] ولاشك أن هذا الأمر من أخطر الأمور وما خرج من خرج عن الدين من العباد والنسّاك إلا برؤية العمل والافتتان به ،فَذَنْبٌ تَذِلُّ به، أَحَبُّ إِلى الله من طَاعَةٍ تُدِلُّ بِهَا ، فرب طاعةٍ أورثت عُجباً واستكباراً فأدخلت صاحبها النار [٢]، لأنه اغتر بها وركن إليها، وربما قطع على الله عز وجل أنه سيدخله الجنة بسببها . ومن المعلوم أن الطاعات كلها لا تساوي نعمة واحدة من نعم الله عز وجل، بل هي من جُملة النعم فلا يغتر العبد بحسن عمله؛ فإن الله تعالى الذي مكّنه منها وسخر لها جوارحه وأصحّ له بدنه وهيأ له جميع السبل لأدائها ،فلا فضل له في هذه الطاعة قط، ولذلك فإن من عقيدة أهل السنة والجماعة: الرجاء لأهل الطاعة أن يُدخلهم الله الجنة، وحُسن الظن بالله تعالى أن يَلقى أهل طاعته بقبول حسن، فينبغي للمرء أن يحمد الله على التوفيق للطاعة ولا يستكثرها. وألا ينظر لأهل المعاصي بنظرة علوٍ أو تفضيل فرب معصيةٍ أدخلت صاحبَها الجنة وذلك لانكساره وذُله وندمه وتوبته بعد فعلها،أما إن مات ولم يتب منها فهو تحت المشيئة [٣].

---

(١) مدارج السالكين (١/ ١٩٢).
(٢) ينظر التيسير بشرح الجامع الصغير لزين الدين المناوي (١/ ٢٦٢) .
(٣) ينظر مدارج السالكين (١/ ٦٩) ،ومقاصد الرعاية لحقوق الله عز وجل للعز بن عبد السلام ص: ١٦٤ .

فالاغترار بالعمل والإدلال به على الله يفسده ،ويبطله فقد يغتر العبد بعمل معين فيفسده ،وقد يكون اغتراره بصلاحه ودينه وجميع أعماله فتكون الطامة الكبرى والعياذ بالله فيحبط جميع عمله.

١١- ترك صلاة العصر : وقد خصها الله تعالى بمزيد من الحثّ على المحافظة عليها والتخصيص إذْ قال :﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]. وقال النبي ﷺ: (مَن ترَكَ صلاةَ العصرِ فقد حَبِطَ عملُه) [١] .

وكذا من ترك فرضاً من الصلوات متهاوناً بغير عذر لحديث : (العَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلاَةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ) [٢] وإنما خصّ العصر لأنها الصلاة الوسطى،وأنها أحد البردين كما في قوله ﷺ: (مَـن صـلَّى البردَيـنِ دخَـل الجنـةَ) [٣]،وأنها مشهودة ولا يُتنفل بعدها [٤] . وقال ابن القيم في تعليقه على حديث صلاة العصر: " والذي يظهر في الحديث. والله أعلم بمراد رسوله أن

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/١١٥/ح٥٥٣) .
(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٥/١٣/ح٢٦٢١) ,وأخرجه ابن ماجة في السنن (١/٣٤٢/ح١٠٧٩)، وأحمد في المسند،مسند الأنصار ،حديث بريدة الأسلمي (٢٨/١١٥/ح٢٣٠٠٧) ،وقال الألباني (صحيح) في صحيح الترمذي.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه(١/١١٩/ح٥٧٤) .
(٤) ينظر الإقناع لابن المنذر (٢/٦٨٩) ،وشرح أبي داود للعيني (٢/ ٢٨١) .

الترك نوعان: ترك كليّ لا يصليها أبداً فهذا يحبط العمل جميعه وترك معين في يوم معين فهذا يحبط عمل ذلك اليوم فالحبوط العام في مقابلة الترك العام،والحبوط المعين في مقابلة الترك المعين»[١].

١٢ - من أمّ قوماً وهم له كارهون : وفي الحديث: (ثلاثةٌ لا تجاوِزُ صلاتُهم آذانَهُم : العبدُ الآبقُ حتَّى يرجِعَ ، وامرأةٌ باتت وزوجُها عليها ساخِطٌ ، وإمامُ قومٍ وَهُم لَه كارِهونَ)[٢].

قال أهل العلم: المراد بالإمامة هي الإمامة الكبرى وهي الحكم والسلطان ،وقيل: هي الإمامة في الصلاة والمعنى أنهم كَارِهُونَ لِبِدْعَتِهِ أَوْ فِسْقِهِ أَوْ جَهْلِهِ، أَمَّا إِذَا كانت الكَرَاهَةُ بِسَبَبِ أَمْرٍ دُنْيَوِيٍّ فَلاَ يُعتدّ بذلك . وفي شَرْحِ السُّنَّةِ أن المعنيّ بالحديث هو الإمام الظالم ، وَأَمَّا مَنْ أَقَامَ السُّنَّةَ فَاللَّوْمُ عَلَى مَنْ كَرِهَهُ، وَقِيلَ: هُوَ إِمَامُ الصَّلاَةِ وَلَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا[٣] وقَالَ أَحْمَدُ، - رَحِمَهُ اللَّهُ -: «إِذَا كَرِهَهُ وَاحِدٌ أَوْ اثْنَانِ أَوْ ثَلاَثَةٌ فَلاَ بَأْسَ، حَتَّى يَكْرَهَهُ أَكْثَرُ الْقَوْمِ، وَإِنْ كَانَ ذَا دِينٍ وَسُنَّةٍ فَكَرِهَهُ الْقَوْمُ لِذَلِكَ، لَمْ تُكْرَهْ إِمَامَتُهُ»[٤].

****

(١) الصلاة وأحكام تاركها لابن القيم ص: ٦٥.
(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢/ ١٩٣/ح ٣٦٠)،والبيهقي في السنن الكبرى(١/ ٥٧٣/ ح ١٨٣٠)،وابن أبي شيبة (٣/ ٥٥٨/ح١٧١٣٨)،وقال الألباني : (حسن) في صحيح الترمذي
(٣) ينظر مرقاة المفاتيح (٣/ ٨٦٥) .
(٤) المغني لابن قدامة (٢/ ١٦٩) .

مما سبق من أقوال العلماء نخلص إلى أن محبطات القبول ثلاثة مراتب:

أولا : حبوط كلي لجميع الأعمال ،وخلود أبدي وذلك لا يكون إلا بالخروج عن الملة.

ثانياً : حبوط جزئي ،بإبطال عمل بعينه أو فقد ثوابه مع إجزائه ،وذلك بسبب سيئات تحبط ما قابلها من حسنات وقد سبق ذكرها في محبطات عمل بعينه.

ثالثاً: حبوط مؤقت ،وهو ما يمكن أن يسمى بمؤخرات القبول وهو ما يكون في كبائر قد لا تكفرها الحسنات و تستوجب العقاب الأخروي عند عدم التوبة ولكن لا تحبط كلياً بقية أعماله بل يحسب ثوابها بعد انتهاء العقوبة إن لم يعف الله عنه.

قال تعالى:﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].فالمدخل الكريم هو مالا عذاب ولا حساب يسبقه والله أعلم.
وقال النبيﷺ: (الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمْعَةُ إِلَى الْجُمْعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ)(١). قال ابن تيمية "فَصَاحِبُ الْكَبِيرَةِ إِذَا أَتَى بِحَسَنَاتٍ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه(١/٢٠٩/ح٢٣٣).

يَبْتَغِي بِهَا رِضَا اللَّهِ أَثَابَهُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ مُسْتَحِقًّا لِلْعُقُوبَةِ عَلَى كَبِيرَتِهِ))[١].

وفي قوله ﷺ :(ما اجتنبت الكبائر) ((قيل: إن هذا شرط في تكفير الصغائر، فلا تكفر الصغائر إلا بشرط اجتناب الكبائر، ومنهم من قال: إنها تكفر ما بينها إلا الكبائر. أما الكبائر فإنها لا تغفر إلا بالتوبة النصوح، أو بالحدود المقدرة؛ فإن الحدود كفارات لأهلها، أو برجحان الحسنات، فقد يكون للعبد حسنات عظيمة ترجح بما عليه من سيئات هذا ما يتعلق بالكبائر.))[٢].

فقد تضمنت نصوص الوعيد في القرآن والسنة أنواعاً من العقوبة التي تنخلع لها القلوب،وترجف لهولها الأبدان، وذلك لمقترف الكبيرة كالخلود في النار، وتضمنت بعض النصوص في السنة نفي الإيمان عن صاحبها ،والبراءة بما أنزل على محمد ﷺ أو الوعيد بالنار أو اللعنة أوالغضب أو المقت أو السخط أو حبوط العمل أو ما شابه ذلك من ألفاظ وردت في الكتاب والسنة،ولكن ثمة موانع ذكرها الشارع نفسه وهي أن الإيمان بالله يقتضي منع الخلود .

فكفر صاحب الكبيرة كفر عملي لا اعتقادي[٣]وقد حمل العلماء الوعد بالخلود بسببها على المكث الطويل الذي لا يعلم مداه إلا الله ،وهو تعبير سائغ في كلام العرب وكما قال

(١) الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٥/٢٧٧).
(٢) شرح العقيدة الطحاوية للبراك ص: ٢٥٤.
(٣) ينظر موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية (١٠/٤١١).

تعالى:﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾[الأنعام: ١٢٨] ،فمن قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه يخرج ولو بعد حين [١] قال ابن كثير:((عَنْ خَالِدِ بْنِ مَعْدَان، وَالضَّحَّاكِ، وَقَتَادَةَ، وَأَبِي سِنَان، وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِم عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنِ أَيْضًا: أَنَّ الاِسْتِثْنَاءَ عَائِدٌ عَلَى العُصاة مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ، مِمَّنْ يُخْرِجُهُمُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ بِشَفَاعَةِ الشافعين))[٢].

فإن مات العبد على كبيرة أو إصرار على صغيرة ولم يتب منها فهو تحت المشيئة،إن شاء الله عفا عنه فدخل الجنة مع أول الداخلين ، وإن شاء آخذه على ذنبه فأخر دخوله ،فيعذب بقدر ذنوبه ثم يُدخل الجنة بعد ذلك فيكون من الجهنميين [٣] فيترتب على المؤاخذة العذاب والانتقام المستلزم لتأخير القبول حتى يلقى جزاء جُرمه وذلك بحسب عظم خطيئته . وهذا ما هو ما نسميه بمؤخرات القبول.

---

(١) ينظر مرقاة المفاتيح (٦/ ٢٢٦٢).
(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٣١٥).
(٣) وهم المعنيون في الحديث: (يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنَ النَّارِ بَعْدَ مَا مَسَّهُمْ مِنْهَا سَفْعٌ، فَيَدْخُلُونَ الجَنَّةَ، فَيُسَمِّيهِمْ أَهْلُ الجَنَّةِ: الجَهَنَّمِيِّينَ) جمع جهنمي نسبة إلى جهنم والمراد أنهم عتقاء الله تعالى، ثم يَدْعُونَ اللَّهَ فَيُذْهِبُ عَنْهُمْ هَذَا الِاسْمَ (فتح الباري (١١/ ٤٢٩/ح ٦٥٥٩) والحديث أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١١٥/ح ٦٥٥٩).

ثالثاً: مؤخرات القبول:

فالتصنيف بلفظ (مؤخرات القبول) هو باعتبار ما يستوجب تقديم المؤاخذة والعقاب يوم القيامة،فالقبول قبولان قبول مباشر لا عذاب معه ،وقبول مؤخر يسبقه مؤاخذة وعقاب،وقد تدخل في مؤخرات القبول بعض الأعمال المحبطة لعمل معين في المطلب الثاني من هذا الفصل كشرب الخمر لمن لم يتب منه قبل الموت .

فالقبول المؤخر يسبقه خوفٌ وحزن; خوفٌ من العقاب ،وتوجسٌ مما هم قادمون عليه،وحزنٌ تتقطع له قلوبهم حسرات على ما قدّموا وبارزوا الربّ جلّ وعلا بعظيم الجنايات،واحتمالية عذاب وهؤلاء هم أصحاب الكبائر كما ذكر سابقاً إن لم يتغمدهم الله برحمته ،وغيرهم من المصرين على الذنوب ،المنتهكين لحرمات الله ,ولم يتوبوا ولكنهم ماتوا على الإسلام. وقد كان السلف يقولون: النجاة من النار بعفو الله ودخول الجنة برحمته واقتسام المنازل والدرجات بالأعمال[1] .

ومن رحمة الله بالعبد أن وضع له مراحل متعددة يتدارك فيها خطيئته ويمحو من خلالها حوبته قبل العرض عليه ،حتى يطيب قلباً وقالباً ،فالله تعالى هو الطيب في ذاته وصفاته لا يقبل إلا طيباً ، ولا يُدخل جنّته إلا كل صَفيّ نقيّ ، وقد فصّل ابن القيم[2] في مدارجه تلك المراحل

(١) ينظر تفسير القرآن الكريم لابن القيم (١/ ٨٩) .
(٢) ينظر مدارج السالكين (١/ ١٦٢).

لحقيقة تمحيص العبد من الذنب وسبب تأخير القبول عنه .

وثمة تساؤل في قبول العمل وحبوطه لابد من إيجازه وبيان مشكلِه وهو هل يُعذر من اقترف ما يحبط العمل من كفرٍ أو فسق جهلاً منه ؟

والجواب كما بينه ابن تيمية رحمه الله أن الجهل قد يكون عذراً في بعض الأحوال والظروف وقد لا يُعذر الإنسان بجهله في أمور ،فمن قال أو فعل ما يُكفّر به فإن كان حديث عهد بإسلام،أونشأ في بيئة بعيدة عن الإسلام فلا يُكفّر حتى تقوم عليه الحجة ،أما من عاش في أحضان المسلمين وكانت تقام بين ظهرانيهم شرائع الدين فلا يُعذر بجهله[1].

وقال السيوطي: ((كُلُّ مَنْ جَهِلَ تَحْرِيمَ شَيْءٍ مِمَّا يَشْتَرِكُ فِيهِ غَالِبُ النَّاسِ لَمْ يُقْبَلْ ، إلَّا أَنْ يَكُونَ قَرِيبَ عَهْدٍ بِالْإِسْلَامِ، أَوْ نَشَأَ بِبَادِيَةٍ بَعِيدَةٍ يَخْفَى فِيهَا مِثْلُ ذَلِكَ: كَتَحْرِيمِ الزِّنَا، وَالْقَتْلِ، وَالسَّرِقَةِ وَالْخَمْرِ))[2].

يُنظَم ما سبق في ثلاث نقاط :

١-الإيمان مانع للخلود في النار .

٢-الجهل قد يمنع إنفاذ العقوبة ،في حال حداثة العهد بالإسلام أو العيش في بيئة بعيدة عنه.

---

(١) ينظر مجموع الفتاوى لابن تيمية (٣/ ٢٣١) .
(٢) الأشباه والنظائر للسيوطي ص: ٢٠٠.

٣- إقامة الحدّ فيما يقتضي ذلك مانع للعقوبة إلا لمن أقيم عليه الحدّ ولم تصدق توبته قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المائدة: ٣٣ – ٣٤].

ومؤخرات القبول كثيرة وهي موجبة للعقوبة إذا مات قبل التوبة منها إلا أن يعفو الله عنه،فهو تحت المشيئة ، ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر:

١- الغيبة والنميمة قال تعالى: ﴿وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ﴾[الحجرات: ١٢].

فالغيبة :كما عرّفها الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام فقال : (أتدرون ما الغيبةُ؟ قالوا : اللهُ ورسولُه أعلمُ . قال : ذكرُكَ أخاكَ بما يكرهُ ، قيل : أفرأيتَ إن كان في أخي ما أقولُ؟ قال : إن كان فيه ما تقولُ ، فقد اغتبتَه . وإن لم يكنْ فيه ، فقد بهتَّه) (١).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٠١/ح٢٥٨٩) .

أما النميمة: فهي نَقْلُ كَلامِ النَّاسِ بَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ عَلَى جِهَةِ الإِفْسَادِ بَيْنَهُمْ[(١)] قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١٠ - ١١]. وقال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

فهاتان الصفتان الذميمتان من الداء الذي تفشى بين كثير من الناس، يجلدون غيرهم بألسنة حداد، ويتلمّسون لهم المطاعن، ويتلقفون الخبَر عن أعراضهم يطيرون به يحدّثون الناس، ويتفكهون به في المجالس وكأنهم لم يقرأوا قول الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ﴾ [الهمزة: ١ - ٩]. قال أهل التفسير: الْهُمَزَةُ الَّذِي يَأْكُلُ لُحُومَ النَّاسِ وَيَغْتَابُهُمْ، واللمزة الطَّعَّانُ عَلَيْهِمْ. وقيل: الْهُمَزَةُ الَّذي يَهْمِزُ النَّاسَ بِيَدِهِ ويضربهم، واللمزة الَّذِي يَلْمِزُهُمْ بِلِسَانِهِ وَيَعِيبُهُمْ. وقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُمُ الْمَشَّاءُونَ بِالنَّمِيمَةِ الْمُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْأَحِبَّةِ الْبَاغُونَ

---

(١) ينظر تهذيب اللغة (١١/١٨٣)، والصحاح تاج اللغة (٥/٢٠٤٥)، وأساس البلاغة (٢/٣٠٦)، وشرح النووي على صحيح مسلم (٢/١١٢/ح١٠٥).

لِلْبُرَاءِ الْعَيْبَ (١)، وفي الحديث قِيلَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ فُلاَنَةً تَقُومُ اللَّيْلَ وَتَصُومُ النَّهَارَ، وَتَفْعَلُ، وَتَصَّدَّقُ، وَتُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لَا خَيْرَ فِيهَا، هِيَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ) ، قَالُوا: وَفُلاَنَةٌ تُصَلِّي الْمَكْتُوبَةَ، وَتَصَّدَّقُ بِأَثْوَارٍ، وَلَا تُؤْذِي أَحَدًا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (هِيَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ) (٢) فالغيبة والنميمة من الكبائر الموجبة للتوبة والمستحقة لعذاب القبر (٣)وسوء الخاتمة عياذا بالله لقول النبيﷺحينما مرّ بقبرين : (إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لاَ يَسْتَتِرُ مِنَ البَوْلِ، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ) (٤).وإن كان بقي من الحسنات مالم تفسده السيئات فإنها تُحسب بعد الخروج من النار لأنها من أهل التوحيد ولا يحبط العمل جميعه إلا الكفر. قال ابن تيمية : «وَلَا يُحْبِطُ جَمِيعَ الْحَسَنَاتِ إلَّا الْكُفْرُ. كَمَا لَا يُحْبِطُ جَمِيعَ السَّيِّئَاتِ إلَّا التَّوْبَةُ. فَصَاحِبُ الْكَبِيرَةِ» (٥).

(١) ينظر تفسير البغوي (٥/٣٠٣) ،وتفسير الطبري (٢٤/٥٩٧)،وتفسير السمعاني (٦/ ٢٨٠)،وتفسير ابن جزي(٢/٥١٢) .

(٢) أخرجه البخاري في الادب المفرد (١/٥٤/ح١١٩) وقال الألباني :(إسناده صحيح)في السلسلة الصحيحة (١/٨٦/ح٤٤٩) ومعنى الأثوار جمع ثور وهي القطعة ولعل المعنى يدلّ على قلة ما تتصدق به. ينظر النهاية في غريب الحديث والأثر (١/٢٢٨).

(٣) ينظر إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد للفوزان (١/٣٦٣).

(٤) ينظر الحديث بتمامه في صحيح البخاري (١/٥٣/ح٢١٨).

(٥) مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٠/٣٢٣).

وفي قوله تعالى في سورة الحجرات :﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾[آية : ١١] إشارة إلى أمرين: فالأول: إشارة إلى عمق أواصر الأخوة ،فلمز الشخص غيره في الحقيقة هو لمزٌ لنفسه وقدحٌ فيها. والثاني : أن مَن لمزَ غيرهُ لمزهُ الناس ولو بعد حين جزاءً وِفاقا(١) .

والنميمة من أسباب عذاب القبر ودخول النار و وتأخير القبول فصاحبها من شرار الناس عند الله،قال يَحْيَى بْنِ أَكْثَمَ(٢): النَّمَّامُ شَرٌّ مِنْ السَّاحِرِ يَعْمَلُ النَّمَّامُ فِي سَاعَةٍ مَا لَا يَعْمَلُهُ السَّاحِرُ فِي شَهْرٍ. وقيل عَمَلُ النَّمَّام أَضَرُّ مِنْ عَمَل الشَّيْطَانِ، لِأَنَّ عَمَلَ الشَّيْطَانِ بِالْخَيَالِ وَالْوَسْوَسَةِ. وَعَمَلَ النَّمَّام بِالْمُوَاجَهَةِ وَالْمُعَايَنَةِ(٣) .قال تعالى:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[النور: ١٩] وَإشاعتهم للفاحشة هو أَن بَعضهم كَانَ يلقى بَعْضاً فَيَقُول لَهُ: أما بلغك كذَا وَكذَا ..(٤) وهذا لا شك هو النمّ سواء

(١) انظر تفسير الطبري (٣/٥٤٨).
(٢) هو أبو محمد يحيى بن أكثم بن محمد بن قطن التميمي الأسيدي المروزي، وُلد في خلافة المهدي العباسي،وكان عالماً بالفقه بصيراً بالأحكام، ذكره الدارقطني في أصحاب الشافعي. كان على مذهب أهل السنة، سمع عبد الله بن المبارك وسفيان بن عيينة وغيرهما . ولي قضاء البصرة وسنه عشرون سنة ونحوها رحل في طلب الحديث، وروى عنه الترمذي والبخاري وأبو حاتم وآخرون، وكان من أئمة الاجتهاد. ٢٤٢هـ ينظر وفيات الأعيان (٦/١٦٤)،وتاريخ بغداد (١٤/٢٠١).
(٣) ينظر تنبيه الغافلين بأحاديث سيد الأنبياء والمرسلين للسمر قندي ص: ١٧١ .
(٤) ينظر تفسير السمعاني (٣/٥١٢)،وتفسير السعدي ص: ٥٦٣.

كان الخبر صحيحاً أو كاذباً فإن في نشره إشاعة للفاحشة وإضرار بالعباد وقال النبيﷺ : (أَفَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِشِرَارِكُمْ؟) قَالُوا: بَلَى، قَالَ: (الْمَشَّاؤُونَ بِالنَّمِيمَةِ، الْمُفْسِدُونَ بَيْنَ الْأَحِبَّةِ، الْبَاغُونَ الْبُرَآءَ الْعَنَتَ) (١) والبرآء جمع بريء والمراد طلب المشقة والهلاك للبريء (٢). وفي الحديث أنه ﷺمَرَّ بِقَبْرَيْنِ فَقَالَ: (إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لاَ يَسْتَتِرُ مِنَ الْبَوْلِ، وَأَمَّاالآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ) (٣).وقال ﷺ : (لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ قَتَّاتٌ) (٤) والقتات هو النمّام(٥) كما فسرتها رواية مسلم (لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَّامٌ) (٦)،والمعنى أي لا يدخلها مع أول الداخلين بل بعد استيفاء العقوبة فقد يدخل بسببها النار حتى يستوفي ما عليه منها نسأل الله السلامة (٧).

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١/١١٩/ح٣٢٣) ،وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٢٤٦).
(٢) ينظر مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣٠٥٥/٧/ح٤٨٧٢) .
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ،كتاب الوضوء ،باب ما جاء في غسل البول (١/٥٣/ح٢١٨) ،وأخرج نحوه مسلم في صحيحه (١/٢٤٠/ح٢٩٢).
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/١٧/ح٦٠٥٦) . ورواه مسلم في صحيحه (١/١٠١/ح١٦٩).
(٥) ينظر التعريفات للجرجاني (١/١٧٢).
(٦) أخرجه مسلم في صحيحه (١/١٠١/ح١٦٨) .
(٧) ينظر تسهيل العقيدة لعبد الله الجبرين ص:٢٨.

٢- قذف المحصنات :

والقَذْفُ كما عرّفه ابن القيم: ((هو الرمي بوطء،أو نفي نسب،موجب للحدّ فيهما))(١). والقذف كبيرة من الكبائر، ومن أعظمه جرماً اتهام المؤمنات العفيفات،وعدم التحرّج من بسط اللسان بالسوء،وقذف التُّهم وفاحش القول للمحصنات البريئات بجرأة وعدم اكتراث قال تعالى:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [النور: ٢٣].

تتسنّم هذه الآية الذروة في التهويل والتعظيم لكبيرة الإقدام على رمي المحصنات باللعنة في الدنيا بإقامة الحدّ عليهم،والحرمان من رحمة الله وتوفيقه،ثم ما يلحقهم يوم القيامة من لعنة الطرد إلى جهنم وبئس المصير حتى يستوفوا ما بقي لهم من لعنات. وقال جلّ شأنه:﴿إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ﴾[النور: ١٥]. و في قوله تعالى:﴿وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ﴾ فما استعظمه الله تعالى إلا لشناعته،وعظيم قبحه،والأمر في قذف الرجال والنساء سواء ولكن خصّ النساء لضعفهن،وحيائهن،ففيه تحذير

(١) ينظر الحدود و التعزيرات عند ابن القيم ص: ١٩٨.

لهؤلاء الذين يستخفّون بأعراض المسلمين،وينـفقون من رصيد ألسنـتهم بغير حساب،فالكلمة في حساب المبطلين، والمفسدين، وأصحاب النفوس المريضة، والعقول الفارغة، شيء رخيص، لا وزن له ولا ثمن . لذلك ما أكثر ما تنطق به أفواههم،وتَنفثُهُ نفوسهم ثم يكونون مع حَصاد ألسنتهم في نار جهنم إن لم يتداركهم الله برحمته [١].

وقال عليه الصلاة والسلام :(اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الغَافِلاَتِ) [٢].

٣- التولي يوم الزحف: وهو الفرار من القتال الدائر بين المسـلمين والكفار في ساحة المعـركة وعند ازدحام الطائـفتين قال تعـالى:﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[الأنفال:١٦] قال النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ) وعدّ منها التولي يوم الزحف [٣].فالفرار كبيرة موبقة بظاهر القرآن والسنة.

(١) ينظر في ظلال القرآن (٤/٢٥٠٣) ،والتفسير القرآني (٩/١٢٤٣).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/١٥٧/ح ٦٨٥٧).
(٣) ينظر الحديث بتمامه في صحيح البخاري (٤/١٠/ح٢٧٦٦).

وهو مقيد بشروط فإن كان العدو ضعف عدد المؤمنين فَالْفَرْضُ أَلَّا يَفِرُّوا أَمَامَهُمْ. فَمَنْ فَرَّ مِنَ اثْنَيْنِ فَهُوَ فَارٌّ مِنَ الزَّحْفِ. وإن كان عدد العدو ضعفي عدد المؤمنين كمن فَرَّ مِنْ ثَلاثَةٍ فَلَيْسَ بِفَارٍّ مِنَ الزَّحْفِ، وَلَا يَتَوَجَّهُ عَلَيْهِ الْوَعِيدُ[1].

٤- التألي على الله:

والتألي في اللغة هو الحلف و الإقسام على الله[2].

والتألي على الله يحبط العمل ويبطله لأن فيه تدخلاً من العبد فيما ليس له وادعاء ما لا يعلمه.

---

(١) ينظر تفسير القرطبي (٧/ ٣٨٠).
(٢) القسم على الله على قسمين: جائز وممنوع:
١. أما الممنوع فهو ما كان في مقام التألِّي على الله – سبحانه – بدافع الجهل، والتكبر، والعُجب، والخِفَّة، والطيش. وقد ثبت فيه عن النبي من حديث جندب – رضي الله عنه – أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَدَّثَ –: (أَنَّ رَجُلاً قَالَ: وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ، فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلَانٍ، وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ) أخرجه مسلم في صحيحه،كتاب البر والصلة ،باب النهي عن تقنيط الإنسان من رحمة الله تعالى (٤/٢٠٢٣/ح ٢٦٢١).
٢. وأما الجائز، فهو من المسلم القانت لربه، الواثق بعطائه، المؤمن بقدره.
ويدُلُّ عليه حديث: (إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره، منهم: البراء بن معرور) (ينظر معجم المناهي اللفظية ص: ٥٣٧). ومن هذا قول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى – في بعض مغازيه لننتصِرَنَّ، فقيل له: قل: إن شاء الله، فقال: إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً.

قال تعالى:﴿أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾[الأعراف: ٤٩].قال الطبري في تفسير الآية :" أَيُّهَا الْجَبَابِرَةُ الَّذِينَ كَانُوا فِي الدُّنْيَا، أَهَؤُلَاءِ الضُّعَفَاءُ الَّذِينَ كُنْتُمْ فِي الدُّنْيَا أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ؟ قَالَ: قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ وَرَحِمْتُهُمْ بِفَضْلِي وَرَحْمَتِي، ادْخُلُوا يَا أَصْحَابَ الْأَعْرَافِ الْجَنَّةَ، لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ بَعْدَهَا مِنْ عُقُوبَةٍ تُعَاقَبُونَ بِهَا عَلَى مَا سَلَفَ مِنْكُمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْآثَامِ وَالْإِجْرَامِ" (١)

فهؤلاء يتألَّون على الله ويقسمون بعدم حصول الرحمة لأهل الأعراف .

وقد ذكر الله تعالى تألي اليهود ونقمته عليهم كقوله عنهم:﴿سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾[الأعراف: ١٦٩] وقوله تعالى عنهم :﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةًۚ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدًا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾[البقرة: ٨٠] ،وهو تحكّم في ما هو من اختصاص الخالق،وتدخل في صفة الألوهية والربوبية بأن يقول فلان في الجنة وفلان في النار،وهذا يغفر الله له وهذا لا يغفر له. وينافي العبودية لله،وقد ذكر الله تعالى تألي المشركين كذلك إذ قال عز من قائل:﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَۚ وَتَصِفُ أَلۡسِنَتُهُمُ ٱلۡكَذِبَ

(١) تفسير الطبري (١٠/ ٢٣٤).

﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰۚ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾[النحل: ٦٢][(١)] فهم مع تفريطهم في حق الله يقطعون بأن لهم الجنة فردّ الله عليهم بأن لهم النار مآلهم ومآل أمثالهم من المفرطين .

وذكر تألي صاحب الجنة فقال :﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾[الكهف: ٣٦].

عن ضمضم اليمامي[(٢)] قال : قال لي أَبو هُرَيْرَةَ: يا يَمامِيُّ، لا تقولَنَّ لِرَجُلٍ: وَاللهِ لا يَغْفِرُ اللهُ لك، أو لا يُدْخِلُكَ اللهُ الجَنَّة أَبدًا. قلتُ: يا أَبا هُرَيْرَةَ، إِنَّ هَذِهِ لكَلِمَةٌ يَقولُها أَحَدُنا لأَخيهِ وَصاحِبِهِ إِذا غَضِبَ. قال: فَلا تَقُلْها، فإِنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يَقولُ: (كان في بني إِسْرائيلَ رَجُلانِ، كان أَحَدُهُما مُجْتَهِدًا في الْعِبادَةِ، وكانَ الآخَرُ مُسْرِفًا على نَفْسِهِ، فكانا مُتَآخِيَيْنِ، فكان المجتهدُ لا يزالُ يَرى الآخَرَ على ذَنْبٍ، فَيَقولُ: يا هَذا، أَقْصِرْ. فَيَقولُ: خَلِّني وَرَبِّي، أَبُعِثْتَ عليَّ رَقيبًا؟ قَالَ: إِلى أَن رَآهُ يَوْمًا على ذَنْبٍ اسْتَعْظَمَهُ، فقالَ لهُ: وَيْحَكَ، أَقْصِرْ. قال:

---

(١) وَفِي الْحسنى قَولَانِ: أَحدهمَا: أَنَّهَا البنون أي جعلوا لهم البنون والبنات لله ، وَالْآخر: أَنَّهَا الْجنَّة أي قطعوا وجزموا بأن مآلهم إليها ينظر تفسير السمعاني (٣/ ١٨٢).

(٢) هو ضمضم بن الحارث بن جوس الهفاني اليمامي ،رَوَى عَن: عَبد اللَّهِ بْن حنظلة بن الراهب الأَنْصاريّ. وأبي هُرَيْرة رضي الله عنه ،وغيرهم قال صالح بن أحمد بن حنبل، عَن أبيه: ليس بِهِ بأس.وذكره ابنُ حِبَّان في كتاب (الثقات) ينظر تهذيب الكمال(١٣/ ٣٢٣).

خَلِّنِي وَرَبِّي، أَبُعِثْتَ عليَّ رقيبًا ، قال: فقال: وَاللهِ لا يَغْفِرُ اللهُ لك، أَو لا يُدْخِلُكَ اللهُ الجَنَّةَ أَبَدًا. قال أَحَدُهُما، قال: فبعث اللهُ إِلَيهِما مَلكًا، فقبض أَرْوَاحَهُما، واجْتَمَعا عندَهُ، فقال لِلْمُذْنِبِ: اذْهَبْ فادْخُلِ الجَنَّةَ برَحْمَتِي. وقال لِلآخَرِ: أَكُنْتَ بي عالِمًا، أَكُنْتَ على ما في يَدِي قادِرًا، اذْهَبُوا بهِ إِلَى النَّارِ . قال: فوالَّذي نفسُ أبي الْقَاسمِ بِيَدِهِ، لَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْياهُ وَآخِرَتَهُ)[١].فهذا الرجل استوجب النار ،وبطل عمله، بسبب الكلمة التي قال وهي قوله: ((والله لا يغفر الله لفلان))[٢].

٥- قتل النفس : (الانتحار):

قتل النفس من الأمور المحرمة في الإسلام وكبيرة من الكبائر ،ومن دلائل سوء الخاتمة لأن صاحبها لقي الله عاصياً ،فاعلاً لما حذره منه ،معرّضاً نفسه لعقوبته فهو تحت المشيئة،إلا أن يكون جاهلاً بالحكم في بيئة جاهلية بعيدة عن الإسلام فعسى أن يعفو الله عنه لأنه لم يبلغه العلم بما جهل[٣] قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ

(١) أخرجه أحمد في المسند (١٤/٤٧/ح٨٢٩٢) ،وأبي داود في السنن(٤/٢٧٥/ح٤٩٠١) ،وابن حبان في صحيحه (١٣/ ٢٠/ح ٥٧١١) ،وصححه الألباني في صحيح بن حبان.

(٢) ينظر التوضيح المفيد لمسائل كتاب التوحيد ص: ٢٥٠.

(٣) ينظر الإيمان حقيقته، خوارمه، نواقضه عند أهل السنة والجماعة لعبد الله الأثري ص: ٢٦٤.

عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾[النساء] قيل :أي لا تقتلوا أنفسكم أو تعرضوها لحدّ القتل ولا يقتل بعضكم بعضاً [(١)] وكما قال تعالى :﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾[البقرة: ١٩٥]. وفي الانتحار إظهارٌ للجزع ،واعتراض على قدر الله ،وعدم الرضا والتسليم لحكمه .

قال النبي ﷺ : (كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ بِهِ جُرْحٌ، فَجَزِعَ، فَأَخَذَ سِكِّينًا فَحَزَّ بِهَا يَدَهُ، فَمَا رَقَأَ الدَّمُ حَتَّى مَاتَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: بَادَرَنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ، حَرَّمْتُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ) [(٢)].

وقال الرسول عليه الصلاة والسلام : (مَنْ تَرَدَّى مِنْ جبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى فِيهِ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَحَسَّى سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ، فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَجَأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا) [(٣)].

٦- قتل النفس المؤمنة بغير حق[(٤)] قال تعالى ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[النساء: ٩٣]. سبق القول

---

(١) ينظر تفسير البحر المحيط (٣/ ٦١١)،واللباب في علوم الكتاب (٦/ ٣٣٧).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه(٤/ ١٧٠/ ح٣٤٦٣).
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٧/ ١٣٩/ ح٥٧٧٨) .
(٤) ورد التغليظ الشديد في قتل النفس المؤمنة ،ولاشك في حرمة قتل أي نفس بغير حق وإن لم تكن مؤمنة وهو ليس مجال البحث ينظر موسوعة مسائل الجمهور في الفقه الإسلامي (٢/ ٧٩٩).

على أن الخلود محمول على طول المكث،وعلى الجزاء المستحق ،لأن الله تعالى رفع حكم الخلود في النار عن الموحدين ،فقتل النفس من أشنع الكبائر التي قال فيها النبي ﷺ: (لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ قَتْلِ مُؤْمِنٍ بِغَيْرِ حَقٍّ)[١] . بل إن حُرمة النفس المؤمنة أشد عند الله من حُرمة الكعبة المشرفة دمه وماله وعرضه ،فقد نَظَر رسول الله ﷺ يوماً إلى الكعبة فقال: (مرحبًا بكِ من بَيْتٍ، ما أَعْظَمَكِ ، وأَعْظَمَ حُرْمَتَكِ ! ولَلْمُؤْمِنُ أَعظَمُ حُرْمَةً عندَ اللهِ مِنْكِ ، إنَّ اللهَ حَرَّمَ مِنْكِ واحدةً ، وحَرَّمَ مِنَ المُؤْمِنِ ثَلاثًا : دَمَهُ، ومالهُ ، وأنْ يُظَنَّ بهِ ظَنَّ السَّوْءِ) [٢].وفي رواية (وعِرْضه) .

٧- البغي وقطع الأرحام: قطع الرحم والإفساد والظلم ملعون صاحبه في كتاب الله قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾[محمد: ٢٢-٢٣] و قاطع الرحم يُعجّل له من العقوبة في الدنيا مع ما ينتظره في الآخرة ،قال رسول الله ﷺ:

---

(١)أخرجه ابن ماجة في السنن(**٣/٦٣٩/ح٢٦١٩**) ،.وقال الأرناؤوط : (إسناده صحيح) في سنن ابن ماجة ،وروى نحوه البزار في مسنده،مسند عبد الله بن عمرو بن العاص (**٦/٣٧٥/ح٢٣٩٣**)،والبيهقي في شعب الإيمان ،تحريم النفوس والجنايات عليها (**٧/٢٥٥/ح٤٩٦٠**).

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (**٩/٧٥/ح٦٢٨٠**) وذكره الألباني في الصحيحة (**٧/١٢٤٨/ح٣٤٢٠**) وقال :(إسناده حسن ورجاله ثقات).

(مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللَّهُ لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا،مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ،مِنْ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ)[(١)] وقاطع الرحم لا يرفع له عمل قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ أَعْمَالَ بَنِي آدَمَ تُعْرَضُ كُلَّ خَمِيسٍ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ، فَلاَ يُقْبَلُ عَمَلُ قَاطِعِ رَحِمٍ)[(٢)] والحكم بعدم القبول يُحمل على عدم قبوله للعرض يوم الخميس وقد لا يثاب عليه لكنه صحيح يجزؤه[(٣)] .

وقال رسول الله ﷺ :(لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ قَاطِعٌ) [(٤)] والحرمان من دخول الجنة يُحمل على عدم الدخول مع أول الداخلين ،فهو مهدد ومتوعد باللعنة وعدم دخول الجنة وهذا يدلّ على تأخير أعماله حتى يستوفي العقوبة إن لم يعف الله عنه.فاللعن والطرد من رحمة الله للظالم والقاطع وغيره إن كان من أهل الإسلام فهو طرد مؤقت حتى يستوفي العقوبة عياذا بالله.

٨ – من أحدث أو آوى محدثاً في المدينة أو أراد أهلها بسوء: ففي قوله تعالى :﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾[البقرة: ١٢٦] وحيث أن إبراهيم دعا لمكة بالأمن والتحريم فقد دعا رسول الله ﷺللمدينة بمثل ما دعا إبراهيم لمكة. ومثله معه. فأجابه

(١) أخرجه ابن ماجة في السنن(٥/٢٩٦/ح٤٢١١) وصححه شعيب الأرناؤوط
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٦/١٩١/١٠٢٧٢) وقال الأرناؤوط :إسناده حسن.
(٣) انظر السراج المنير شرح الجامع الصغير (٢/ ٨٠) وفيض القدير (٢/ ٤٢٦) .
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ٦٢/ ٢٣٠٨).

اللهُ. وحرم ما بين لابتَيْها [١] فقال : (اللهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ فَجَعَلَهَا حَرَمًا، وَإِنِّي حَرَّمْتُ الْمَدِينَةَ حَرَامًا مَا بَيْنَ مَأْزِمَيْهَا، أَنْ لَا يُهْرَاقَ فِيهَا دَمٌ، وَلَا يُحْمَلَ فِيهَا سِلاَحٌ لِقِتَالٍ، ...) [٢].

وقال رسول الله ﷺ : (الْمَدِينَةُ حَرَمٌ مَا بَيْنَ عَيْرٍ إِلَى ثَوْرٍ، فَمَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا، أَوْ آوَى مُحْدِثًا، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لاَ يُقْبَلُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفٌ وَلاَ عَدْلٌ) [٣]

قال العلماء في معنى الصرف والعدل ثَلاَثَة أَقْوَال:

أَحدهَا: أَن الصّرْف: التَّوْبَة، وَالْعدْل: الْفِدْيَة.

وَالثَّانِي: أَن الصّرْف: النَّافِلَة، وَالْعدْل: الْفَرِيضَة. وهو قول الجمهور.

وَالثَّالِث: الصّرْف: الِاكْتِسَاب. وَالْعدْل: الْفِدْيَة.

والْمَعْنَى أن من ابتدع فيها بدعة في الدين أو نصر المحدث أو آواه أو أجاره فلاَ تُقْبَلُ فَرِيضَتُهُ وَلَا نَافِلَتُهُ قَبُولَ رِضًا وَإِنْ قُبِلَتْ قَبُولَ إِجْزَاءٍ وَقِيلَ يَكُونُ الْقَبُولُ هُنَا بِمَعْنَى لا يكون تَكْفِيرِ الذَّنْبِ بِهِمَا،أي لا ثواب فيهما. وَ قيل في مَعْنَى الْفِدْيَةِ هُنَا أَنَّهُ لَا يَجِدُ ما يفتدي به من ذنبه يوم القيامة

(١) تفسير القاسمي (١/١٣٦) ,وتفسير الطبري (٢/٥٤٠)،وتفسير ابن كثير (١/٤٢٢) . ولابتاها أي حرتَاها .
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢/١٠٠١/ح١٣٧٤) .
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/١٥٤/ح٦٧٥٥) .

بِخِلاَفِ غَيْرِهِ مِنَ الْمُذْنِبِينَ الَّذِينَ قد يَتَفَضَّلُ اللَّهُ عز وجلّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْهُمْ بِأَنْ يَفْدِيَهُ مِنَ النَّارِ[١].

ومن تحريم المدينة تغليظ عقوبة من أخاف أهلها قال ﷺ: (مَنْ أَخَافَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ أَخَافَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ اللهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا)[٢].أي من تسبب لإحداث أذى للمسلمين فيها ، بظلم أهلها،أوحربهم،أهلكه الله في الدنيا ولم يتقبله في الآخرة في أول من تقبّل إلا أن يعفو عنه سبحانه .

٩- من ادعي إلى غير أبيه: ومن الذين غلظ الشارع العقوبة لهم من انتسب إلى غير أبيه عامداً لما في ذلك من اختلاط الأنساب ،وضياع الحقوق والمواريث ،وفيه قطيعة للرحم وعقوق للوالد المتبرأ من الانتساب إليه قال تعالى :﴿ٱدْعُوهُمْ لِأَبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾[الأحزاب:٥] وقال ﷺ: (وَمَنِ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ، أَوْ تَوَلَّى غَيْرَ مَوَالِيهِ، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ

---

(١) ينظر كشف المشكل من حديث الصحيحين لابن الجوزي(١/١٩٥/ح١٣٣) ،والمنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووي (٩/١٤١/ح١٣٦٦) ،وإرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٩/٤٤١/ح٦٧٥٥).

(٢) أخرجه أحمد في المسند(٢٧/٩٤/ح١٦٥٥٩) ,وقال الأرناؤوط : (إسناده صحيح) ،وأخرج نحوه النسائي في السنن الكبرى(٤/٢٥٣/ح ٤٢٥١) ، وابن أبي شيبة في مصنفه (٦/٤٠٦/ح٣٢٤٢٧) ،وذكره الألباني في الصحيحة (٦/٥٦١/ح٣٧٣) .

أَجْمَعِينَ، لَايُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ - أَوْ قَالَ: عَدْلٌ وَلَا صَرْفٌ)[١]. وفي الصحيحين: (لَيْسَ مِنْ رَجُلٍ ادَّعَى لِغَيْرِ أَبِيهِ - وَهُوَ يَعْلَمُهُ - إِلَّا كَفَرَ، وَمَنِ ادَّعَى قَوْمًا لَيْسَ لَهُ فِيهِمْ، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ)[٢] والكُفر هنا كما سبق بيانه أنه لا يدخل في الاعتقاد فهو غير مخرج عن الملة.

١٠ - التقوّل على الله أو رسوله أو دينه بغير عِلم :

قال تعالى:﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾ [غافر:٣٥] قال المفسرون :يجادلون بغير حجة ولا برهان ،فيكذّبون آيات الله ويجحدونها،فكبر جدالهم مقتاً لهم من الله،وجزاؤهم الطبع على قلوبهم وهو الختم بالكفر والضلالة [٣]. ويشتمل ذلك على التقول على الرسول الكريم والجرأة على الدين فكلها فرع عن التقول

---

(١) جزء من حديث أخرجه ابن ماجة في السنن (٢/٩٠٥/ح٢٧١٢)،وأبي داود في مسنده (٢/٥٤٣/ ح١٣١٣) ،والدارمي في السنن (٤/١٨٩١/ح٢٩٠٦) ،وقال الألباني :(صحيح) في صحيح ابن ماجة .
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/١٨٠/ح٣٥٠٨) ،وأخرج نحوه مسلم في صحيحه (١/٧٩/ح٦١).
(٣)ينظر تفسير الخازن (٤/٧٤)،وتفسير السمرقندي(٣/٢٠٥)،والتفسير الوسيط للواحدي (٤/١٢).

على الله وقد قال الرسول ﷺ: (مَــنْ يَقُــلْ عَــلَيَّ مَــا لَمْ أَقُــلْ فَلْيَتَبَــوَّأْ مَقْعَــدَهُ مِــنَ النَّــارِ) [١].

وقال تعالى:﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾[النحل: ١١٦].

فالتقوّل على الله ورسوله ،من أقبح أعمال الشرّ التي لا يقبلها الله ،ويكبُر مقته عليها ، وقد حذر المولى سبحانه في محكم كتابه من مغبّة ادعاء ما ليس للإنسان به علم فقال جلّ من قائل: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[الإسراء: ٣٦]. وقال الرسول ﷺ لمعاذ حينما سأله قائلاً : يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ قَالَ: (ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ وَهَلْ يُكِبُّ النَّاسَ عَلَى وُجُوهِهِمْ فِي النَّارِ، إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ) [٢].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه(١/٣٣/ح١٠٩) ،وأخرجه مسلم في صحيحه بلفظ (من كذب علي ...) مقدمة الإمام مسلم ،باب في التحذير من الكذب على رسول الله (١/١٠/ح٣).

(٢) أخرجه ابن ماجة في السنن (٢/١٣١٤/ح٣٩٧٣)،،وأحمد في المسند (٣٦/٣٤٥/ح٢٢٠١٦)،والترمذي في السنن (٥/١٢/ح ٢٦١٦)،والبيهقي في الشعب (٤/٢٩٩/ح٢٥٤٩)،والطبراني في المعجم الكبير (٢٠/٧٣/ح١٣٧)،وقال الألباني : (صحيح) في صحيح ابن ماجة.

وهنا أمرٌ ينبغي التفطّن إليه ،والتنبّه له فكم من متساهل ومترخّص في التقول على الله،وكم ممن طعن في الكتاب والسنة إما بجهل حائر،أو بسوء قصد جائر، أو بمجرد الرأي وادعاء العقل والمنــطق ممن امتلأت بهم الصحف والكتــب ووسائل الاتــصال،قال أبــو بــكر الصديق رضي الله عنه: « أَيُّ أَرْضٍ تُقِلُّنِي، وَأَيُّ سَمَاءٍ تُظِلُّنِي، إِذَا قُلْتُ عَلَى اللهِ مَا لاَ أَعْلَمُ» [١] وقال القاسم بن محمد[٢] : «مَا نَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا يَسْأَلُونَا عَنْهُ، وَلأَنْ يَعِيشَ الْمَرْءُ جَاهِلاً، إِلاَّ أَنَّهُ يَعْلَمُ مَا افْتَرَضَ اللهُ عَلَيْهِ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَقُولَ عَلَى اللهِ بِمَا لاَ يَعْلَم»[٣] .

فخير للمرء أن يتوقف حيث وقــف به علمه ،وألا يتجاوز في التــقول على الله،وادعــاء ما ليس له به علم. وأن يسلّم بالعقل ما ثبت بالنقل .

(١) أخرجه مالك في الموطأ(٢/١٦٦/ح٢٠٧٩) ورواه البيهقي في الشعب (٣/٥٤٠/ح٢٠٨٢),وابن أبي شيبة في مصنفه (٦/١٣٦/ح٣٠١٠٧).

(٢) هو القاسم بن مُحَمَّد بن أَبِي بكر الصديق القرشي التَّيْمِيّ ، أبو مُحَمَّد، ويُقال: أبو عَبْد الرَّحْمَنِ المدني تابعي جليل روى عن كثير من الصحابة وكان ثقة، وكان رفيعا، عالما، فقيها، إماما، ورعا، كثير الحديث. قليل الفتيا مات في ولاية يزيد بْن عَبد المَلِك بعد عُمَر بْن عَبْدِ الْعَزِيز سنة إحدى أو اثنتين ومئة. ينظر تهذيب الكمال (٣٣/٤٣٥).

(٣) أخرجه مالك في الموطأ (٢/١٦٦/ح٢٠٨٠).

١١- معاصي الخلوات : ويندرج مع المنافقين أصحاب المعاصي في الخلوات فمعاصي الخلوات نفاق أصغر قال شيخ الإسلام: " وَالنِّفَاقُ يُطْلَقُ عَلَى النِّفَاقِ الْأَكْبَرِ الَّذِي هُوَ إضْمَارُ الْكُفْرِ وَعَلَى النِّفَاقِ الْأَصْغَرِ الَّذِي هُوَ اخْتِلَافُ السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ فِي الْوَاجِبَاتِ"(١). ولا ريب أن اتقاء الله في السرّ من أوجب الواجبات ،وأصحاب تلك المعاصي يخشون الناس،ولا يخشون الله تعالى،فيظهِرون أمامهم الصلاح ويتظاهرون بالتقوى ،وإذا غابوا عن أعين الناس في خلواتهم انتهكوا حُرمات الله وأخفوا فسقاً و معصية فكانت خشيتهم للناس أشدّ ،فهم على شعبة من النفاق ،وهي من الأمور التي تجلب سخط الرب سبحانه وتعالى وقد تُحبط العمل،وقد ذم الله تعالى المنافقين وأظهر قبيح فعلهم فقال :﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾[النساء: ١٠٨] يستخفون بقبائحهم ، وطيش مسالكهم، من الناس لئلا ينكروا عليهم ، أو حياء أن تظهر صورهم الشائهة، وتُرى للناس عيبتهم ، ولا يستحيون من الله المطلع على حقيقة سرائرهم ،وهو الأحق أن يستحيا منه،ولا شك أن الاسترسال في معاصي الخلوات يرمي بصاحبه في مطارحَ غير محمودة العاقبة وهو الذي حذّر منه الرسول ﷺ بقوله : (لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (١١/ ١٤٠).

أَمْثَــالِ جِبَــالِ تِهَامَــةَ بِيضًــا، فَيَجْعَلُهَــا اللهُ عَــزَّ وَجَــلَّ هَبَــاءً مَنْثُــورًا) ، قَالَ ثَوْبَانُ[١]: يَارَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ، قَالَ: (أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا)[٢].

وبالجملة فإن كل سيئة إنما هي محبطةٌ لحسنة إلا أن يعفوَ الله عن صاحبها أو يستغفر ويتوب فتمحى عنه قال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥] وكما أن الحسنات يذهبن السيئات كما قال تعالى:﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾[هود: ١١٤] فإن كل سيئة مذهبة

(١) هو أبو عبد الله ثوبان بْن بجدد وقيل: ابن جحدر ،من حمير من اليمن، وقيل هو من السراة، موضع بين مكة واليمن، أصابه النبي عليه الصلاة والسلام سباء فاشتراه فأعتقه، وقال له: (إن شئت أن تلحق بمن أنت منهم، وَإِن شئت أن تكون منا أهل البيت) فثبت على ولاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يزل معه سفرًا وحضرًا وروى عَن النَّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحاديث ذوات عدد، وشهد فتح مصر ،توفي بحمص سنة أربع وخمسين. ينظر أسد الغابة (١/٢٩٥-٢٩٦).

(٢) أخرجه ابن ماجة في السنن (٢/١٤١٨/ح٤٢٤٥)،والطبراني في مسند الشاميين (١/٣٩٣/ح٦٨٠) ،وقال الألباني : (صحيح) في صحيح ابن ماجة .

لحسنة كذلك قال ابن القيم رحمه الله : ((قد دل القرآن والسنة والمنقول عن الصحابة أن السيئات تحبط الحسنات،كما أن الحسنات يذهبن السيئات. .. وآيات الموازنة في القرآن تدل على أن السيــئة تذهـب بحسنة أكبر منها،فالحسـنة يحبط أجرها بسيئة أكبر منها))(١).

ولذلك قال النبي ﷺ: (أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟) قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: (إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ)(٢). فهو يُطرح في النار حتى استيفاء عقوبته ولا يخلّد ما دام على الإيمان.

وهكذا الأمر في حال الذنوب والخطايا المستلزمة للوعيد كأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ ، وَإِلْحَادٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وعقوق الوالدين ،وإخفار ذمة المسلم وغير ذلك.

****

(١) الصلاة وأحكام تاركها ص: ٦٥ .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/١٩٩٧/ح٢٥٨١) .

الفصل الثاني

أسماء وسمات ومنازل المقبولين

أولا: أسماء بعض المقبولين الواردة في القرآن

إنّ من سعادة المرء توفيق الله له،والتزامه الصراط المستقيم ،وتمسكه بحبل الله المتين ،وإنما يحصل ذلك بالإيمان بالله والتصديق برسوله الكريم ،فالمقبولون فئة مَنّ الله عليهم بالرضا وأذن لهم بالوصول ،بعد أن قطعت قلوبهم إلى مرضاته وعْر المسالك ،وبقيت في رحابه تجول، ففتح لهم أبواب فضله ورحمته وشرّفهم بالدخول،وأضفى على قلوبهم ظلال الإيمان، وبرد اليقين ،وصفوَ الطُهر وخمائل السكينة ،وأسبغ عليهم لباس شكره ،واللهج بذكره ،وامتثال نهيه وأمره ،وهم درجات متفاوتون ،وقد أثنى عليهم الله جل وعلا في القرآن الكريم،وبشّرت بأفراد منهم السنة المطهرة وهم فئات متعددة ،ودرجات بعضها فوق بعض ،فمنهم الأنبياء والرسل ،والأولياء والصديقون والشهداء ،ومنهم الصحابة والصالحون وأذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر أسماء بعض الأنبياء والأولياء والصحابة رضوان الله عليهم.

****

أسماء بعض الأنبياء والرسل

وقد أثنى الله تعالى على رسله وأنبيائه فهم صفوة الخلق ،و أكمل البشر ،الذين حازوا أعلى درجات القبول ،فهم مشاعل النور ،وأئمة الهداية ،منهم إبراهيم الخليل وابنه اسماعيل وموسى ونبينا محمد ﷺ،وقد التزمت في إيرادهم الترتيب الزمني :

١- إبراهيم الخليل عليه السلام :

وقد زكاه ربه عز وجل بصفات عديدة ،وخلال عظيمة فقد آمن وحده و كل من سواه كانوا كفاراً ،وأنكر على قومه الشرك وعبادة الأوثان بكل ما أوتي من حجة باليد واللسان والجنان. وتترادف الآيات في بيان الثناء وجزيل العطايا لإبراهيم الخليل عليه السلام حيث بيّن القرآن الكريم بالتَّعريض والتصْريح في مواضع عديدة تضافرت مع بعضها البعض لتشكّل معاً سمات هذا النبي الكريم وهذا الإنسان الفذّ العظيم بأنه:

- **كان صدّيقاً** قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾[مريم: ٤١] واسم الصدّيق مبالغة من كثرة الصدق في الحديث والوعد،فهو في جميع أحواله صادقاً مع نفسه لا يناقض سره علنه ، صادقاً مع الناس قد أخلص النصح لأبيه وقومه،صادقاً مع ربه قد أخلص له

ولاءه ،ومن الشرك والرجس أعلنها براءة . قال البغوي: ((صَدَّقَ اللَّهَ فِي وَحْدَانِيَّتِهِ وَصَدَّقَ أَنْبِيَاءَهُ وَرُسُلَهُ وَصَدَّقَ بِالْبَعْثِ))(١).

- كان مؤمناً :﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الصافات: ١١١] ، وفي الآية تعليل للدلالة على جلالة الإيمان في صدره ،وقوة إخلاصه وتصديقه ،فهو الذي كمّله الله وآتاه الرشد وألهمه الحجة وهداه إلى الحق في صغره قبل النبوة (٢) فقال :﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [الأنبياء: ٥١].

- صاحب القلب السليم : ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[الصافات: ٨٤] السَّلِيم من آفات الشُّبْهَة الَّتِي توجب اتِّبَاع الظَّن وَ الشَّهْوَة الَّتِي توجب اتِّبَاع الهوى(٣) ،وكان حنيفاً مسلماً:﴿حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾[آل عمران: ٦٧]. مقبلاً على ربه،في وقتٍ أحاطت به الفتن،وأناخت بكلكلها على القلوب،فعمّ الإقبال على الأوثان والطواغيت ،فما زاده ذلك إلا تمسكاً وميلاً إلى طريق الاستقامة،ومجانفة عن طريق الباطل .

- البَرِئ من الشرك:﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠] وتوحي هذه الجملة بزيادة في المعنى فهو لم يركع يوماً قط ولم يُطأطئ رأسه لغير الله .فهي تنفي عنه الشرك بالكلية في ماضيه وحاضره .

(١) تفسير البغوي (٥/ ٢٣٣) .
(٢) ينظر تفسير السمر قندي (بحر العلوم) (٣/ ١٤٩) ،والتفسير الوسيط للزحيلي (٨/ ٤٢٨) .
(٣) ينظر الروح لابن القيم ص: ٢٤٤.

- **الهاجر لدار الكفر**،المفارق لرجس الأوثان كما في قوله تعالى:﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[العنكبوت: ٢٦] ، والذاهِب إلى ربه ،اللائذ به والراغب إليه يطلب رضاه [١]:﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾[الصافات: ٩٩].

- **المتوجه إلى الله بكلّيته**:﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾[الأنعام:٧٩] وفي ذلك كمال الاستقامة وصفاء التوحيد ,وتطهير القلب من سائر الضلالات.

- **المحسِنُ العمل** المظهر كمال الطاعة والانقياد لأمر ربه ويظهر ذلك جلياً في تصديقه لرؤيا ذبح ابنه فجزاه بإحسانه وطاعته العفو عن ذبحه،و الثناء الحسن في العالمين [٢] قال تعالى:﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأنعام: ٨٤] .

- **المعادي والموالي في الله وحده**، ولا يطلب نفعا من أحدٍ غيره،والبريء من الشرك وأهله [٣] :﴿قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ٧٥ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ٧٦ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[الشعراء: ٧٥ - ٧٧].

---

(١) ينظر تفسير السمعاني (٤/ ١٧٦) ،وتفسير البغوي (٤/ ٣٥) ،والبحر المحيط في التفسير لأبي حيان (٩/ ١١٥).
(٢) ينظر لباب التأويل في معاني التنزيل (٤/ ٢٤) ،وتفسير مقاتل بن سليمان (٣/ ٦١٥).
(٣) ينظر تفسير الوسيط للواحدي (٣/ ٣٥٥)،وتفسير السمعاني (٤/ ٥٣)،(٩/ ١١٥)،وتفسير ابن كثير (٦/ ١٤٥).

- **الحَلِيمُ، الأوّاهُ، المُنيب:**﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥] ، ويتضح حلمه فيما احتمله وصبر عليه من بلايا،وماقاساه من قومه وذويه من رزايا.

- **الكريم الضيافة:**﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾[الحجر: ٥١] .

- **الحامدُ لربه المثني عليه:**﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾[إبراهيم:٣٩]،والشاكرُ لآلائه وعظيم نعمه:﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾[النحل:١٢١]شاكراً بالجنان واللسان وبالقول والعمل،راداً الفضل لله في كل شيء. وقد ذكر لفظ ﴿لِّأَنْعُمِهِ﴾ بصيغة القلّة للتنبيه على أنه لم يترك الشكر على القليل من النعم فكيف بكثيرها[1] .

- **الصابر والوفي فقد ابتُليَ فصبر الصبر الجميل** ،وأتمّ ابتلاءه بالإذعان للجليل ،وأدى ما عليه حق الأداء،ووفى به أكمل ما يكون الوفاء قال تعالى:﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤] وقال سبحانه: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧].

ونتيجة لما أبداه إبراهيم الخليل عليه السلام من طاعة،وما طواه من نقاء سريرة وما ألزم به نفسه من استمساك بالحق ،وصلابة في ذات الله ،فقد تقبّله الله تعالى ووهبه جليل الصفات وزاده من المزايا والمكرمات ومن ذلك أنه :

---

(١) ينظر فتح القدير للشوكاني(٣/ ٢٤١).

- **اجتباه:** أي اختاره واصطفاه قال تعالى: ﴿ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ﴾ [النحل: ١٢١]. والمراد اصطفاه الله لنبوته ،واختاره لخُلته ،ومازه على الناس بإمامته [١].

- **هداه إلى صراط مستقيم:** أنعم عليه بالهداية إلى سبيل الحق والرشاد قال تعالى:﴿ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[النحل: ١٢١].

- **آتاه في الدنيا حسنة:** قيل هي الذكر الحسن بين الناس،وقيل الثبات على ما أولاه من نعم،والدوام على ما حباه من يقين بلا انقطاع أو تحول[٢] قال تعالى:﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ﴾[النحل: ١٢٢].

- **جعله في الآخرة من الصالحين:** شهادة من مولاه سبحانه أنه أدى ما عليه من حق،ووفى ما بما عقد له من عهد ،فكان عنده من الصالحين ،ورفع شأنه ،وأصلح أمره ،وأحسن إكرامه فكان في الجنة في زمرة الصالحين،قال جلّ وعلا :﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[النحل: ١٢٢] .

- **واصطفاه بالإمامة فقال:**﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ﴾ [البقرة: ١٢٤] فكان أَبوالمِلَّة: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ﴾[الحج: ٧٨] فقد كان الأُمَّةَ القانِتَ مديماً على طاعة ربه: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا﴾ [النحل: ١٢٠] والأمة هو القدوة الذي

---

(١) ينظر البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (٣/ ١٧٢)،وتفسير الطبري (١٧/ ٣١٦).
(٢) ينظر تفسير الطبري (١٧/ ٣١٩)،والوجيز للواحدي (١/ ٦٢٣) ،وتفسير الثعلبي (الكشف والبيان عن تفسير القرآن) (٦/ ٥٠).

يؤتمّ به وقيل معلم الناس الخير.

وأوضح ابن القيم: أن الفرق بين (الأمة) و (الإمام) من وجهين ،أحدهما: أن الإمام كل ما يؤتم به ،سواء كان بقصده أو بغير قصد،ومنه سمي الطريق إماماً [١] كقوله تعالى:﴿وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ٧٨ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ ﴾ [الحجر: ٧٨ –٧٩] أي: بطريق واضح يتبعه الناس ويقصدونه في أسفارهم . أما لفظ ﴿أُمَّةً ﴾ ففيه زيادة معنى أي هو الذي تميّز فيها فرداً وحده ،وجمع خصال الكمال في العلم والعمل التي تفرقت في غيره،فكأنه باين غيره باجتماعها فيه. فكان أمة يتّبعه الناس ليأخذوا منه الخير .

كما يدلّ لفظ ﴿أُمَّــةً ﴾على معنى آخر : فالأمة هي الطَّائِفَةُ الْعَظِيمَةُ مِنَ النَّاسِ الَّتِي تربطها صفة جَامِعَةٌ ،وَوَصْفَ إِبْرَاهِيمَ– عَلَيْهِ السَّلاَمُ– بِذَلِكَ وصفٌ بديع جَامع لِمَعْنَيَيْن:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ كَانَ فِي الْفَضْلِ وَالْكَمَال بِمَنْزِلَةِ أُمَّةٍ كَامِلَة ،وكما قال البُحتُرِيّ:

وَلَمْ أَرَ أَمْثَالَ الرِّجَالِ تَفَاوُتًا لَدَى الْفَضْلِ حَتَّى عُدَّ أَلْفٌ بِوَاحِدِ [٢]

وَالثَّانِي: أَنَّهُ كَانَ أُمَّةً وَحْدَهُ فِي الدِّينِ والهداية ،حيث أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي وَقْتِ بِعْثَتِهِ شخصٌ مُوَحِّدٌ لِلَّهِ

---

(١) ينظر مفتاح دار السعادة لابن القيم (١ / ١٧٤) .

(٢) ديوان البحتري ص: **٦٢٥** .

غَيْرُه. فَهُوَ الَّذِي أَحْيَا اللَّهُ بِهِ التَّوْحِيد، وَبَثَّهُ فِي الْأُمَم وَالْأَقْطَارِ(١).

وهو الصّدِّيق والنَّبِيُّ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٤١]

-اختاره الله لطُهرة بيته فقال:﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦]. ورفع قواعده فقال: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾ [البقرة: ١٢٧].

واصطفاه للأذان بالحج: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ [الحج: ٢٧] والدعوة للخير عليه الصلاة والسلام(٢).

- كافأه الله بالمحبة والخُلّة والتي هي أعلى مراتب القبول قال تعالى : ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

فجماع القول أن إبراهيم عليه السلام قد اجتمعت فيه خصال وسمات ارتقى بها أعلى مقامات القبول .فقد قيل كان لإِبراهيم عليه السّلام في طريق الحقّ عشرةَ مقاماتٍ نال بها غاية المرامات،بل ظهر مما سبق أنها تزيد على ذلك ومنها :

الأوّل مقام الإخلاص: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٤] .

الثاني مقام الصدق:﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾[مريم: ٤١].

---

(١) ينظر التحرير والتنوير (١٤/ ٣١٤) .

(٢) ينظر بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (٦/ ٣٤).

الثالث مقامُ الدَّعْوة: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ﴾ [الحج: ٢٧] .

الرابع مقام الفَقْر والفاقة: ﴿وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ﴾[الشعراء: ٧٩].

الخامِسُ مقام الشكر: ﴿شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ﴾[النحل: ١٢١]

السّادِس مقام المغفرة: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾[الشعراء: ٨٢]

السّابع مقامُ المعْرِفَة: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤] .

الثامن مقام اليقين : ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥].

التّاسع مقام التسليم : ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة:١٣١].

العاشر مقام الاستقامة: ﴿ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [النحل: ١٢١].

الحادي عشر مقام التوكل : ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ﴾[الأنعام: ٨٠].

الثاني عشر مقام الإحسان : ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[الأنعام: ٨٤] .

الثالث عشر المحبَّة والخلة : ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ [النساء: ١٢٥] (١) .

****

(١) ينظر بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (٦/ ٣٤).

ب - إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام :

أثنى الله تعالى على خُلق نبيه إسماعيل ثناء عطراً ،ذلك أنه كان صادقاً فيما بينه وبين الله فما التزم بعبادة إلا وفاها ،وفيما بينه وبين الناس ما وعد شخصاً إلا وفى بوعده . وإن كانت هذه الخلال في غيره من الأنبياء ولكن خصه بها تشريفاً له فقال:﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا﴾ [مريم: ٥٤ – ٥٥] وكان يولي أهله والأقربين منه عناية خاصة بالأمر بالمعروف اشتغالا بالأهم، وهو أن يضع الإنسان الأولوية لتكميل نفسه ومن هو أقرب الناس إليه [١].ومن الملاحظ أن أمر الأقربين بالمعروف عمل يتطلب الجهد والصبر أكثر من أمر العامة من سائر الناس ،فتبرز أهميته من عدة وجوه :

أولاً: أن الداعية إلى الخير كثيراً ما يشتغل بأمر العامة عن أهله والمقربين إليه ،فجاء التميّز لإسماعيل في الآية بأنه قد أولى هذا الأمر عنايته،وأوفر لهم من وقته وعلمه لتقويمهم وإصلاحهم.

ثانياً : أن الأهل والأقربين قليلاً ما ينصاعون لأمر الداعية من أهلهم لأن إلفة الشيء تفقده قيمته مما

---

(١) ينظر التفسير المنير (١٦-١١٦) ،هذا إن كان المراد بلفظ (أهله) الأسرة والأقربين فقد ذهب جمع من المفسرين إلى أن المراد بها عموم أمته ،ينظر بصائر ذوي التميز في لطائف الكتاب العزيز (٢/ ٨٤)،وتفسير الخازن (٣/ ١٩٠) .

يدعوه إلى بذل المزيد من الجهد والصبر عليهم. ففي قوله تعالى: ﴿وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ﴾ إشارة إلى استمرارية الفعل والتجدد بلفظ المضارع،واقتران الفعل (كان) مع الفعل المضارع يدل على أن هذا الأمر كان دأبه عليه السلام وكان ديدنه منذ زمن بعيد وأنه مثابر عليه مما يتطلب الصبر والمجاهدة.

ثالثاً :وزاد صاحب الكشاف في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ﴾ أي "كان يبدأ بأهله في الأمر بالصلاح والعبادة ، ليجعلهم قدوة لمن وراءهم"[١]. فقد كان دأبه البداءة بأهله في كل إصلاح،ولاشك أن هذا الأمر من أهم أساليب الدعوة الصحيحة ،لتكون الدعوة فاعلة ومجدية فإن الله تعالى ذم اليهود بقوله : ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ﴾ [البقرة: ٤٤].

وعند التأمل في بشرى الله تعالى لخليله إبراهيم عليه السلام :﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ١٠١ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[الصافات: ١٠١ – ١٠٢] تُشرق بين ثنايا الآيات صفات أخرى في إسماعيل[٢] عليه السلام فهي حلمه،وصبره،وبره بوالديه،ويجدر

---

(١) تفسير الزمخشري (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل)(٢٣/٣).

(٢) وقد فصّل عامة المفسرين الاختلاف في أمر الذبيح و أنه هو إسماعيل وليس إسحاق لدلالة باقي الآيات وسياقها ،ينظر تفسير الخازن (لباب التأويل في معاني التنزيل) (٢٤/٤) ،وتفسير الطبري (٥٨٧/١٩)،وتفسير السمر قندي(بحر العلوم) (١٤٩/٣) ،وتفسير الثعلبي (الكشف والبيان عن تفسير

الوقوف عند قوله تعالى حكاية عنه: ﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ فمع رهبة الموقف ،وشدة المحنة ،وعِظم الفتنة ،يُظهر الشابّ المؤمن كمال التفويض والانقياد،والرضا بقضاء الله وفي لفظ﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ حيث لم يقل (امض أو اذبح) دلالة على أخذه قول والده النبي الكريم كأمر من الله واجب الامتثال،لا ينبغي فيه التردد أو التأكد وكأنه خشي من حنان والده وحبه له أن يدعوه ذلك إلى التريّث وحاشا لخليل الله أن يتريث في الامتثال لربه ولكنها مشاعر الحب تتردد بين الوالد والابن البار ،فيسارع الابن إلى تعجيله،ليقطع جميع العلائق من مشاعر أو عواطف يمكن أن تقف كعامل يؤدي إلى بطء المسارعة إلى رضوان الله والتسليم لقضائه وأمره. وليبرز بذلك حلمه الجميل حيث لا سخط ،ولا غضب،ولا تقاعس.

فالقرآن الكريم يرسم سمات إسماعيل عليه السلام بصورة بليغة موجزة فتبدو شمائل النبي الكريم وما اختصه الله به من علوّ المكانة وأرفع الدرجات كالتالي :

- **هو المسلم الخاضع لربه :** ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ﴾[البقرة: ١٢٨] فاستجاب الله دعاءهما،فرزقه شرف الاستسلام والانقياد لأمره ونهيه، بالرضا والقبول حتى يلقاه.

القرآن)(١٥٧/٨)،وتفسير الرازي (مفاتيح الغيب) (٣٤٥/٢٦) ،وتفسير السعدي (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) ص:٧٠٥ وغيره كثير. وقال ابن كثير : (وَقَدْ ذَهَبَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ إِلَى أَنَّ الذَّبِيحَ هُوَ إِسْحَاقُ، وَحُكِيَ ذَلِكَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنَ السَّلَفِ، حَتَّى نُقِلَ عَنْ بَعْضِ الصَّحَابَةِ أَيْضًا، وَلَيْسَ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ وَلَا سُنَّةٍ، وَمَا أَظُنُّ ذَلِكَ تُلقى إِلَّا عَنْ أَحْبَارِ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَأُخِذَ ذَلِكَ مُسَلَّمًا مِنْ غَيْرِ حُجَّةٍ.)تفسير ابن كثير (٢٧/٧).

وهو الغلام الحَليمُ بالرغم من أنه نشأ في بيئة صحراوية ،والصحراء يغلب على أهلها الجفاء وشدة الطبع إلا أنها أخلاق وسماحة النبوة التي فُطِر عليها هذا النبي الكريم قال تعالى﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١](١).

- **والمسْتَسْلِم لأمر ربه،الخاضع لقضائه:** ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾[الصافات: ١٠٣].

- **وهو الصابر على البلاء:** ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

- **ويتجلى في هذه الآية الطاعة لربه والمطاوعة والبر بوالده :** ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾[الصافات: ١٠٢].

- **وهو الآمر بالمعروف:**﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾[مريم: ٥٥]. وما يلزم ذلك من المجاهدة والمصابرة لتحقيقه .

- **وهو الصادقُ الوَعْد :** ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾[مريم: ٥٤].

فكان عند الله في درجات القبول مرضياً : ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٥] وفيها الثناء والمدح من ربه فعمله محمود في كل طاعة ،وجاء في أدائها بما يرضي ربه عز وجل ،راضٍ بقدره وقضائه فأرضاه واختاره الله فكان رَسُولاً نبيا: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٤].

****

---

(١) من المفسرين من ذهب إلى أن الذبيح والغلام الحليم هو إسحاق ، والأظهر أنه اسماعيل عليه السلام لدلالة السياق عليه ينظر تفسير ابن أبي حاتم (٣٢٢٠/١٠)،وتفسير السمر قندي (١٤٧/٣)،وغرائب التفسير وعجائب التأويل (٩٨١/٢)،وتفسير ابن كثير (٢٧/٧) .

ت- موسى الكليم عليه السلام :

قال تعالى:﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾ [مريم: ٥١] امتدح الله صفيه وكليمه موسى عليه السلام بأنه كَانَ يخلص له العبادة، وَيُفْرِدُهُ بالْأُلُوهَية، فأَخْلَصَهُ وَاصْطَفَاهُ ، وَجعلَهُ نَبيًّا مُرْسَلا ،وهو الذي اصطنعه الله وكرّمه وشرّفه وجعله موضع صنيعته وإحسانه إذ قال: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾ [طه: ٤١]. وقرّبه إليه وناجاه : ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾[مريم: ٥٢]. قال ﷺ : (مُوسَى بن عِمْرانَ صَفيّ الله)[1].

وفي ضوء قوله تعالى :﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ٨٣ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾ [طه: ٨٣ – ٨٤] تتضح شخصية النبي الكريم المبادِرة للخير،وتظهر علاقته بربه عز وجل،وتتجلى مسارعته إلى طاعته،شوقاً إليه ،ومحبة له ، فإذا علم محبة الله في أمر لم يكن ليتقاعس أو يتخلف عن مقدمة الركب .فقدّم بين يديه طاعة ربه ورضاه .

وفي قوله تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٦٢٩/ح ٤١٠٠) ،والسيوطي في جامع الأحاديث(٤٢٢ / ح٢٣٣٩٠) وقال حديث صحيح وقال الألباني:(صحيح) في صحيح الجامع (ح٦٦٣٣) .

فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي﴾ [طه: ٨٦] تتجلى صفة من صفات موسى عليه السلام وهي الغضب لله أن يُعصى أمامه ،والحرص على دين الله أن يُنال منه . فموسى عليه السلام ذو شخصية مبادرة ،سريع التفاعل مع المشاهد التي تعرض له ،قويّ في الدفاع عمّا يؤمن به ويدعو له. وفي هذه الآيات: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٤ وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ١٥ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٦ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [القصص: ١٤ - ١٧].

تبرز جوانب أخرى من شخصية موسى عليه السلام ،ومنها الرجعة والتوبة إلى الله بعد إغواء الشيطان له بقتله القبطي نصرة للحق ،ولا يقدح ذلك في عصمته لكونه خطأ وإنما عدّه من عمل الشيطان وسمّاه ظلماً واستغفر منه جرياً على سنن المقربين في استعظام ما فرط منهم وكان هذا قبل النبوة فقد اختصّه الله تعالى بخلق الإنصاف والعدل ،وهو الذي خرج في مجتمع جائر،مائل عن الصراط ،فكان قامعاً للفتنة ،ماحقاً للباطل .

وفي قوله تعالى:﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ تتضح براءته من الباطل وأهله ،وولايته ووفاؤه للمنعم بأن لا يقف في صف ظالم أبداً،ولا يعين مجرماً على فجوره وإجرامه(١). وفي قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص: ٢٢ - ٢٤] جاءت الآيات السابقة لتبين في موسى عليه السلام صفة الرحمة والإحسان وحبه لنفع غيره وبذله للمعروف ،وتُظهر حُسن توكله على ربه والتجائه إليه .

وفي قوله تعالى حكاية عن موسى قاصداً النبي شعيب عليهما السلام : ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[القصص: ٢٧] صور مشرقة تتجلى فيها أدب المعاملة وصفة المسامحة ،وحسن الصحبة، والوفاء ،والاعتماد على الله تعالى(٢).

---

(١) ينظر تفسير عبد الرزاق (٢/ ٤٩٠)،وتفسير الطبري(١٩/ ٥٤٢).
(٢) ينظر تفسير الشوكاني(فتح القدير) (٤/ ١٨٧) ،و تفسير السعدي ص:٦١٤.

ويجمع عليه السلام بين صفتي القوة والأمانة في قوله تعالى حكاية عن ابنة شعيب عليه السلام: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾[القصص: ٢٦] فقمة المروءة هي الأمانة للقادر المتمكن على خلافها.

وفي خلاصةٍ نستقرئ فيها سمات موسى عليه السلام التي بيّنها القرآن الكريم تصريحاً وتعريضاً نجد باقة عطرة مما ميّزه الله به واختصه من عظيم الشمائل وكريم الخلال منها :

- سماته مع نفسه و ربه :

- **تعجيل الطاعة ،والمبادرة بالخير:** ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٤].
- **التسبيح والذكر:** ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴾ [طه: ٣٣].
- **الهداية والاستقامة :** ﴿وَهَدَيْنَـٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الصافات: ١١٨].
- **صدق العبودية وكمال الإيمان :** ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الصافات: ١٢٢]
- **الغضب في ذات الله ،والانتصار للحقّ :** ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا﴾[الأعراف: ١٥٠].
- **كمال التوكل :** ﴿قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾[الشعراء: ٦٢].
- **التوبة والإنابة:** ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾[القصص: ١٦].

- **التذلل والفقر وحسن التوجه إلى الله:** ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾[القصص: ٢٤].
- **الولاء لربه والبراءة من الكفر وأهله :** ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾[القصص: ١٧].
- **دوام الاستعانة والتوجه و الطلب :** ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[القصص: ٢٢].

سماته مع الناس:

- **الصبر في تلقي العلم ،وأدب المتعلم:** ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾[الكهف: ٦٩]
- **سمو الأخلاق وتتجـلى في حسن الاعتذار:** ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ [الكهف: ٧٣].
- **كمال القوة والأمانة وما تتضمن من فطنة وكياسة ومروءة :** ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾[القوصص: ٢٦].
- **الإحسان والبرّ:** ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾[القصص: ٢٤] .
- **النخوة والشجاعة والرغبة في الانتصار للحق:** ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ﴾[القصص: ١٥].
- **الوفاء بالعهد ،والالتزام بالعقد :** ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾[القصص: ٢٩].

****

- نبينا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم :

تناول هذا البحث هؤلاء الذين شرّفهم الله تعالى فنالوا أعلى مراتب القبول من حيث قابليّة الاقتداء ،ومساحات التأسّي وليس من موضوعه سرد مناقبهم وما حباهم الله به من مكانة ،فإن ذلك لا تتسع له دفتا هذا البحث المتواضع .

قال عزّ مِن قائل : ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[البقرة: ٢٥٣]. والنصوص ثابتة في فضل صاحب لواء الحمد ﷺ والمقام المحمود الذي قال الله تعالى له : ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[الإسراء: ٧٩]. فصلاته الليل وطول تهجده كان زيادة له في علوّ القدر ،ونيل الشرف والكرامة من الله تعالى،وتبوّئه المقام المحمود ، قال عليه الصلاة والسلام: (أنا سيِّدُ ولدِ آدمَ يومَ القيامةِ ولا فخرَ، وبيدي لواءُ الحمدِ ولا فخرَ، وما من نبيٍّ يومئذٍ آدمَ فمن سواهُ إلَّا تحتَ لوائي، وأنا أوَّلُ من تنشقُّ عنْهُ الأرضُ ولا فخرَ) [1].

وهو الذي أثنى عليه ربه وأدّبه بأدب القرآن،وعلّمه من محاسن الأخلاق ما لا يُدِرك شَأوه أَحد

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/٣٠٨/ح٣١٤٨)،وروى نحوه مسلم(٤/ ١٧٨٢/ح ٢٢٧٨) ،وروى نحوه الإمام أحمد في المسند (١٧/ ١٠/ح١٠٩٨٧)،و ابن حبان في صحيحه ،(١٤/ ٨٣٩/ح ٦٤٧٨) وذكره الألباني في صحيح الترمذي (ح ٩٧٧).

من الخلق،وشهد له بذلك إذْ قال: ﴿وَإِنَّـكَ لَعَـلَىٰ خُلُـقٍ عَظِيـمٍ﴾ [القلم: ٤] قال الجنيد(١): ((سمّى خُلقه عظيماً، لأنه لم تكن له همّة سوى الله عزّ وجل))(٢). وقد اجتمع فيه ما تفرق في غيره من فضائل وشمائل وخصال،قال عليه الصلاة والسلام : (إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلاَقِ) (٣) فإن كان حُسن الخلق ممايرفع العبد عند الله فيجعله مع درجة الصائم القائم كما صحّ عنه عليه الصلاة والسلام (٤)فكيف بمن جمع مع حسن الخلق كثرة العبادة فكان صواماً قواماً؟!

ومن بارزِ شمائله ،صفة الرحمة ،التي تكمن في ذاتـه وتفيض منه ، فإذا هو فيـض رحمات للمؤمنين خاصة وللعالم عامة قـال عز وجل : ﴿وَمَـآ أَرْسَـلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَــةً لِّلْعَـٰلَمِــينَ﴾

(١) هو الجُنَيْد أَبُو الْقَاسِم بن مُحَمَّد بن الْجُنَيْد النهاونديّ الأَصْلِ الْبَغْدَادِيّ القواريري الخزاز في زَمَانه كان شيخ الصوفية ولد ببَغْدَادِ بعد العشْرين ومئتين وتفقه في الدين صغيرا وكان يُفْتِي وَله عشرُون سنة، وأتقن العلم و صحب الحسن بن عرفةَ ،والحَارث المحاسبي يقال أنه رزق من الذكاء وصواب الرأي مَا لم يرْزق مثله في زَمَانه وكان يقول علمنَا مضبوط بالْكتاب وَالسّنة . مات سنة ثَمَان وَتسْعين ومئتين .ينظر سير أعلام النبلاء (١١/٤٣)،والوافي بالوفيات (١١/١٥٥).

(٢) تفسير الثعلبي (الكشف والبيان عن تفسير القرآن) (١٠/٩).

(٣) أخرجه البخاري في الادب المفرد(١/١٠٤ /ح ٢٧٣) وقال الألباني في صحيح الأدب المفرد: (صحيح) (ح ٢٠٧).

(٤) وهو حديث (إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ) أخرجه أبو داود (٤/٢٠٢/ح٤٧٩٨)،و البيهقي في الشعب (١٠/٣٦٤/ح٧٦٣٢) ،وأحمد في المسند (٤٢/٣٤٦/ح٢٥٥٣٧) ،وقال الألباني :(صحيح) في صحيح أبي داود.

[الأنبياء: ١٠٧] ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾[التوبة: ١٢٨]. ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ﴾[آل عمران: ١٥٩] فوصفه الله بوصف الرَّحْمَةِ وَلَمْ يَصِفْ بِهِ غَيْرَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ [1] وقد يتقبل الله عبداً لرحمته مخلوقاً من مخلوقاته فكيف بمن اتصف بالرحمة وكانت سجيّته وفاضت أنسام رحمته على العالمين .

ومن أخلاقه تحمُّله في ذات الله وفي سبيل الدعوة ما تحمّل حتى عُدّ من أولي العزم من الرسل الذين هم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم صلوات الله وسلامه [2]. ووصفه ربه بقوله: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٦]. ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾متجرداً من جميع حظوظ الدنيا فلا إلى شيء منها، لا إلى مجد، ولا إلى عزة، ولا إلى عصبية جاهلية، ولا إلى مغنم، ولا إلى سلطان ولا جاه. ولكن داعيا إلى الله. ومشعلاً

---

(١) ينظر التحرير والتنوير (١٦٧/١٧).

(٢) اختلفوا في تعداد أولي العزم والمشهور أنهم الخمسة (نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ) ينظر تفسير ابن كثير (٢٨٢/٧) وآية الأحزاب هي قوله تعالى﴿ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا﴾،وآية الشورى هي قوله تعالى:﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ﴾[الشورى: ١٣].

كاشفاً الطريق إلى الله ،يجلو الظلمات، ويدحض الشبهات[١].

وتشرق في هذه الآية الكريمة :﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾[التوبة: ٦١]. سمة بارزة للرسول الكريم ﷺ تتجلى في حسن تعامله حتى مع المنافقين الذين يكيلون له التهم بأنه آلة سمع لا تميز بين المقبول والمردود ،لتكشف هذه الآية عن عظيم خُلقه وتردّ افتراءهم بأنه أذُن خير لهم يستمع إليهم في أدب ولا يجبههم بنفاقهم، ولا يرميهم بخداعهم بل يسْمَعُ مَعَاذِيرَهمْ وَيَقْبَلُهَا مِنْهمْ[٢]. وهذه السمة لا تكاد تراها في كثير من الناس ،وهي استماع خير وصلاح ,وقبول للأعذار ،لا استماع شر وفساد[٣].

وبالجملة فقد ((كان رسول الله ﷺ أكرم الناس خلقاً، وأوسعهم صدراً وأصدقهم لهجة، وأكرمهم عشيرة، وأوفاهم عهداً، وأوصلهم للرحم، قريباً من كل بر، بعيداً عن كل إثم ... آتاه الله الكمال في الخَلق والخُلق، والقول والعمل، وجمّله بالسكينة والوقار، وكساه حُسن القبول، فاستمال القلوب وملك زمامها، فانقادت النفوس لموافقته، وثبتت القلوب على محبته، وفدته

(١) ينظر في ظلال القرآن لسيد قطب (٥/ ٢٨٦٤) .
(٢) ينظر التحرير والتنوير (١٠/٢٤٢)،وفي ظلال القرآن (٣/ ١٦٧١) .
(٣) ينظر تفسير البغوي (٤/٦٧) .

النفوس بكل عزيز وغال))[١].

وفيما يلي قبس من عظيم سماته عليه الصلاة والسلام التي أشار إليها القرآن الكريم تلميحاً وتصريحاً:

- مع نفسه ومع ربه:

- **الاستقامة:** وهي المداومة على الطاعة والالتزام بالأمر والنهي: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾[هود: ١١٢].

- **كثرة القيام والصلاة والسجود:** ﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾[الشعراء: ٢١٨ – ٢١٩][٢].

- **الإسلام والاستسلام:** ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾[النمل: ٩١].

- مع الناس:

- **الرأفة والرحمة بالمؤمنين:** ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ١٢٨].

- **الدعوة والبشارة والنذارة:** ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥ –٤٦].

---

(١) محبة الرسول بين الاتباع والابتداع لعبد الرؤوف محمد عثمان ص: **٦٢**.

(٢) أي ((تقلبك مع الساجدين في صلاتهم معك، حين تقوم معهم وتركع وتسجد)) تفسير الطبري **(١٩/٤١٣)**.

- **الاهتمام لأمر الأمة والسعي لرفعتها ،ورفع العنت عنها :** ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾[التوبة: ١٢٨].
- **الحرص على مصالح المؤمنين ومنفعتهم** ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].
- **الصدق والأمانة والتقوى :** ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[الزمر: ٣٣].
- **وهو الحاكم العادل :** ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥].
- **وشاهد عدل ومستمع خير :** ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾[التوبة: ٦١].
- **والمجاهد في سبيل ربه :** ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾ [التوبة: ٧٣].
- **وعظيم الخلُق الذي حوت شمائله جميع ما في القرآن من مكارم الأخلاق :** ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم: ٤].

وهذا غيض من فيض محاسن أخلاقه وطيب شمائله عليه الصلاة والسلام ،فلا جَرَم بمن كانت فيه كل هذه الفضائل أن يجتبيه ربه ويصطفيه على كافة الخلق أجمعين .

****

ثانياً : أسماء بعض الأولياء والصدّيقين

والولي : هو الموالي لله ورسوله ﷺ،المناصر لشرع الله ،المتبع أوامره المجتنب نواهيه. وقيل : ((ولي الله: هو من والى الله بموافقته في محبوباته والتقرب إليه بمرضاته))(١).

و الصديق في اللغة : المبالغ في الصدق والمصادق لك ،الدائم التصديق ،ومن صدق المودة والنصيحة (٢).

وقال صاحب التعريفات: ((الصديق: هو الذي لم يدع شيئًا أظهره باللسان إلا حققه بقلبه وعمله))(٣).

فالصديق : هو من صدَق الله حديثاً، وصدّق قوله بالعمل ،وصدّق بأمر الله من غير ترددٍ ولا ريبة.

وقد امتدح الله تعالى بعض أوليائه الصالحين وعباده الصديقين منهم على سبيل المثال :

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية لأبي العز (٢/٥٠٩) .

(٢) ينظر لسان العرب (٣٠٧/٧) ،وتهذيب اللغة (٢٧٧/٨) .

(٣) كتاب التعريفات لعلي الجرجاني ص: ١٣٢ .

أولاً : مريم البتول بنت عمران عليها السلام :

قصتها في آل عمران وما ذلك إلا لرفعة شأنها وعلو مكانتها عند الله .

وقد صرح بقبولها واصطفائها قال تعالى: .﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾[آل عمران: ٣٧].

- واصطفاها الله تعالى على جميع النساء فقال جل شأنه:﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[آل عمران: ٤٢].

فالاصطفاء الأول هو اختيارها بأن طهر دينها من دنس الشرك ورجس الأوثان وكبائر الذنوب والمعاصي ،واجتباها لطاعته وطهرها من الأخلاق الذميمة، واصطفائها لتكون أماً لنبيه عيسى عليه السلام بغير أب ، وَالثَّانِي بِمَعْنَى التَّفْضِيلِ عَلَى غيرها واختصها برفعة المنزلة والكرامة[١].

نشأت رضي الله عنها في المحراب فكانت حياتها بين عبادة الله وحده وسدانة بيته،ومن كانت حياتها في المحراب ،فهي بعيدة كل البعد عما تجترحه كثير من النساء من آفات اللسان و والسمع والبصر ،منزهة عن مجالس اللغو ،واقتراف الرذائل .

(١) ينظر تفسير الطبري (٥/ ٣٩٢)،والتحرير والتنوير (٣/ ٢٤٤)،والبحر المديد في تفسير القرآن المجيد (١/ ٣٥١).

- أمرها الله تعالى بالعبادة فامتثلت خير امتثال قال تعالى: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾[آل عمران: ٤٣]. فوهبت نفسها لذلك وامتثلت لما أمرت به شكراً لربها. فشهد لها تعالى بالقنوت والعبادة حيث كانت القانتة العابدة[١] كما قال عز وجلّ: ﴿وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾[التحريم: ١٢].

- وشرفها الله تعالى بالارتقاء إلى مرتبة الصديقية في القرآن حيث قال: ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ﴾ [المائدة: ٧٥]. وقيل: سميت مريم عليها السلام صدّيقة، لأنها كثيرة الصدق وهي التي صدقت بآيات الله وكتبه[٢].

وهي العفيفة الطاهرة التي أحصنت فرجها فقال تعالى فيها: ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢].

وهي التي كملت في الفضائل والأخلاق فكانت من الكاملات الصالحات مما يندر ذلك في النساء قال النبي ﷺ: (كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ: إِلَّا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ)[٣] وذلك لما تحلت به من خصال البر والتقوى[٤].

---

(١) ينظر تفسير السعدي ص: ١٣٠، وتفسير السمعاني(٥/ ٤٨٠).
(٢) ينظر تفسير البغوي (معالم التنزيل في تفسير القرآن) (٢/ ٧٢).
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٦٤/ ح٣٤٣٣).
(٤) ينظر شَرْحُ صَحِيح مُسْلِمِ لِلقَاضِى عِيَاض المُسَمَّى (إِكمَالُ المُعْلِمِ بفَوَائِدِ مُسْلِم) (٧/ ٤٤٠).

مما سبق تُستخلص سمات مريم عليها السلام التي تميزت بها وهي:

- حياة موصولة بالله طاعة وعبادة .
- صدق مع الله وامتثال لأمره ،وصدق مع الناس في مواجهتهم عند اتهامها بالفاحشة .شمائل طهر وعفاف وحسن خلق.
- ولا شك أن في الانشغال بالطاعة وعكوفها في المحراب فيه استزادة من الفضائل ،وحفظ للسان عن المزالق وبعد عن مجالس اللغو ،وهي التي يقع فيها كثير من النساء.

ثانياً : ذو القرنين :

قال تعالى:﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾ [الكهف: ٨٣]

تذكر التفاسير أن ذا القرنين كان ملكاً صالحاً ،وعبداً مسلماً ،طاف البلاد ،وجاب الأرض يدعو إلى الإسلام ،ويقيم العدل ويعامل الناس بالإحسان ،ويصلح البلاد وينفي الفساد وقال سفيان الثوري : ((بَلَغَنِي أَنَّهُ مَلَكَ الدُّنْيَا كُلَّهَا أَرْبَعَةٌ مُؤْمِنَانِ وَكَافِرَانِ سُلَيْمَانُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلاَمُ وَذُو الْقَرْنَيْنِ وَنُمْرُودُ وَبُخْتَنَصَّرُ))(١) .

---

(١) فتح الباري لابن حجر (٦/ ٣٨٥) . وروى نحوه الحاكم في المستدرك موقوفا على معاوية رضي الله عنه قال: (مَلَكَ الْأَرْضَ أَرْبَعَةٌ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ وَذُو الْقَرْنَيْنِ وَرَجُلٌ مِنْ أَهْلِ حُلْوَانَ وَرَجُلٌ آخَرُ) وسكت عنه الذهبي

وقيل عنه أنه : " إنما أُعْطِيَ مَا أُعْطِيَ بأربع خصال كَانَ فيه : كَانَ إِذَا قدَر عفا، وَإِذَا وعد وفى، وَإِذَا حدّث صدق، ولا يجمع اليوم لغد" (١).

وثمة لطائف تُفصح عن نفسها عند التمعن في قوله تعالى : ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف: ٩٨]. فقد ورد لفظ ﴿رَبِّي﴾ في هذه الآية القليلة الحروف العظيمة المعاني ثلاث مرات مما يُشعر بأن ذا القرنين كان شديد التوكل على الله والتعلق به ،والمحبة له ،والوثوق بما عنده أكثر مما هو بين يديه مما سخره الله له،وهذه الخُلة الجليلة من أعظم ما يحب الله في العبد ،أن لا يغتر بما آتاه ،أو ينظر إلى ما لديه نظرة عُجب واستعظام وهو الذي ملك الأرض مشارقها ومغاربها في زمانه ،وفي قوله تعالى حكاية عنه :﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ﴾ تتجلى صفة الاعتراف بنعم الله وفضله التي ينكرها كثير من طغاة الأرض إذا مكّن الله لهم.

وفي قوله :﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾كمال التسليم واليقين والاعتراف بالضعف أمام قوة ذي العزة والجبروت القاهر فوق عباده .

في التلخيص (٢/٦٤٥/ح٤١٤٣)،وروى نحوه ابن أبي شيبه عن مجاهد (٦/٣٤٦/ح٣١٩١٦).و النقاش في فنون العجائب موقوفا على ابن عباس (١/١٠٩/٨٨).

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٧-٢٣٨٢) ،والدر المأثور (٥/٤٣٩) .

فكان من مجموع صفات ذي القرنين وأعماله التي ربما كانت سبباً في نيل شرف القبول عند الله:

- أنه نشر دين الله في الأرض فقد كان على الإسلام وهي الحنيفية ملّة إبراهيمu .
- أقام سلطان الله في الأرض بالعدل والقسط .
- أعان المظلوم وقاتل الظالم .
- أصلح الله به البلاد والعباد.
- بالإضافة إلى أنه شديد التوكل على الله .
- والاعتراف لله بالفضل مع الاعتراف بالضعف والتسليم له.

****

ثالثاً : مؤمن آل ياسين [١]:

قال تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: ٢٠ – ٢٧] جاء مسرعاً من أقصى مدينة أنطاكية[٢] بالشام لما بلغه خبر اجتماع الناس على رسل عيسى عليه السلام الذين أرسلهم ليبلغوا عنه دعوة الحق ثم سألهم : أتطلبون على ما جئتم به أجراً ؟ قالوا: لا. فأقبل على الناس يقول: ﴿اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ فقيل له: أَفَأَنْتَ تتبعهم؟ قال: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ

---

(١) عرف في كتب التفسير والأثر والسير بأنه حبيب النجار ينظر تفسير ابن أبي حاتم (٧-٢٣٨٢) ،والدر المأثور (٥/٤٣٩) ،وتفسير القرطبي (١٥/٣٠٦)،وتفسير ابن كثير (٦/ ٥٧٠)،وفتح الباري (٦/٤٦٧).

(٢) مدينة عظيمة من أعيان المدن على طرف بحر الروم بالشام وثغر من ثغورها،وهي مدينة دائرية الشكل نصفها سهلي ونصفها جبلي. أطلق عليها النصارى قديما أم المدائن لأنها أول بلد ظهر فيه دين النصرانية، ينظر آثار البلاد وأخبار العباد للقزويني ص:١٥٠، والروض المعطار في خبر الأقطار للحميري ص: ٣٨.

ٱلَّذِى فَطَـرَنِى﴾... إلى قوله: ﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّـفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِـينٍ﴾، ثم أقبل على المرسلين فقال لهم: ﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُون﴾ فتألب عليه الناس فقتلوه[١].

فكان من أهم شمائل هذا الرجل الصالح تصديقه المرسلين و مسارعته إلى طاعة الله تعالى ومبادرته بنفسه في سبيل الله عز وجل و قوله مقالة الحق أمام أهل الظلم والطغيان .

وظاهر الآية يدل أن الرجل لم يكن ذا جاه ولا سلطان. ولم يكن في عزوة من قومه أو منعة من عشيرته. ولكنها العقيدة الحيّة في ضميره تدفعه وتجيء به من أقصى المدينة إلى أقصاها ينصحهم ويعظهم ﴿يَـٰقَـوْمِ ٱتَّبِعُـوا۟ ٱلْمُرْسَـلِينَ﴾ .

إن الذي يدعو مثل هذه الدعوة ،ويجتهد في تبليغ الحقّ، وهو لا يطلب أجراً، ولا يبتغي مغنماً.. إنه لصادق. وإلا فما الذي يحمله على هذا العناء ؟ ما الذي يدفعه إلى حمل همّ الدعوة؟ ومجابهة الناس بغير ما ألفوا من العقيدة؟ والتعرض لأذاهم وشرّهم واستهزائهم وتنكيلهم، وهو لا يجني من ذلك كسباً، ولا يطلب منهم أجراً؟

ثم تراه يعود ليناشدهم مرة أخرى ليوقظ فيهم تلك العقول السامدة الغافلة ،ويشرح لهم

(١) ينظر الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره للقيسي (٩/٦٠١٧).

بمنطق العقل : ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾وهُداهم واضح في طبيعة دعوتهم. فهم يدعون إلى إله واحد. ويدعون إلى نهج واضح . لا خرافة فيه ولا غموض[1].

ثم عاد يتحدث إليهم عن نفسه وعن أسباب إيمانه ويقلّب لهم وجوه الحقيقة بأساليب شتى لعل ذلك أن يوقظ فيهم حساً ،أو يجلو عن قلوبهم صدأ فيبصرونها كما أبصرها ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ﴾في لفظ (بربكم) يناشد فيهم الفطرة التي استيقظت فيه ليوقظهم بالبرهان الفطري السليم[2].

وهكذا يكشف الحوار عن شخص صادق ،ذي سجية مستقيمة ، صاحب رسالة واضحة عظيمة،انتفع بها وأراد النفع لغيره ،فتقدّم غير آبهٍ للموت في سبيل نفع غيره وفي سبيل إظهار الحق،وإنصاف الحقيقة . ومثل هذا حريٌّ أن يحبه الناس فكيف لا يحبه الله وهو القائل في محكم كتابه: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾[فصلت:٣٣].

****

(١) ينظر تفسيره البيضاوي (٤/ ٢٦٥)،وتفسير ابن كثير (٦/ ٥٧٠)،وفي ظلال القرآن (٥/ ٢٩٦٣).
(٢) ينظر في ظلال القرآن (٥/ ٢٩٦٣).

ثالثاً :أسماء بعض الصحابة رضي الله عنهم :

والصحابة عموماً هم خير القرون وقد أثنى عليهم الله عز وجلّ في عليائه في أكثر من آية حيث قال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠] وقال :﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ [الفتح: ٢٩] كما أثنى عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم فقال : (لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ، ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ، وَلاَ نَصِيفَهُ) [١]. فهم الذين آزروا الرسول ﷺ ونصروه،ووفقهم الله لإعلاء كلمته ،ورفع رايته ،وشرف مصاحبة نبيه ومتابعته،فهم مصابيح الهدى،والتفاضل

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٥/٨/ح ٣٦٧٣).

بينهم قائم كما هو قائم بين الخلق أجمعين ،وكلهم فاضل،ونخص بالذكر هنا سَيدَي كهول أهل الجنة الصديق والفاروق رضي الله عنهما قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ سَيِّدَا كُهُولِ أَهْلِ الْجَنَّةِ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، إِلَّا النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ) [١].

****

أولاً - الخليفة الأول :أبوبكر الصديق رضي الله عنه :

صاحب رسول الله ورفيقه في الغار المعني بقوله تعالى :﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ٢١] فهنيئاً له الرضوان ،والفوز بموعود الملك الديان [٢].

ووردت إشارة عنه في قوله تعالى:﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ

(١) أخرجه ابن ماجة في السنن (١/٣٨/ح ١٠٠) ،والترمذي في السنن (١٦) ،(٦/٥٢/ح٣٦٦٦)، وابن حبان في صحيحه (١٥/٣٣٠/ح٦٩٠٤) وروى نحوه الإمام أحمد في مسنده (٢/٤٠/ح٦٠٢)،وقال الألباني : (صحيح)في السلسلة الصحيحة (٢/٤٧٦/ح٨٢٤).

(٢) ينظر أسباب النزول للواحدي ص:٤٨٠.

ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٤٠] فهو رفيق رسول الله ﷺ في الغار (١).

قال الإمام أبو حنيفة : «وَأفضل النَّاس بعد النَّبيين عَلَيْهِم الصَّلاَة وَالسَّلاَم أَبُو بكر الصّديق ثمَّ عمر بن الْخطاب الْفَارُوق ثمَّ عُثْمَان بن عَفَّان ذُو النورين ثمَّ عَليّ بن أبي طَالب » (٢).

وهو الذي نزل فيه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾[النور: ٢٢].

عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت:(لما أَنْزَلَ اللَّهُ تعالى هذه الآيات﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡ ﴾[النور: ١١] العَشْرَ الآيَاتِ فِي بَرَاءَتِي قَالَ [أَبُو بَكْرٍ] الصِّدِّيقُ- وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ لِقَرَابَتِهِ وَفَقْرِهِ- وَاللَّهِ لَا أُنْفِقُ عَلَيْهِ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ الَّذِي قَالَ لعائشة: قالت: فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى:﴿ وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى ﴾إِلَى قَوْلِهِ:﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: واللَّه إِنِي لأحِبّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي،

(١) لحديث (يَا أَبَا بَكْرٍ مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ١٨٥٤/ح ٢٣٨١).
(٢) الفقه الأكبر لأبي حنيفة (٩/ ٦٠١٧).

فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ[١] النفقة التي كان ينفق عَلَيْهِ وَقَالَ: لَا أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا)[٢].

هذا الموقف يكشف عن نفس شفافة ،سرعان ما تنفضُ عنها سموم الأوزار فلا تحمل الحقد والضغينة لأحد ،ما أروع القلوب إذا نُزعت منها حوائب الصدر ،وبرئت من سخائم البغضاء ،هكذا هو قلب هذا الرجل الكريم ،وتعامله بمن تكلّم على ابنته ونقل تلك الفرية الآدّة ،فخاض مع من خاضوا في حديث الإفك. ولكنّ طلاّب الكمال ،وأهل المروءة دائماً ما يتحصّنون بمثُلهم العُليا، فإذا كان الأمر يؤول إلى نيل محبة الله ورسولهﷺ جعلوا عوالق الدنيا و كوابدها كالعصف المأكول تحت الأقدام . فيعود أبو بكر بنفس راضية إلى وصل مسطح رغبة فيما عند الله و قهراً للنفس ،وترغيماً للشيطان .

ولعلي هنا أوجز بعض الجوانب التي تبين أبعاد القبول و مظاهره في شخصية الصديق رضي

(١) وكان مِسْطَح بن أثاثة بْن عباد بن عبد المطلب بْن عَبْد مناف كنيته أَبُو عباد ,وهو ابن خالة أبي بكر الصديق رضي الله عنهما شهد بَدْرًا توفي سنة أَربع وَثَلاثِينَ وَهُوَ بن سِتّ وَخمسين سنة ومن المهاجرين والمجاهدين مع رسول ﷺ ، وكان ممن سعى بالإفك فأقام رسول الله ﷺ الحد عليه وجلده. ينظر الثقات لابن حبان (٣/٣٨٣)،والطبقات الكبرى لابن سعد (٣/٥٣).
(٢) أسباب النزول للواحدي ص: ٢٣٣ ،والحديث جزء من حديث طويل رواه البخاري في صحيحه (٥/٦١١/ح١٤١٤).

الله عنه وأرضاه وهي :

- التصديق بالرسول والثقة التّامة بكل ما جاء به.

- كونه السابق إلى ذلك وفي وقت كان الرسول ﷺ أحوج ما يكون فيه إلى الوقوف والمؤازرة.

- دعم الدعوة والرسول ﷺبكل طاقاته المالية والبدنية حيث أوقف نفسه وما يملك لهذا الدين ولمن جاء به(١).

- الحب العظيم الذي يكنه لله ورسوله ﷺ يتجلى في تحمله معه مشاق الهجرة إلى المدينة وصحبته له في الغار .

- طهارة القلب من الأحقاد والضغائن للمسلمين كما دلّ على ذلك موقفه مع مسطح.

❊❊❊❊

(١) وفي ذلك قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي مَالِهِ وَصُحْبَتِهِ أَبُو بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلاً لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً) أخرجه مسلم في صحيحه(٤/١٨٥٤/ح٢٣٨٢).

ثانياً - الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

لم يثبت في ورود ما يخص أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالذكر في القرآن ولكن موافقة الله له في بعض ما أنزله في القرآن الكريم يدعونا للنظر في سيرة هذا الرجل الفذّ قال رضي الله عنه: "وَافَقْتُ اللَّهَ فِي ثَلاَثٍ، أَوْ وَافَقَنِي رَبِّي فِي ثَلاَثٍ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوِ اتَّخَذْتَ مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى، وَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، يَدْخُلُ عَلَيْكَ البَرُّ وَالفَاجِرُ، فَلَوْ أَمَرْتَ أُمَّهَاتِ المُؤْمِنِينَ بِالحِجَابِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ الحِجَابِ، قَالَ: وَبَلَغَنِي مُعَاتَبَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْضَ نِسَائِهِ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِنَّ، قُلْتُ: إِنِ انْتَهَيْتُنَّ أَوْ لَيُبَدِّلَنَّ اللَّهُ رَسُولَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْرًا مِنْكُنَّ، حَتَّى أَتَيْتُ إِحْدَى نِسَائِهِ، قَالَتْ: يَا عُمَرُ، أَمَا فِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا يَعِظُ نِسَاءَهُ، حَتَّى تَعِظَهُنَّ أَنْتَ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ ...الآيَةَ﴾"[1]. فلم يوافقه ربّه إلا لأنه مُسدّد منه، وملهمٌ له، ذو بصيرة ثاقبة، وقلب تغلغل في شغافه الإيمان، فقد كان أول من جهر بالإسلام، فكان صادق النية صافيَ الطوية. فالآية الأولى تبرُز حُبّه للعبادة والصلاة بخاصة، والآية الثانية تبين غَيرته على نساء النبي ﷺ وابتداره للشرّ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦/٢٠/ح٤٤٨٣).

قبل وقوعه ،والثالثة تكشف عن مقدار حبه وما يكنه لرسول الله الذي آلمه ما يحدث له في بعض بيوته فهرع للإصلاح. فلعمر الله كلّ صفة من هذه الصفات تقارع أُختها،فكلها محبوبة من الله مُقّرب صاحبها [١].

وعمر بن الخطاب هو الذي قَالَ فيه رَسول اللَّهِ صلَّى الله علَيْهِ وسلَّم: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ قَطُّ سَالِكًا فَجًّا إِلَّا سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ) [٢].

رجلٌ قوي ،عظيم النخوة والغيرة على الدين قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بن مسعود رضي الله عنه: ((مَازِلْنَا أَعِزَّةً مُنْذُ أَسْلَمَ عُمَرُ)) [٣] والله تعالى يحب الرجل القوي الإيمان وعمر هو ذلك الرجل، ذو عزيمة في أمر الآخرة، أكثر إقداماً على الجهاد وأسرع خروجاً في طلبه ،وأشد إصراراً في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ،وأكثر صلابةً وصبراً في ذات الله ، وأرغب وأنشط في الصلاة والصوم وسائر العبادات ، وفي ذلك قال الرسول ﷺ: (الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ) [٤] .

---

(١) ينظر صفة الصفوة لابن الجوزي (١/ ١٠٤)،وتاريخ الخلفاء للسيوطي ص:٩٩.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٢٦/ح٣٢٩٤).
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه(٥/ ١١/ح ٣٦٨٤) .
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٥٢/ح ٢٦٦٤).

وقال فيه النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ الْحَقَّ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ وَقَلْبِهِ) (١).

وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: مَا نَزَلَ بِالنَّاسِ أَمْرٌ قَطُّ، فَقَالُوا فِيهِ، وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِلَّا نَزَلَ القرآن على نحو مما قال عمر (٢).

ثم هو طراز فذّ تفهم سرّه فإذا هو على وفاق مع جهره ،لا تناقض في خلائقه ، من صفاته الشهيرة العدل حيث سوّى بينه وبين سائر الرعية ،حتى سمي بالفاروق ،والغيرة والفطنة حتى بلغ مبلغ البطولة النادرة (٣). ومما يدل على صفاء سريرته شهادة الصحابة له،فلما مرض أبوبكر الصديق دعا عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه فسأله عن عمر فَقَال عبد الرحمن: هُوَ وَاللَّهِ أَفْضَلُ مِنْ رَأْيِكَ فِيهِ ، ثُمَّ سأل عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ فَقَالَ: اللَّهمّ عِلْمِي بِهِ أَنَّ سَرِيرَتَهُ خَيْرٌ مِنْ عَلانِيَتِهِ، وَأَنْ لَيْسَ فِينَا مِثْلُهُ! (٤) .

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٦/٥٨/ح٣٦٨٢),وابن حبان في صحيحه ،ذكر الخبر المصرح بأن هذا القول إنما زجر عنه (١٥/٣١٨/ح ٦٨٩٥)،وروى نحوه أبو داود في السنن (٤/٥٧٩/ح ٢٩٦١) وصححه الألباني في صحيح الترمذي .

(٢) سبق تخريجه (٦/٥٨/ح٣٦٨٢).

(٣) ينظر عبقرية عمر للعقاد ص:٢٨-٢٩.

(٤) ينظر أسد الغابة (٣/٦٤٧).

مما سبق يظهر أبرز ما يميز عمر رضي الله عنه من سمات القبول التي هي:

- القوة في الدين.
- العدل وعدم المحاباة حتى سمي بالفاروق.
- النخوة والغيرة على العرض و الدين .
- البطولة والشجاعة في الحق.
- الوضوح فسريرته تكاد تفصح عن نفسها،وما هلك من هلك إلا بما تُكِنُّه الضمائر من خبث النوايا ،وسوء الخبايا ،وسواد الباطن ،وما تواريه النفوس من صدأ المعادن . ولعل من ينظر إلى كل خُلّة من خلال عمر الجليلة (القوة في الدين ,العدل ،النخوة ،صفاء السريرة) يقول لعل هذه التي بلغت به فرضي الله عنه وأرضاه .

❊❊❊❊

ثانيا: سمات المقبولين

القبول درجات متفاوتة وأهله يتفاوتون في الفضل كما بين السماء والأرض .

فالقبول قبولان قبول عام لأمة الإجابة ، وقبول خاص لمن اجتباهم الله واختارهم إليه وأسبغ عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبداً،وهو الذي نبحث في سماته ونتلمس نبعه تلمس الظمآن للماء .

إن العبد المؤمن إذا بلغ من الإيمان مبلغاً سامياً،وتطلعت نفسه إلى عليائه،وارتقى في مراتب الإحسان ،تقبله الله واصطفاه وخصّه بمزيد من القبول ،وقرّبه وأدناه ورفعه إلى منازل خاصّة المقبولين عنده.

وللمقبولين سمات وأوصاف نتلمسها من خلال استقراء آيات القرآن الكريم فيمن أثنى عليهم الله تعالى ورضي عنهم ويظهر من ذلك أن هناك سمات كلية جامعة وصفات تفصيلية فردية .

****

أولا: سمات كلية جامعة

١- طاعة الله ورسوله ﷺ: قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء:٦٩] فمن أرفع العباد منزلة ،وأوجبهم لمحبة الله واصطفائه وقبوله أكثرهم طاعة له ولرسوله ، وإنها لكبيرة إلا على الصادقين في جهاد أنفسهم وأهوائهم ،فما أكثر من يدّعون الطاعة لله ورسوله ﷺ وهم بعيدون عنها .فإذا وفّق الله العبد لطاعته كان ذلك من أعظم نعم الله عليه ،وأجلّ أفضاله على عبده. وقد عدّهم الله من أصفيائه الذين اختارهم وأنعم عليهم ولذلك قال: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ وكأنه لم ينعم سبحانه إلا على هؤلاء وذلك لأن جميع نعم الدنيا لا مجال لمقارنتها بهذه النعمة فهي النعمة الحقيقية ،وهي النعمة التامة المطلقة والنعمة الباقية[١].

فهي النعمة الحقيقية : لأنها موصلة إلى رضوان الله والهداية لسلوك صراطه المستقيم قال تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾ [الفاتحة].

---

(١) ينظر الفقه الأكبر (٩/٦٠١٧)،وبدائع الفوائد (٢/٣٤).

وهي النعمة التامة المطلقة: لأن فيها صلاح الدنيا والآخرة ومن عمل بها كان مع الذين قربهم الله من أوليائه وهم مراتب السعداء الأربعة في الآية السابقة: (النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ)(١).

وهي النعمة الباقية: لأنها ممتدة الأثر، باقية الثمر حتى تصل بصاحبها إلى الجنة حيث الخلد والمستقر.

ولما قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ أتبعها بقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ دلالة على أن الإنعام بطاعة الله ورسوله ﷺ ولزوم هديه هو الخير الذي ينبغي طلبه، والأمر الذي يجب نُشدانهُ والتعلق به، فمن تفضّل الله به عليه فهو الفضل الذي لا عِدل له، والنعمة التي لا تعدلها نعمة على الإطلاق قال سبحانه وتعالى:

﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨].

٢- الخلوص من الشرك قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]. أي لا يحصل الأمن من سخط الله وعقابه ومن فزع يوم القيامة ولا يكون الاهتداء إلى الصراط المستقيم إلا لمن لم يلبس إيمانه بظلم.

(١) ينظر مفتاح دار السعادة لابن القيم ص: ٧٨.

ومعنى اللبس في ﴿يَلْبِسُوٓاْ﴾ هو الخلط و الممازجة[١] والظلم المقصود هو الشرك مع الله وهو الشرك الاعتقادي، لا ظلم النفس بالمعاصي[٢] قال تعالى:﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] وهذه بلا شك أهم سمات المقبولين ، وهؤلاء هم أهل الاصطفاء والقبول العام وهم الطوائف الثلاثة الذين قال الله تعالى فيهم[٣]:﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[فاطر: ٣٢] .

فالخلوص من الشرك قيامٌ بحق الله تعالى وتوحيدٌ له الذي لا يقبل الله معه العمل ولا العبد كائناً ما كان . ويدخل في هذا الشرك اليوم التوجه إلى غير الله في طلب كشف الكربات وقضاء الحاجات ،وتعليق التمائم وغير ذلك ، لأنه توجهٌ بالعبادة إلى غير المعبود الحقّ مما يعدّ سالباً للأمن ، المقصود في الآية رافعاً للهداية[٤].

كما يدخل في الشرك بالله بعض البدع التي تصاحب الاحتفال بمولد الرسول ﷺ وما يكون فيه

(١) ينظر المفردات في غريب القرآن ص: ٧٣٥،(١/ ٤٦٤).
(٢) ينظر تفسير ابن أبي حاتم (٤/ ١٣٣٣)،وتفسير السمر قندي (١/ ٤٦٤).
(٣) ينظر الإيمان لابن تيمية ص:٦٨.
(٤) ينظر تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد لسليمان بن عبد الوهاب ص: ٤٩ .

من شركيات وغلوّ في مدحه والاستغاثة به فمن البدع ما يدخل في الاعتقاد ويقدح في التوحيد.

ولابد من ذكر الشركيات الحديثة التي روج لها العلم الحديث ،ومن العلوم الطبية المزعومة (علم الطاقة) والذي يعدّ تطويراً وتطبيقاً بأسلوب حديث وثوب جديد للتنجيم ،ويتلخص في الاعتقاد بوجود طاقة كونية إلهية ثنائية القوى تحيط بالكون ،وتؤثر في الأشياء وتعد معرفتها وطرق اجتلابها طريق سعادة المرء ونجاحه في كل مناحي الحياة . وهذه الطاقة تتركز بزعمهم في الأشياء من حولنا كالأحجار الكريمة والألوان المختلفة ،والأشكال الهندسية وغير ذلك فيدعون الاستشفاء بها [(١)].

٣- الحرص والثبات على الدين الحق :

ولا يخفى على الناظر إلى العالم اليوم ما انتشر في مختلف الأوساط وعلى قنوات التواصل المجتمعي والإعلامي كالشبكات والفضائيات وغيرها من مظاهر البعد عن الدين ،ومحاولة لطمس معالم الشريعة ،واستعراض النظّار والفلاسفة ومن لا دين لهم ما ران على قلوبهم من جهالة وضلال،وانتشار الإلحاد والعلمانية والعقلانية وغيرها من المسميات الحديثة ،لهي فتنٌ محيقةٌ بالمسلم ،مركّبةٌ من أمشاج مختلفة ،من علوم وفلسفات ،تلبّس على المسلمين أمور دينهم

(١) ينظر أصول الإيمان بالغيب وآثاره للدكتورة فوز كردي ص: **٤٣٣- ٤٣٦**.

تحت مسميات العلم والتجديد ولغة العصر والثقافة والوعي الكاذب ،وهي فتن هوجاء تعصف بالشباب ،وتقوّض بيوتاً قامت على الجهل وقلة في الدين وغفلة عن يوم الحساب . فيجدر بالمسلم أن ينشد العلم والفقه وأن ينهل من الماء الرقراق من جداوله الصافية ،والتمسك بعقيدة أهل السنة والجماعة،وأن يسوق عقله إلى مواطن الحكمة ويبعُد به عن سفسطات ما ينشُره الملبّسون وشِقشقات ألسنتهم .حفظاً لدينه وتحرزاً لصفاء عقيدته،قال تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٧٠]. قال ابن القيم في نونيته :

والله ما خوفي الذنــــوب فإنها لعلى طريق العفو والغفران

لكنما أخشى انسلاخ القلب من تحكيم هذا الوحي والقرآن

ورضا بآراء الرجال وخرصها لا كان ذاك بمنة الرحمن (١)

فالدين هو الحصن المنيع الذي يدّرئُ المسلم به ،و ينشُد به القبول عند ربه ، وحتى لايكون الحديث في فضاء العموم ومساحة الإجمال فيحسن التعريج في الهامش على بعض هذه المصطلحات والمفاهيم الحديثة البعيدة كل البعد عن الدين وعن القبول ومنها على سبيل المثال

(١) متن القصيدة النونية لابن القيم ص: ٣٥٥.

العَلمانية والعقلانية والوجودية [١].

وهناك العديد من المذاهب المعاصرة والحركات والدعوات وغيرها تصرح بالإلحاد والردة والحرية الفردية نشطت في العالم العربي تحت مسمى النهضة وحرية الفكر والدعوة إلى المنطق وغير ذلك من المسميات المضللة ،والمصطلحات البرّاقة التي تميل إليها العقول الخاوية،والنفوس

(١) ١- العَلمانية : بفتح العين وهي (اللادينية) أو (الدنيوية) وما لا صلة له بالدين، ويتضح ذلك من تعريف دوائر المعارف الأجنبية للكلمة فتقول دائرة المعارف البريطانية: (هي حركة اجتماعية تهدف إلى صرف الناس عن الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بالحياة الدنيا وحدها). وتعرفها دائرة المعارف الأمريكية: (هي : نظام أخلاقي أسس على مبادئ الأخلاق الطبيعية ومستقل عن الديانات السماوية أو القوى الخارقة للطبيعة..) . هذه هي العلمانية في أحد أثوابها ومنها ما لم يصل لحد الخروج عن الدين ويتمثل ذلك في بعض الجهلة من المسلمين الذين تبنّوها وساروا وراءها . ينظر العلمانية وموقف الإسلام منها لحمود الرحيلي ص: **٣٣٤**
٢-العقلانية : هي منهج فكري فلسفي يعتمد على تحكيم العقل، من غير الاستناد إلى الدين أو التجربة، فكل ما يحيط بنا مردود إلى مبادئ عقلية. والعقلانية درجات قد يوغل فيها المرء حتى تخرجه عن الدين بالكلية عياذاً بالله. ينظر الألفاظ والمصطلحات المتعلقة بتوحيد الربوبية ص: **٣٣٩**.
٣-الوجودية : مذهب يقوم على إبراز قيمة الوجود الفردي ، وخصائصه،و ينظر إلى الإنسان على أنه وجود لا ماهية، وأن له مطلق الحرية في الاختيار، فهو يصنع نفسه بنفسه، ويملأ الوجود على النحو الذي يلائمه . ويرى سارتر – وهو من رواد الوجودية الإلحادية – أن قوله: (الإنسان حر) مرادف لقوله: (إن الله غير موجود)، لأن وجود الإنسان في اعتقاده لا يخضع لماهية ،أو هيمنة ما، أو شيء محدد. ينظر الألفاظ والمصطلحات المتعلقة بتوحيد الربوبية ص: **٣٣٩**.

الساهية الجافية ،نسأل الله السلامة والعافية .

****

وإجمالاً لما سبق،فهذه ثلاث سمات عامة كلية يتفاوت الناس في مراتبها،فبالنظر إلى طاعة الله ورسوله ﷺنجد أن الناس يتفاوتون في تحقيقها،وكلما ارتقى العبد في تحقيق الطاعة لله ورسوله ارتقى عند الله في معارج القبول،فالطائعون بعامة لهم سمتان رئيستان تندرج فيهما كل السمات فهم يتصفون بالإيمان الحقيقي وكذلك الإحسان ،أما صفة الإسلام وحدها فلا يُسمى العبد بها طائعاً كما سيأتي التفصيل في آية الأعراب[1] بدليل قوله : ﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔا﴾ [الحجرات: ١٤]. فالإيمان والإحسان سمات كليّة يتصف بها العبد من حيث إنها تستغرق جميع أنواع العبادات والمعاملات والأخلاق وهي الباعث لجميع السمات الحسنة ،ولكن ليس بالضرورة أن يكون عموم الناس محسنين بل فيهم مؤمن غير محسن فالإحسان أخصّ من حيث العمل به وتطبيقه فالمحسنون فئة منّ الله عليها بهذه الخصيصة. وكذا نجد أن الخلوص من الشرك ،والحرص والثبات على الدين تنشأ عن تطبيقهما سمة أخرى

---

(١) ينظر منازل المقبولين ص:٢٠٧ .

كلية وهي سمة التقوى[١] ويتفاوت الناس في تحقيقها كذلك ويترقّون في معارجها.

وكما قيل في الإحسان من حيث الخصوص والعموم يُقال في التقوى ولذلك ذكرتهما في القبول الخاص لأفراد وفئات في منازل المقبولين ،فالتقوى كالإحسان من حيث أنها تستغرق جميع أنواع العبادات والمعاملات والأخلاق ،فالتقوى أخص من الإيمان من حيث العمل بها وتطبيقها ،فقد يتقي العبد ربه في أمور ويفرط في أخرى ،لكن لا يكون مؤمناً بأمور من الدين كافراً بأخرى .

والذي يظهر أن الفرق بين الإحسان والتقوى وكلاهما عام مستغرق جميع مناحي الدين والحياة ولكن التقوى هي الإتيان بالعمل على وجه الإجزاء على الغالب ،اتقاء للمساءلة ودفعاً للعقاب،أما الإحسان فهو ما كان الإتيان به على وجه الكمال والتمام حباً للوصول إلى أعلى المراتب.

****

(١) هذا لا ينافي تغاير معنى التقوى بحسب السياق ،قال ابن جزي :« درجات التقوى خمس: أن يتقي العبد الكفر، وذلك مقام الإسلام، وأن يتقي المعاصي والحرمات وهو مقام التوبة، وأن يتقي الشبهات، وهو مقام الورع، وأن يتقي المباحات وهو مقام الزهد، وأن يتقي حضور غير الله على قلبه ،وهو مقام المشاهدة » تفسير ابن جزي (١/ ٦٩) ،ولعله يعني بمقام المشاهدة الإخلاص ودوام استحضار مراقبة الله له ومشاهدته لعمله .

ثانياً: سمات فردية

جاءت نصوص القرآن الكريم مُجلّيةً لكثير من سمات أهل الإيمان ،كما امتدحت فئاتٍ منهم وأثنت عليهم بصفات جليلة،وقد بين الله تعالى في القرآن الكريم حُبّه للمتصفين بها ويمكن الرجوع إليها في مطلب القبول الخاص لأفراد وفئات منعاً للتكرار[1]،والفرق بين القبول الخاص والسمات الفردية أن الأولى فئات ذكرت في القرآن بمسميات خاصة (المتقين ،المحسنين..) أما السمات الفردية فقد ذكرت في القرآن الكريم كأفعال خاصة تميّز بها بعض أهل الإيمان وهي:

أ-الصبر على المكاره :قال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٢] وقال تعالى:﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٦ - ١٥٧] أوجب الله تعالى على نفسه الصلوات وأنزل الرحمات على كل مؤمن صابر، وبشره بالهداية ، لأن الاستسلام لقضاء الله يهدي القلب ، ويملأه يقيناً ويوجب الرضا عن الله فيرضى عنه ويدخله في زمرة عباده المقبولين. قَالَ ابن عباس رضي

(١) ينظر ص : **٢١٦** من هذا الفصل في (قبول خاص بأفراد وفئات) .

الله عنه: «أَخْبَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا سَلَّمَ لِأَمْرِ اللَّهِ وَرَجَّعَ وَاسْتَرْجَعَ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ، كَتَبَ اللَّهُ لَهُ ثَلَاثَ خِصَالٍ مِنَ الْخَيْرِ: الصَّلَاةُ مِنَ اللَّهِ، وَالرَّحْمَةُ، وَتَحْقِيقُ سَبِيلِ الْهُدَى»[1].

والصبر يوجب العمل والمجاهدة ولا يقتصر على الشدائد والمصائب والأقدار فالصبر يكون كذلك على الثبات على الطاعة أمام الملهيات،والصبر عن المعصية أمام المغريات.

كما أن من الصبر درء السيئة بالحسنة والدرء هو الدفع وذلك يستلزم درء صاحب السيئة عن سيئته بحسن الخلق،ودرء النفس عن اتباع الهوى في حب الانتقام والانتصار لها ومراعاة حظوظها بتغليب محاب الله عليها قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[القصص: ٥٤]

ويخبر القرآن الكريم وكذلك السنة المطهرة عن كثير من الناس ابتلي بالنعماء فلم يصبر كقارون الذي جحد المنعم ،وقصة الثلاثة نفر المشهورة في السنة حيث افتتن الأقرع والأبرص وثبت الأعمى[2]، وبلعام بن باعوراء عالم من علماء بني إسرائيل الذي قال الله تعالى في شأنه:

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٢٦٤).
(٢) ينظر الحديث في صحيح مسلم (٤/٢٢٧٥/ح ٢٩٦٤).

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾[الأعراف: ١٧٥]. وَقد كَانَ هذا الرجل مُجابُ الدَّعْوَةِ ،يَقْدم قومه عِنْدَ الشَّدَائِدِ، فَبَعَثَهُ نَبِيُّ اللَّهِ مُوسَى عليه السلام إِلَى مَلِكِ مَدْيَنَ يَدْعُوهُ إِلَى اللَّهِ ، فَأَقْطَعَهُ وَأَعْطَاهُ فَتَبِعَ دِينَهُ وَتَرَكَ دِيْنَ مُوسَى عليه السلام[١].

ب – عدم الإصرار على الذنب : قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾[آل عمران: ١٣٥ – ١٣٦].

والإصرار في اللغة : هو العزم على المضي في الأمر ،والتشديد عليه[٢]. والعزم على المضي في الأمور المحمودة مطلوب لتحقيقها، ونيل رضا الله من ورائها .أما العزم في الأمور المذمومة

(١) ينظر تفسير ابن أبي حاتم (١٦١٨/٥).
(٢) لسان العرب (٣٢٥/٧)،والكليات ص:٥٢.

فهو مدعاة لغضب الله واستجلاب لنقمته وانتقامه ، لذلك فمن سمات المقبولين عدم العزم على الذنب و عقد النية عليه، فإن حدث الذنب اتفاقاً وكل ابن آدم خطاء فإنهم لا يصرون عليه ، ولا يعقدون العزم على الاستمرار فيه، لأن الإصرار طاعة للهوى، ومبارزة للخالق بالمعصية وهذا مما يقدح في الإخلاص ويدخل في إشراك عبادة الهوى مع الله . لذا فإن هؤلاء قد جردوا أنفسهم من طاعة الهوى ، وجعلوا محبتهم لربهم حاجزاً عن الانقياد وراء النفس والهوى والشيطان (١) .

ج - : الإشفاق والخوف من الله: قال الباري عزوجل:﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢ – ٤].

نهج القرآن الكريم على بيان سمات المقبولين في أسلوب بارع مشوّق فهو ينتقل من أسلوب الأمر إلى الإنشاء إلى الأسلوب التصويري التخيلي الداعي إلى التفكّر ومن ثم الاتباع والاقتداء.

ومن معالم الشخصية المؤمنة التي حظيت بالقبول عند خالقها هي الشخصية المتصفة بوجل القلب ورقته عند سماع ما يدعو لذلك . فالقلب الوجِل تُثار أشواقه وتتفطر تُربته عند استشعار

(١) ينظر تفسير ابن أبي حاتم (٣/ ٧٦٦),وتفسير البغوي(٢/ ١٠٧).

عظمة خالقه ،أو عند تخيّل المآل إما عن الجنة شوقاً ورجاء وإما عن النار خوفاً ووجـلاً.

هذه الشخصية يجتمع فيها الحب لخالقها وتعظيمه واللجأ إليه ،والخوف منه والفرار إليه،تقدم الطاعة والعمل مصحوباً بالإشفاق والخوف. والإشفاق هو أن يكون العمل مقروناً بالحذر. وبالنظر في آيات الإشفاق تظهر أسبابه ومنها:

١ - الإشفاق و رهبة الموقف بين يدي الخالق العظيم مع قلة الزاد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِيـــنَ هُـــم مِّـــنْ خَشْـــيَةِ رَبِّهِـــم مُّشْـــفِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧].الإشفاق من أهوال يوم الحساب وشدّته قال تعالى:﴿ٱلَّذِيـــنَ يَخْشَـــوْنَ رَبَّهُـــم بِٱلْغَيْـــبِ وَهُـــم مِّـــنَ ٱلسَّـــاعَةِ مُشْـــفِقُونَ﴾[الأنبياء: ٤٩]. الإشفاق والخوف من مكر الله الذي بيده متقلّب القلوب والأبصار أن يكلهم إلى أنفسهم فتنقلب حالهم من الثبات على الطاعة إلى الانجراف وراء الفتن والمغريات مما يعرضهم لسخط الله عاجلاً ،وعقابه آجلاً وفي ذلك قال :﴿وَٱلَّذِيـنَ هُـم مِّـنْ عَـذَابِ رَبِّهِم مُّشْـفِقُونَ﴾ [المعارج: ٢٧] و زاد ابن القيم رحمه الله في منزلة الإشفاق ما مفهومه:

٢- إشفاق على الخلق لمعرفة معاذيرهم و ما هم صائرون إليه من مخالفة الأوامر والمناهي وملاحظة جريان القدر عليهم.

٣–إشفاق على الوقت أن يشوبه تشتت أو صارف يصرفه عن الخالق من شهوة أو شبهة.

٤–إشفاق على اليقين المتمكن في القلب أن تخالطه الأسباب فيركن إليها ويتعلّق بها ونسيان المسبب.

إشفاق يصون عمله من الضياع أن يشوبه شرك أو معاصٍ محبطة ،ويصون سعيه عن العجب ورؤية العمل مما يفسده ويُدخل عليه الرياء وابتغاء الثناء والرفعة في الدنيا. [(١)].

د – : الرحمة وإسداء المنفعة للخلق: الله تعالى هو الرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء،يحب من عباده الرُّحماء ويدخلهم في رحمته التي هي أوسع أبواب القبول قال النبي ﷺ: (الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ...) [(٢)]

فإذا كان الراحم من عصاة المؤمنين أو من الغافلين قليل العمل ،كثير الزلل ،فإن تلك الرحمة قد تكون سبباً في قبول الله لعمله ،ومحو كبير زلله،وتجاوزه عن تقصيره ،ويغمره برحمته وغفرانه وإن بلغت ذنوبه عنان السماء، فالله تعالى هو الرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء ،وهو الأحق من عبده برحمة عباده،وفي هذا قال الرسول ﷺ: (بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ فَوَجَدَ

---

(١) ينظر مدارج السالكين ص٥١٤ .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٤/٣٢٣/ح١٩٢٤)،وأحمد في المسند (١١/٣٣/ح٦٤٩٤) ،وأبو داود في السنن (٤/٢٨٥/ح٤٩٤١) ،والبيهقي في السنن الكبرى (٩/٧١/ح١٧٩٠٥) ,وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

بِئْرًا، فَنزَلَ فِيهَا، فَشَرِبَ، ثم خَرَجَ، فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبَ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِي بلغني، فَنَزَلَ الْبِئْرَ فَمَلأَ خُفَّهُ ماء، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ حَتَّى رَقِيَ فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ لَأَجْرًا؟ فَقَالَ: فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ)[١]. يُلاحظ أن الحديث الشريف لم يعرّج على طبيعة عمل الرجل الذي سقى الكلب بل غض الطــرف عنه مما يعني أن الله غفر له على ما كان من عمل مادام على الإيمان بالله.

قال صاحب عمدة القاري «فَشكر الله لَهُ حَتَّى أدخلهُ الْجنَّة. قَوْله: فَشكر الله لَهُ، أَي: أثنى عَلَيْهِ أَو قبل عمله، فغفر لَهُ، فالفاء فِيهِ للسَّبَبِيَّة، أَي: بِسَبَب قبُول عمله غفر لَهُ ... وَيجوز أَن تكون الْفَاء تفسيرية، تَفْسِير قَوْله: فَشكر الله لَهُ لِأَن غفرانه لَهُ هُوَ نفس الشُّكْر»[٢].

ويؤيد ذلك حديث البَغِيّ التي سقت الكلب قال عليه الصلاة والسلام: (أَنَّ امْرَأَةً بَغِيًّا رَأَتْ كَلْبًا فِي يَوْمٍ حَارٍّ يُطِيفُ بِبِئْرٍ، قَدْ أَدْلَعَ لِسَانَهُ مِنَ الْعَطَشِ، فَنَزَعَتْ لَهُ بِمُوقِهَا فَغُفِرَ لَهَا)[٣].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ١١١/ح٢٣٦٣).
(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (١٢/ ٢٠٦).
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه(٤/ ١٧٦١/ح٢٢٤٥). قال النووي والموق بِضَمِّ الْمِيمِ هُوَ الْخُفُّ (١٤/ ٢٤٢/ ح٢٢٤٥)..

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: كَانَتْ شَجَرَةٌ فِي طَرِيقِ النَّاسِ تُؤْذِي النَّاسَ، فَأَتَاهَا رَجُلٌ فَعَزَلَهَا عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَتَقَلَّبُ فِي ظِلِّهَا فِي الْجَنَّةِ)[١].

ومثله قوله عليه الصلاة والسلام : (أَرْبَعُونَ خَصْلَةً أَعْلاَهُنَّ مَنِيحَةُ العَنْزِ، مَا مِنْ عَامِلٍ يَعْمَلُ بِخَصْلَةٍ مِنْهَا رَجَاءَ ثَوَابِهَا، وَتَصْدِيقَ مَوْعُودِهَا، إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ بِهَا الجَنَّةَ) قَالَ حَسَّانُ: فَعَدَدْنَا مَا دُونَ مَنِيحَةِ العَنْزِ، مِنْ رَدِّ السَّلاَمِ، وَتَشْمِيتِ العَاطِسِ، وَإِمَاطَةِ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَنَحْوِهِ فَمَا اسْتَطَعْنَا أَنْ نَبْلُغَ خَمْسَ عَشْرَةَ خَصْلَةً [٢].

من خلال تآزر الأدلة السابقة وغيرها كثير يتأكد أن رحمة الخلق وإسداء النفع إليهم عمل يحبه الله ويتقبله بل إن الله تعالى يثيب عليه العبد الكافر بثواب دنيوي فكيف بالمؤمن قال ﷺ: (إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً، يُعْطَى بِهَا فِي الدُّنْيَا وَيُجْزَى بِهَا فِي الْآخِرَةِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِ

---

(١) أخرجه أحمد في المسند(٢١/٩٩/ح١٣٤١٠) ،وأبو يعلى في مسنده(٥/٣٩٢/ح٣٠٥٨)،والمنذري في الترغيب والترهيب(٣/٤٥١٢) وقال الألباني :(حسن صحيح) في صحيح الترغيب والترهيب (٢٩٧٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/١٦٦/ح٢٦٣١) ومنيحة العنز هي الناقة أو الشاة أو أنثى الضأن والماعز ذات الدرّ تُعار للأخ أو تُمنح للجار أو غيره ليستفيد من لبنها زمناً ، ثم ترد إلى أهلها ،ينظر شرح ابن بطال على صحيح البخاري (٧/١٥٠) ، ولسان العرب (٩ /٤٢٢).

مَا عَمِلَ بِهَا لِلَّهِ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الْآخِرَةِ، لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَى بِهَا)[١].

وقد وصف الله المؤمنين بالرحمة فيما بينهم فقال ﷺ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ﴾[الفتح: ٢٩].وأرسل رسوله ﷺ رحمة للناس كافة فقال:﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[الأنبياء: ١٠٧].

وخلاصة الأمر فإن هذه الصفات السالفة الذكر من أهل الإيمان صفات محبوبة من الله تعالى ،قد يقبل الله تعالى العبد لخصلة واحدة منها ،وكلما اجتهد العبد في الاتصاف بجميعها كان أدعى للقبول والرفعة في الدرجات.

****

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/٢١٦٢/ح٢٨٠٨).

ثالثاً : منازل المقبولين

هناك علاقة وطيدة وترابط وثيق بين سمات المقبولين وحُسن تطبيقهم لمراتب الدين وبين القبول والارتقاء إلى عليين . فسمات المقبولين وحسن أخلاقهم فاعلة ومؤثرة على القول والعمل وبناء على ذلك ترتفع منازلهم عند الله بعد سبوغ فضله ورحمته فقد بين النبي الكريمﷺ أن أقربهم منه مجلساً يوم القيامة أحاسنهم أخلاقاً[١] ،وبين أن العبد يرتقي بحسن خلقه إلى درجة الصائم القائم[٢] .

ومن جهة ثانية فإنّه على حسب الإخلاص وتطبيق شرائع الدين يكون الارتقاء في مراتبه من إسلام فإيمان فإحسان،وبناء على حُسن القيام بها من قبَل العبد وملاءمتها لمقام الرب جلّ وعلا يرفعه بها في منازل القبول ،ولذلك قال تعالى في شأن الأعراب :﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٤] ومعنى :﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ﴾أي:

---

(١) الحديث : (إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِساً يَوْمَ القِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلاَقاً، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِساً يَوْمَ القِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ وَالمُتَشَدِّقُونَ وَالمُتَفَيْهِقُونَ) أخرجه الترمذي في السنن (٤/ ٣٧٠/ح٢٠١٨)،وأخرج نحوه البيهقي في الشعب (١٠/ ٣٥٩/ح٧٦٢٢)،وروى نحوه ابن حبان في صحيحه(٢/ ٢٣١/ح٤٨٢)، وأحمد في المسند (٢٩/ ٢٦٧/ح١٧٧٢٣) وقال الألباني:(صحيح) في صحيح الترمذي.

(٢)الأدب المفرد(٤/ ٢٥٢/ح٤٧٩٨)،والبيهقي في شعب الإيمان(١٠/ ٣٦٤/ح٧٦٣٢)،وقال الألباني : (صحيح)في صحيح أبي داود .

لَمْ تُصَـدِّقُوا عَـنِ اعْتِقَادِ قَلْبٍ وَخُلُوصِ نِيَّةٍ وَطُمَأْنِينَةٍ﴿وَلَٰكِن قُولُـوٓاْ أَسۡـلَمۡنَا﴾أَيْ: اسْتَسْلَمْنَا خَوْفَ الْقَتْلِ وَالسَّبْيِ أَوْ لِلطَّمَعِ فِي الصَّدَقَةِ. لِأَنَّهُمْ أَسْلَمُوا فِي ظَاهِرِ الْأَمْرِ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ [(١)].

وهذا يعني أن إسلامهم على تلك الحال لا يقبله الله حيث لم يرقَ بهم إلى درجة القبول المستلزم للإيمان المطلوب الذي هو ما وقر في القلب وصدّقه العمل .ولذلك قال :﴿وَإِن تُطِيعُـواْ ٱللَّهَ وَرَسُـولَهُۥ﴾ فإن أَطَاعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهِ ﷺ وخلص توجههم لله فإن الله وعدهم بقوله: ﴿لَا يَلِتۡكُـم مِّـنۡ أَعۡمَٰلِكُـمۡ شَـيۡـًٔا﴾ أي آجَرَهُم اللَّه عَلَى العمل ولم ينقصهم ثوابه [(٢)].

إذن فالسمات هي العوامل المؤثرة في منازل المقبولين وقربهم من الله عزوجل ومنازل القبول عند الله درجات ومراتب كذلك بحسب سماتهم ،وفيما يلي التفصيل فيها:

---

(١) ينظر فتح القدير (٥/ ٧٩)،وتفسير الطبري (٢٢/ ٣١٤)،وتفسير ابن كثير (٧/ ٣٨٩).
(٢) ينظر مجموع الفتاوى (٧/ ٢٣٨).

أولاً : قبولٌ عام لأمة الإجابة

المراد بالقبول العام هو أدنى درجات القبول التي تتضمن النجاة من الخلود في النار .

وينقسم الناس بالنسبة لقبولهم لدعوة الرسول ﷺ إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول: أمة الدعوة: دعوة النبي ﷺ كافة للإنس والجن ويدخل في هؤلاء الكفار واليهود والنصارى وغيرهم بعد بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى قيام الساعة قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [سبأ: ٢٨] وهؤلاء إن لم يجيبوا الدعوة ويؤمنوا فليس فيهم خير وهم من أهل الخلود في النار[١].

القسم الثاني: أمة الإجابة: وهم الذين آمنوا بالله وشهدوا للنبي ﷺ بالرسالة ودخلوا في دين الإسلام ممن أدرك حياته ﷺ أو جاء بعده [٢] ،فهؤلاء جميعهم وإن تفرقت بهم السبل فكانوا ثِنْتَيْن وسَبْعِين فِرْقَة كما في الخبر ودخلوا النار فقد منّ الله عليهم بالقبول العام وهو النجاة من الخلود في النار بعفوه وكرمه إلا من خرج منهم من دائرة الإسلام ،أو أبطن الكفر[٣]

(١) ينظر القول المفيد على كتاب التوحيد لابن عثيمين (٢/ ٤٦٥).

(٢) ينظر فتح الباري لابن حجر (١١/ ٤١١)،وفوائد من شرح كتاب التوحيد لعبد العزيز السدحان ص: ٦٨ ،وقمع الدجاجلة في معتقد أئمة الإسلام الحنابلة لعبد العزيز الراجحي ص: **٣٧١**.

(٣) يدل حديث الرسول ﷺ: (وإنَّ هذه الملةَ ستفترقُ على ثلاثٍ وسَبعينَ: ثنتانِ وسبعونَ في النَّار، وواحدةٌ في الجنة، وهي الجماعة) والحديث أخرجه أبو داود في السنن (٧/ ٦/ح٤٥٩٧) وقال الأرناؤوط

القسم الثالث :أمة الاتباع: و هؤلاء هم المؤمنون وهم الفرقة الناجية ومنهم الصالح ومنهم والعاصي[١] .

قال تعالى فيهم:﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [فاطر: ٣٢].

فهم أصناف ثلاثة :

١ – صنف الظالمين لأنفسهم من المؤمنين[٢]:

: (حديث حسن). قال العلماء أن المقصود من لفظ(أمتي) هي أمة الإجابة لا أمة الدعوة لأن أمة الدعوة يدخل فيها الكفار واليهود والنصارى وغيرهم ممن لم يُجب الدعوة وهؤلاء مخلدون في النار لكفرهم ،ينظر فتح الباري (١١/ ٤١١)،وعمدة القاري (٨/ ٤) . ثم هناك قوله ﷺ: (يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ شَعِيرَةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ بُرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلا اللَّهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٧/ ح٤٤) بين العلماء بناء على ذلك أن من الفرق المفترقة عن هذه الأمة مالم يبطن الكفر منهم فهم ناجون من الخلود في النار بعد عفو الله ،أما من أبطن الكفر منهم فهم ليسوا من أمة الإجابة قال ابن تيمية (طَائِفَةٌ مِنْ الْعُلَمَاءِ مِنْ أَصْحَابِ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِمْ قَالُوا: إنَّ الْجَهْمِيَّةَ كُفَّارٌ فَلاَ يَدْخُلُونَ فِي الاثْنَتَيْنِ وَالسَّبْعِينَ فِرْقَةً كَمَا لَا يَدْخُلُ فِيهِمْ - الْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ يُبْطِنُونَ الْكُفْرَ وَيُظْهِرُونَ الْإِسْلاَمَ وَهُمْ الزَّنَادِقَةُ) مجموع الفتاوى(٣/ ٣٥٠).

(١) ينظر فتح الباري لابن حجر (١١/ ٤١١).

(٢) الظلم على إطلاقه درجات أقصاه: الكفر والشرك بالله، قال ابن تيمية : (وأما لفظ [الظلم] المطلق،

وهم المفرّطون في الفروض والواجبات، المصرّون على الذنوب، وأصحاب الكبائر، فمنهم من يأتي بالمأمــورات ويفرط أكبر التفريط في المنهيات أو العكس ،ومنهم من لم يلتزموا شرائع الدين كله مع أنهم معترفون به غير منافقين ولا مستكبرين ، ولا هم ممن يُعذرون بجهلهم،كمن كان قريب عهد بالإسلام أو نشأ في بيئــة بعيدة عنه،لكن اتباع الهوى لبّس عليهم الحق،فهؤلاء إن ماتوا وفي قلوبهم شيء من الإيمان واعتراف بألوهية وربوبية الله عزوجل نجوا من الخلود في النار وذكر ابن تيمية أن من في قلبه مثقال ذرة من إيمانٍ،فهو يُثاب على أعماله وهو مُسلم ومعه إيمان يمنعه من الخلود في النار(١). فقبولهم قبول إجزاء لإيمانهم.

فيدخل فيه الكفر وسائر الذنوب) ينظر كتاب الإيمان ص: **٥٣**. كما أن المقتصدين يتفاوتون في درجاتهم وكذلك السابقون ؛ بدليل قوله تعالى ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾ ..الآية [الإسراء: **٢١**] وذلك لتفاوت الناس في درجات الصلاح والفساد. قال السعدي في كتاب التوضيح والبيان لشجرة الإيمان: ((المؤمنون ثلاث مراتب مرتبة السابقين، ومرتبة المقتصدين ومرتبة الظالمين. وكل واحدة من هذه المراتب أيضا، أهلها متفاوتون تفاوتا كثيرا)) ينظر الكتاب ص: **٩٦**. و مرتبة (الظالمين لأنفسهم) في الآية المراد بها عصاة المسلمين وليس الكفار؛ لأن الله تعالى قال في أول الآية: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَا﴾. فالثـلاثة الطوائف هم من المصــطفين عند الله،ينـظر كتاب الإيمان ص: **١١** و **٦٨** .

لأنفسهم) في الآية المراد بها عصاة المسلمين وليس الكفار؛ لأن الله تعالى قال في أول الآية: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَا﴾.. فالثــلاثة الطوائف هم من المصــطفين عند الله،ينــظر كتاب الإيمان ص: **١١** و **٦٨** .

(١) ينظر مجموع الفتاوى (**٧/٢٣٨**) .

وهؤلاء الظالمون لأنفسهم هم المُـرْجَؤُون للمشيئة الإلهية؛ فإما أن يعفو الله عنهم وإما أن يعذبهم على تقصيرهم كما قال: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٦] فهم على خطر من التعرض للعذاب في البرزخ، وإن لم يفِ عذاب البرزخ بتمحيصهم من الذنوب فقد يتعرضون للعذاب في عرصات يوم القيامة حتى يخلُصوا من الذنوب، فإذا خلصوا وطابوا دخلوا في جملة الذين يقال لهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]. وإلا محّصوا في النار قبل دخولهم الجنة ثم تُقبل طاعاتهم وحسناتهم التي عملوها.

فقبول هؤلاء ينجيهم من الخلود في جهنم ثم يكون مآلهم بعد التمحيص، إلى الجنة بعد عفو الله تعالى. وهم درجات متفاوتة (أَنَّ عُصَاةَ الْمُوَحِّدِينَ الَّذِينَ تَمَسُّهُمُ النَّارُ بِقَدْرِ ذُنُوبِهِمْ، مُتَفَاوِتُونَ تَفَاوُتًا بَعِيدًا: مُتَفَاوِتُونَ فِي مِقْدَارِ مَا تَأْخُذُ مِنْهُمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى كَعْبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ إِلَى أَنْصَافِ سَاقَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ إِلَى حِقْوَيْهِ، ومنهم من تأخذه كُلَّهُ إِلَّا مَوَاضِعَ السُّجُودِ. وَكَذَلِكَ يَتَفَاوَتُونَ فِي مِقْدَارِ لَبْثِهِمْ فِيهَا وَسُرْعَةِ خُرُوجِهِمْ مِنْهَا؛ لِأَنَّهُمْ مُتَفَاوِتُونَ فِي الْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ الَّذِي بِسَبَبِهِ يَخْرُجُونَ مِنْهَا وَلَوْلَاهُ لَكَانُوا مَعَ الْكَافِرِينَ خَالِدِينَ مُخَلَّدِينَ أَبَدًا)[1]. وقد أشار القرآن إلى الظالم الموحّد في سورة فاطر بلفظ ﴿ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ [٣٢].

(١) معارج القبول بشرح سلم الوصول لحافظ الحكمي (٣/١٠٠٨).

٢- صنف المقتصدين : وهم الذين اقتصروا على أداء الفرائض واجتناب المحرمات. وهؤلاء همهم أن يتفادوا التعرض للنار، ولو بالاقتصار على ما يسقط المساءلة ويجنب العقوبة بالنار ولو كانت أدنى عقوبة ؛ وهذا لعمر الله فلاح عظيم لمن أفلح في تحقيقه ، ولهــذا قال النــبي ﷺ للأعرابي الذي أراد الاكتفاء بالأركان : (أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ)[١]. ففلاحه هنا فلاحان: الأول: لنجاته من النار. والثاني: لقيامه بما يسبب له دخوله الجنة دون سابقة عذاب، ولا سابقة حساب إلا حسابًا يسيرًا،وهو عرض أعماله عليه،ثم ينقلب إلى أهله مسرورا[٢].

وللمقتصدين في القرآن مسميات مختلفة فبعضهم أفضل من بعض وهم متفاوتون في الصلاح والدرجات، وقد أشير إليهم بلفظ : ﴿ مُّقْتَصِدٌ ﴾ [فاطر: ٣٢] ﴿ ٱلْأَبْرَارَ﴾ [الانفطار:١٣]، ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾[الواقعة: ٩١] ، ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴾[الواقعة: ٨]،وهم الدرجات الوسطى من الجنة[٣] .

٣- صنف السابقين بالخيرات : وهم الذين أضافوا على فعل المقتصدين التقرب بالمستحبات وتجنب المكروهات. وعمروا دنياهم بالمزيد من الصالحات .

---

(١) صحيح البخاري (١/ ١٨ /ح٤٦) ،ومسلم ،كتاب الإيمان (١/ ٤٠/ح ١١) .
(٢) ينظر معارج القبول بشرح سلم الوصول (٣/ ١٠٠٨).
(٣) ينظر طريق الهجرتين وباب السعادتين ص:١٩٣، أما إن أطلق لفظ (أصحاب اليمين) و(أصحاب الميمنة) (وعباد الله) فإنه يعم.

وهم الذين عناهم الله بقوله : ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾[النحل:٣٢]، فهم المقبولون بذاتهم ،مطهّرون من الذنوب منذ وفاتهم، يبدأ نعيمهم بعد موتهم مباشرة .

وأصحاب اليمين أقل درجة من المقربين فيما يُحصِّلون من النعيم. ((وكل من الصِّنْفَيْنِ الْمُقْتَصِدِينَ والسابقين من أَوْلِيَاء الله ... فأولياء الله هم الْمُؤْمِنُونَ المتقون وَلَكِن ذَلِك يَنْقَسِم إِلَى عَام وهم المقتصدون وخاص وهم السَّابِقُونَ وَإِن كَانَ السَّابِقُونَ هم أَعلَى دَرَجَات كالأنبياء وَالصديقين))(١).

هذه الثلة المباركة أحرزت أعلى منازل القبول والدرجات العُلى من الجنة، وقد أشار إليهم القرآن بلفظ: ﴿عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان:٦] ، ﴿ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾[الواقعة : ١١] ،﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾[الواقعة : ١٠] ،﴿سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾[فاطر : ٣٢](٢) ، ومن هؤلاء الأنبياء، والسبعون ألف الذين يدخلون الجنة بغير حساب أو عذاب هم ومن معهم كما ورد في الخبر(٣)،ومنهم الصالحون، والصديقون، والشهداء ،فهم كذلك متفاوتون في الدرجات.

---

(١) أمراض القلوب وشفاؤها لابن تيمية ص : **٣٦** .

(٢) ينظر طريق الهجرتين وباب السعادتين ص:**١٩٣**.

(٣) قال ﷺ: (وَعَدَنِي رَبِّي أَنْ يُدْخِلَ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَلَا عَذَابَ مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا وَثَلَاثُ حَثَيَاتٍ مِنْ حَثَيَاتِهِ) أخرجه الترمذي ،باب منه (**٤/٦٢٦/ح٢٤٣٧**) وصححه الألباني في صحيح الترمذي، ورواه ابن ماجة ,كتاب الزهد (**٥/٣٤٩/ ح ٤٢٨٦**) .

وقد قسم القرآن المقبولين عند الله تعالى في تصنيف آخر إلى صنفين دون ذكر للعصاة منهم ولعل ذلك من جهة دخولهم المباشر إلى الجنة من غير سابقة عذاب بالنار فهم سابقون مقرّبون ,وأبرارٌ أصحاب يمين. ويحتمل أن الظالمين لأنفسهم يدخلون في درجات أصحاب اليمين بعد خروجهم من النار[(١)] .

****

(١) ينظر طريق الهجرتين وباب السعادتين ص: ٢٠٢.

ثانياً : قبول خاص لأفراد أو فئات

إن من يستقرئ آيات الذكر الحكيم يجد أن قبول المحبة لا يتحصّل بمجرّد الدخول في الإسلام،حيث لم يرد في القرآن الكريم ولا في السنة المطهرة أن الله تعالى يحب المسلمين ،بالإسلام المجرد عن الاتباع كإسلام الأعراب [١] ,فقد جعل الله تعالى شرط محبته اتباع رسوله ﷺ قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[آل عمران: ٣١] فقد ابتدأت درجات تحصيل شرف محبته عز وجل بدءًا من الإيمان المقرون بالعمل وفي هذا المعنى قال تعالى:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾[مريم: ٩٦] فمن ثمراته نيل محبة الله و جمع قلوب المؤمنين على محبته قال الطبري: (يُحِبُّهُمْ وَيُحَبِّبُهُمْ إِلَى خَلْقِهِ) [٢] ،و ضعف الإيمان والعمل الصالح يقود لضعف المحبة وهو ما بينه قول النبي ﷺ: (الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ) [٣]فكلما قوّى العبد إيمانه بالعمل الصالح أحبه الله ،وكيف

(١) ينظر جامع الرسائل لابن تيمية (٢/٢٥٨) .
(٢) تفسير الطبري (١٥/٦٤٣).
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٠٥٢/٤/ح ٢٦٦٤).

يحب الله من هو معرض عن محابّه ،مبارز له ،سادر في مساخطه،وكيف يعذب الله بالنار من يحب؟! لذا فقد قَرن الله تعالى محبته للعبد بأعمال مخصوصة تمحّص درجة المؤمن وترفعه ،وتحقق المزيد من محبة الله له، وبناء على الآية السابقة يظهر أن أمة الاتباع هي المحبوبة﴿ فَٱتَّبِعُونِى يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ ﴾[آل عمران: ٣١] وتتفاوت المحبة بحسب ذلك الاتباع ،حتى يصل العبد للمحبة الخاصة[(١)] التي ذكرها الرسول ﷺ فيقوله: (...وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ[(٢)] حَتَّى أُحِبَّهُ)[(٣)]. وقد عدد الله تعالى في القرآن الكريم فئاتاً من المؤمنين اتصفوا بصفات تعلو بدرجة إيمانهم وتستلزم محبة الله لهم وقبوله الخاص،وتتفاوت المحبة في درجتها وخصوصيتها بحسب قوة العبد في تحقيق تلك الصفة ومن تلك الفئات:

---

(١) ينظر أثر الإيمان في تحصين الأمة لعبد الله الجربوع ،(١/ ٢١٢)،والتوضيح والبيان لشجرة الإيمان ص: ٩٣.

(٢) وللفائدة فقد فصل ابن تيمية في شرح التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض فذكر أن التقرب بالنوافل يتفاوت من عبد لآخر بحسب مواردة وطاقته فقال: «فَإِنَّ كُلَّ تَنَوُّعٍ [من أنواع العبادة] يَقَعُ فِي الْوُجُوبِ فَإِنَّهُ يَقَعُ مِثْلُهُ فِي الْمُسْتَحَبِّ وَيَزْدَادُ الْمُسْتَحَبُّ بِأَنَّ كُلَّ شَخْصٍ إنَّمَا يُسْتَحبُّ لَهُ مِنْ الْأَعْمَالِ الَّتِي يَتَقَرَّبُ بِهَا إلَى اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي يَقُولُ اللَّهُ فِيهَا: {وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ} مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ وَيَفْعَلُهُ وَيَنْتَفِعُ بِهِ وَالْأَفْضَلُ لَهُ مِنْ الْأَعْمَالِ مَا كَانَ أَنْفَعَ لَهُ وَهَذَا يَتَنَوَّعُ تَنَوُّعًا عَظِيمًا فَأَكْثَرُ الْخَلْقِ يَكُونُ الْمُسْتَحَبُّ لَهُمْ مَا لَيْسَ هُوَ الْأَفْضَلُ مُطْلَقًا؛ إذْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى الْأَفْضَلِ وَلَا يَصْبِرُونَ عَلَيْهِ إذَا قَدَرُوا عَلَيْهِ وَقَدْ لَا يَنْتَفِعُونَ بِهِ بَلْ قَدْ يَتَضَرَّرُونَ إذَا طَلَبُوهُ مِثْلَ مَنْ لَا يُمْكِنُهُ فَهْمُ الْعِلْمِ الدَّقِيقِ إذَا طَلَبَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ قَدْ يُفْسِدُ عَقْلَهُ وَدِينَهُ...» ينظر المزيد في مجموع الفتاوى (١٩/ ١١٩).

(٣) أخرجه البخاري في صحيح(٨/ ١٠٥/ح ٦٥٠٢).

- فئة المحسنين

قال تعالى:﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[آل عمران: ١٤٨]

والإحسان على وجهين:

أَحَدُهما: الإحسان بمزيد فعل الطاعات.

وَالثَّانِي: إِحْسانٌ فِي الفعل نفسه .

والإحسان هو أعلى مراتب الدين ،وتعريفه كما قال الرسول ﷺ حينما أتاه جبريل عليه السلام يسأله فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْإِحْسَانُ قَالَ: (الْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ)[١] .

وحقيقته هي عبادة الله تعالى عبادة تقوم على اليقين التام بالحقائق الغيبية ،واستحضار عظمة الخالق حال العبادة ،واستحضار جنته وناره ،مما يدعوه إلى تحسينها وبذل الجهد في إتمامها على أكمل وجه ،فالذين أحسنوا العمل وعدهم الله بأحسن الجزاء وأكمله .

وإذا أتى العبد بأوامر الله على الوجه الذي شرعه الله وأحبه كانت محبة الله للعبد أتم وأكمل،وقبوله وثوابه على عمله أفضل وأحسن .

---

(١) جزء من حديث في صحيح البخاري (١/١٩/ح٥٠)،وأخرج نحوه مسلم (١/٣٩/ح ٩) .

وفي منزلة الإحسان ذكر ابن القيم رحمه الله أن الإحسان لب الإيمان وروحه وكماله. وهذه المنزلة تجمع جميع المنازل [١]. وقال في شرح حديث الإحسان: هو كمال الحضور مع الله عز وجل ومراقبته الجامعة لخشيته ،ومحبته ومعرفته ،والإنابة إليه ،والإخلاص له،ولجميع مقامات الإيمان.[٢] وقد يحسن العبد في عمل ويسيء في آخر فيحب الله في العبد المؤمن ذلك العمل الذي أحسن فيه ،ولا يزال العبد يخوض في محاب الله حتى يوفقه بسبب ذلك إلى ما فيه استكمال محبته له.

فالإحسان أنواع من أتى بها مجتمعة فقد استكمل الإحسان[٣] :

الأول: الإحسان في القصد : فلا يشوب القصد والنية ما يشوبه من حظوظ الدنيا .

ومن القصد أن يجعل وجهته وقصده إلى الله أبدا ،فهي هجرة إلى الله بالإخلاص والحب والخوف والرجاء والعبودية لا يتخلف عنها مهما كانت العوائق حتى يلحق بالله عزو جل. وهجرة إلى رسوله ﷺبالتحكيم و التفويض والتسليم والانقياد.

الثاني: القوة في اليقين: وهي من الإحسان فهي الجذوة التي تشعل الإمضاء والعزم فهو عزم

---

(١) ينظر مدارج السالكين (٢/ ٤٢٩).
(٢) ينظر مدارج السالكين (٢/ ٤٢٩).
(٣) ينظر مدارج السالكين (٢/ ٤٢٩-٤٣٠) ،وتفسير المنار (٥/ ٨١) ،وتفسير السعدي ص: ٩٠،ومختصر منهاج القاصدين ص:٨٥.

لا يصحبه فتور،وإمضاء لا تثنيه فتن وشرور،ويصدّقها قوله عليه الصلاة والسلام : (المؤمنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْر)[١].

الثالث: الإحسان في العبادات : وهو أن يستحضر قلبه في الصلاة والنوافل وجميع القربات ويستجلب الخشوع لله ،والخضوع له سبحانه.

الرابع : الإحسان في الأوقات : وهو أن يستثمر أوقاته في طلب ما خُلق له ،فلا يصرفه صارف الدنيا وشهواتها ،أو الفتن ومحدثاتها ،عن هجرته وقصده.

الخامس : الإحسان في الأحوال : وهو أن يستر ما وهبه الله عن الناس ما أمكن فلا يظهره إلا لمصلحة راجحة حماية له من آفات الحسد والغيرة وحظوظ النفس من كبر واغترار.

السادس : الإحسان في الأخلاق : وهو التواضع وعدم الترفّع و أن يخالق الناس بخلق حسن كما في الحديث[٢] بدءًا ببر الوالدين وصلة الأرحام وانتهاءً بالإحسان في معاملة الخادم والإحسان إلى من أساء.

(١) جزء من حديث في صحيح مسلم ،كتاب الفضائل (٤/٢٠٥٢/ح٢٦٦٤).
(٢) قوله عليه الصلاة والسلام : (اتَّقِ اللَّهِ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ) أخرجه الترمذي(٤/٣٥٥/ح١٩٨٧) ,وأخرجه أحمد في المسند (٣٥/٣١٨/ح٢١٤٠٣) والدارمي في السنن (٣/١٨٣٧/ح٢٨٣٣) وحسنه الألباني في صحيح الترمذي.

السابع : الإحسان في المعاملات : في البيوع والتجارة والقضاء والعقود وسائر الأمور تصديقاً لقوله ﷺ: (رَحِمَ اللَّهُ رَجُلاً سَمْحًا إِذَا بَاعَ، وَإِذَا اشْتَرَى، وَإِذَا اقْتَضَى)[١] .

ويكون الإحسان بالقصد والقول والفعل والترك : بالقصد أي بعقد النية على فعل الخير والإحسان فيه،وبالقول السديد والقول المناسب الرشيد ،فلكل مقام مقال ،والفعل هو فعل كل ما يحبه الله ويرضاه ،والترك بترك جميع ما يغضب الله. والإنسان مأمور أن يتحرى الإحسان في الأمور كلها قال تعالى:﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[البقرة: ١٩٥] فالآية مطلقة تعمّ جميع أنواع الإحسان .

****

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/٥٧/ح٢٠٧٦).

فئة المتقــين :

قال عز وجل:﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾[النحل: ٣٠].

و التقوى هي : ((العمل بطاعة الله إيماناً واحتساباً، أمراً ونهياً، فيفعل ما أمر الله به إيماناً بالأمر وتصديقا بوعده، ويترك ما نهى الله عنه إيماناً بالنهي وخوفاً من وعيده))[1] .

فالتقوى تستلزم الحرص على أداء الفرائض واتقاء المحارم ومراقبة الله في السرّ والعلن وفي جميع الأقوال والأفعال.

فكل من اتقى الله في أمر فإن الله وعد بقبوله ،فإن كان ذلك ديدن العبد وسجيته تقبله الله في عباده الصالحين ،وقد أمر الله بتقواه ومخافته في كثير من الآيات ومن ذلك قوله تعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾[آل عمران: ١٠٢] ،وقال تعالى:﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾.[البقرة: ٤٠] ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾[البقرة: ٤١] .

(١) زاد المهاجر إلى ربه لابن القيم ص: ٣٠١.

وبشر المتقين بعلامات القبول ومنها:

البـــشرى بالفلاح وهو الفوز والنجاح إن امتـــثلوا واتقوا [١] فقـال جل وعلا:

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩] . وبشرهم بمعيته الخاصة بالحفظ والتأييد والنصرة : ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾[البقرة: ١٩٤].

والرحمة الخاصة التي يشعر بها العبد ويستشعر خَفيّ اللطف والتيسير للخير ودفع الشر والمكروه قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾[الحجرات: ١٠] .

وغفران الذنب ودخول الجنة : ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَكَفَّرۡنَا عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾[المائدة: ٦٥].

وفتح أبواب النعم وأنواع الرزق والخيرات وسائر البركات : ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: ٩٦] وفتح النعم ليست علامة بحد ذاتها ولكنها قد تكون نتيجة للتقوى .

والإنعام بالعلم والإرشاد والبصيرة : ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة: ٢٨٢] .

---

(١) ينظر تفسير الطبري (٧/ ٢٠٥)،وتفسير المنار(٢/ ١٦٧).

وتقوى الله لها ثلاث مراتب :

أ ـ التقوى من الإشراك بالله والأعمال الموجبة للنار قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم: ٦].

ب ـ الحذر من المكروهات والمشتبهات كما صحّ عن النبي ﷺ: (فَمَنِ اتَّقَى المُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ)[١] . وكما قال ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنه: ((لاَ يَبْلُغُ العَبْدُ حَقِيقَةَ التَّقْوَى حَتَّى يَدَعَ مَا حَاكَ فِي الصَّدْرِ)) [٢].

ج ـ التقوى عن كل ما يلهي عن الله ويشغل عن عبادته ،ويدخل في هذا الإسراف في تعاطي المباحات والانشغال بالأمور الدنيوية[٣].

قال ابن رجب: ((وأصلُ التَّقوى: أن يعلمَ العبدُ ما يُتَّقى ثم يتَّقِي))[٤]. والمقصود أن أصلها المعرفة والعلم بحقيقة الأمر والنهي والامتثال له.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه(١/ ٢٠/ح ٥٢)

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ،(١/ ١٠) ليس لهذا الحديث رقم .

(٣) ينظر روائع التفسير لابن رجب (١/ ٣٦٤).

(٤) ينظر فصل الخطاب في الزهد والرقائق والآداب (٥/ ٧).

((وقال معروف[١]: إذا كنت لا تحسن تتقي: أكلت الربا. وإذا كنت لا تحسن تتقي: لقيَتْك امرأة فلم تغض بصرك. وإذا كنت لا تحسن تتقي: وضعت سيفك على عاتقك أي: شهرت سيفك وقاتلت في الفتنة))[٢].

فالله تعالى أمر عباده بطاعته ،و وعد من امتثل أمره برضوانه و بجنته ،توعّد من خالف أمره بسخطه ونقمته .والتقوى لا تحصل بالأعمال الظاهرة إنما تكون بما يقع في القلب من تعظيم الله وخشيته[٣]،ولذلك قال الرسول ﷺ : (التَّقْوَى ههُنَا) و يُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ[٤].

فالعباد المتقون هم الذين يتقون الله في كل شيء ويقدّمون مخافته عند كل عمل .

فأولئك يقدّمهم الله يوم القيامة على غيرهم ويرفع منزلتهم فوق منزلة الآخرين كرامة لهم من الله وتشريفاً قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[الحُجُرَات: ١٣] أي ((أَكْرَمُ الْمُؤْمِنِينَ

---

(١) مَعْرُوف بن فَيْرُوْزُ الْكَرْخِي البَغْدَادِيُّ أَبُو مَحْفُوظ من أعلام العباد والزهاد منِ أهل الْعِرَاق و من رُفَقَاء بشر بن الحَارِث ،كانَ الإمام أحمد ابن حنبل في جملة من يختلف إليه ،مَاتَ مَعْرُوْفٌ سَنَةَ مائَتَيْنِ. ينظر الثقات لابن حبان ،(٩/ ٢٠٦)،وسير أعلام النبلاء (٨/ ٨٦)،والأعلام للزركلي (٧/ ٢٦٩). .

(٢) روائع التفسير لابن رجب (١/ ٣٦٤).

(٣) ينظر هامش صحيح مسلم ،شرح محمد فؤاد عبد الباقي ،(٤/ ١٩٨٦).

(٤) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه ،باب تحريم ظلم المسلم ،(٤/ ١٦٩/ح ٢٥٦٤).

هُوَ الْأَطْوَعُ لِلَّهِ وَالْأَتْبَعُ لِلْقُرْآنِ، وَهُوَ الْأَتْقَى، وَالْأَتْقَى هُوَ الْأَكْرَمُ))[١]. قال أهل التفسير[٢] أن الأكرم عند الله هو أعظمهم شأناً وأرفعهم منزلة عنده و المراد بـ﴿أَتْقَىٰكُمْ﴾ أي: أبعدكم عن حظوظ نفسه، فالتقوى هي التحرّر من النفس وأطماعها وأهوائها،وأشدّكم اتقاء له بأداء فرائضه واجتناب معاصيه[٣].

****

- فئة الصابرين :

ذكر العلماء في الصبر أقوال مختلفة تعود لتنوع الأفهام وتعدد الرؤى والأفكار في تعريف الصبر ومن ذلك قول ابن القيم : الصبر ((هو حبس النفس عن محارم الله، وحبسها على فرائضه، وحبسها عن التسخط والشكاية لأقداره))[٤].

(١) شرح العقيدة الطحاوية لأبي العز (٢/ ٥٠٩).
(٢) ينظر تفسير البيضاوي (٥/ ١٣٧)،وتفسير أبي السعود (٨/ ١٢٣) ،وروح البيان (٩/ ٩٢).
(٣) ينظر تفسير الطبري (١٩/ ١٤٨) ،وتفسير الشافعي (٣/ ١٢٨١)،وروح البيان (١/ ٣٠٥).
(٤) رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه ص:١٨ .

و بأنه : الوقوف مع البلاء بحسن أدب ،وأنه تعويد النفس الهجوم على المكاره ،وأنه الثبات مع الله وتلقي بلائه بالرحب والدعة[١].

والصبر نوعان :

١ ـ صبر اضطراري :وهو الصبر على المصائب والكوارث والابتلاءات التي لا يدَ للعبد في دفعها،فالمؤمن مجبور ومضطر على الصبر عليها وإلا كان معترضاً على حكم الله وقدره ،فقدر الله نافذ وليس فيه للمؤمن إلا الصبر والاحتساب.

٢ ـ صبر اختياري: ويدخل فيه :

أ ـ الصبر على ظلم الغير ،والغضب والرغبة في الانتقام .

ب ـ الصبر على الطاعة ومجاهدة النفس عليها وإكراهها على محاب الله ،

ج ـ الصبر على المعصية وحفظ الجوارح عن سائر الذنوب الآثام[٢].

وبناء على الصبر بنوعيه ودرجات الصابرين فيه تتضح مراتبهم.

---

(١) ينظر مدارج السالكين (١/١٥٧) .

(٢) ينظر عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم ص: **٣٣** .

وقد خص الله الصابرين بمزيد من الثناء ،وأفاض القرآن في ذكر الصبر وعاقبة الصابرين،وبشّرهم بالعديد من علامات القبول التي تظهر جلية عند التأمل في نصوص الكتاب الكريم ومن ذلك:

١- أنه أوجب لهم محبته بقوله:﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦] والمحبة من الله تدلّ على الرضا عن المحبوب ،ومحققة للمغفرة للذنوب[١].

٢ ـ أثنى عليهم فقال سبحانه :﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾[البقرة: ١٧٧]. فالذين ابتلاهم الله بالفقر فرضوا ،وبالأدواء فحمدوا ،وبالقتال والسيوف على رؤوسهم فثبتوا ،فهؤلاء الذين صدقوا في إيمانهم[٢]،وواطأت قلوبهم أفعالهم . وتنبئ خاتمة الآية ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾عن وعد وتكريم حيث تلقوا البلاء بالصبر ،والأمر بالطاعة ،فكان اعتراف من ذي الجلال لهم بتقواه،والخوف منه ، فطمأنهم وأجارهم وبشّرهم بنيل ما صَبت إليه نفوسهم من البعد عن عذابه ،وتفَيُّءِ ظلال أمنه وثوابه[٣].

٣ ـ بشرهم بمعيته الخاصة لهم بالنصر والتأييد فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

---

(١) ينظر شرح العقيدة الواسطية للعثيمين (١/ ٢٥١) .
(٢) ينظر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للواحدي(١/ ١٤٦).
(٣) ينظر تفسير ابن كثير(١/ ٣٥٧)،وتفسير ابن رجب الحنبلي(روائع التفسير) (١/ ٣٦١).

ٱسۡــتَعِينُواْ بِٱلصَّــبۡرِ وَٱلصَّلَــوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَــعَ ٱلصَّٰبِرِيــنَ ﴾[البقرة: ١٥٣]. فهو معهم بالحفظ معهم بالعون والنصرة ،معهم بالتثبيت على الطاعة ،معهم بتيسير المجاهدة ،حتى يجدوا لذة الصبر ماداموا قد قهروا النفس وقدموا محاب الله على محابهم.

٤- تُقبل أحسن أعمالهم : ﴿وَلَنَجۡزِيَــنَّ ٱلَّذِيــنَ صَــبَرُوٓاْ أَجۡرَهُــم بِأَحۡسَــنِ مَــا كَانُــواْ يَعۡمَلُــونَ﴾ [النحل: ٩٦]. تقبل طاعاتهم ،بل ويجزيهم بأفضل منها بما لا يخطر على بال،ويكرمهم عليها بأعلى المنازل في جنة عدنٍ دار المآل ،ويبدّل بؤس حالهم إلى أفضل ما يكون الحال ، وزاد مقاتل: ((إنما ذكر الأحسن لأنه لا يجازيهم على مساوئ أعمالهم، بل يغفرها لهم)) (١). فمن جازاه الله بأحسن عمله غفر ذنوبه فلا يحاسبه عليها . كل ذلك دلالة على سعة الإحسان ، وواسع العطاء ،وجميل الجزاء نسأل الله العظيم من فضله. هكذا تجمل المعنى كتب التفسير. (٢)

٥ - الجزاء الوافر لهم بغير حساب ﴿ إِنَّمَــا يُــوَفَّى ٱلصَّــٰبِرُونَ أَجۡرَهُــم بِغَــيۡرِ حِسَــابٍ﴾ [الزمر: ١٠]. فيثيبهم بكل حسنة أضعافاً مضاعفة بغير حساب ،ثواباً لا حدّ له،ولا يعلم أحد مقداره ،بل يغدق الله عليهم من فضله ،وتنهمر عليهم فيوضه وأنهاره ، في مقابل صبرهم لأيام قلائل، كانوا

(١) اللباب في علوم الكتاب للنعماني (١٤/٣٩٨).
(٢) ينظر تفسير أبو السعود (٦/ ١٨٠)،وروح البيان (٦/ ١٦٠) ،وتفسير الطبري (١٧/٢٨٨).

فيها لا يحجبهم عن طاعة ربهم متاع زائل،ولا شغلٌ شاغل،ولا يحولهم عن الله حائل(١).

٦ ـ إطلاق البشرى لهم: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[البقرة: ١٥٥]. بشرى في الدنيا بالفرج وانقشاع الغمة وبشرى في الآخرة بالغفران ،وحلول الرضوان ،وبالثواب على الصبر وقوة الإيمان ،و بالعِوض عمّا فقدوا ،وبما يحبون على ما صبروا ،فهي بشريات تتالى ،وعطايا تترادف ،قال الطبري : "وأصل التبشير: إخبار الرجل الرجلَ الخبرَ، يَسرّه أو يسوءه، لم يسبقه به إلى غيره "(٢).

٧ ـ ما يلقى العمل الصالح والحظوظ العظيمة إلا أهل الصبر : ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥]. الصبر خُلُقٌ رفيع ومقام سام،لا يقوم بحقة إلا من أكرمه الله ووفقه لحبس نفسه عن سفاسف الأمور ،وقهرها إلى معاليها وشيَمها،الذي منّ الله عليه بالحظ العظيم من العقل والحلم والبصيرة ،ومن آتاه الله الحظ العظيم من العقل وجميل الخصال في الدنيا فله الحظ العظيم من الجنة في الآخرة. فهؤلاء هم الذين فازوا بالنصيب الأوفر

(١) ينظر تفسير أبي حاتم (٢/ ٤٦١) ،وتفسير الطبري (٢٠/ ١٧٩).
(٢) تفسير الطبري (٣/ ٢٢١).

في الدنيا والآخرة بما يكرمهم به الله سعادة قلبية وطمأنينة بال ،وسكينة نفس في الدنيا ثم سعادة الجنة دار الخلود[١] .

٨ ـ أوجب لهم الجنة : ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤]. ويُفرِغ الله تعالى على قلوب الصابرين الطمأنينة والسكينة ،وفي لفظ ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم﴾ ما يشعر بالحفاوة بهم وبإشاعة السلام والتحية بينهم حيث تسلّم عليهم الملائكة وتبشّرهم بالفوز بعد امتحان الشدة،والنجاح باجتياز المحنة ،وقبولهم قبول سلامة من العذاب ،ونجاة من العقاب،ورفعة وفضل على الصبر والاحتساب ،فنعم العاقبة لهم الجنة[٢].

٩ ـ يورثهم الهداية والإمامة قال ابن القيم رحمه الله سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: ﴿بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين﴾[٣] تصديقاً لقوله تعالى :﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةً يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]. فالصبر يقود للرئاسة في الخير،وتتعدى بركات حسناتهم إلى غيرهم ،وتتدفق ينابيع علمهم لينهل منها الظّماء.

(١) ينظر غرائب التفسير للكرماني (٢/١٠٤٤) ,وتفسير ابن جزي (٢/٢٤١) ،وتفسير ابن كثير (٧/١٨١).
(٢) ينظر تفسير السمر قندي (٢/٢٢٥)، وتفسير الوجيز للواحدي (١/٥٧١) .
(٣) ينظر مدارج السالكين (٢/١٥٣).

وتشع نجوم هدايتهم ليسترشد بها التائهون. فالإمامة في الدين أشرف المراتب،ومنقبة من أجل المناقب . لم ينالها هؤلاء صباحةً ولا وجاهةً وإنما طاعةً لربهم وولاية[١].

فأهل الصبر في القرآن مراتبُ ثلاث [٢]:

١- الصابر : وهي أعم مراتب الصبر وأوسعها: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ﴾ [الحج: ٣٥].

٢- المصطبر : وهو المثابر المجاهد نفسه على الصبر الإرادي الذي يستدعي مجاهدة الغير والصبر عليهم،وقال الطاهر بن عاشور: ((والاصطبار شدّة الصبر على الأمر الشاق لِأَنَّ صِيغَةَ الِافْتِعَالِ تَرِدُ لِإِفَادَةِ قُوَّةِ الْفِعْلِ)) [٣].

قال تعالى : ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ﴾ [طه: ١٣٢] فالصلاة تكاليف تتعلق بمجاهدة النفس وحث الغير والصبر عليهم والمداومة على ذلك .

(١) ينظر تفسير الطبري (٢٠/١٩٤)، وتفسير السمر قندي (بحر العلوم) (٣/٣٩) .

(٢) وزاد ابن القيم وغيره من اللغة و السنة مرتبة المتصبّر والصبور انظر مدارج السالكين ص: **٣٥٥**،وبصائر ذوي التميز (**٣/٣٧٨**) .

(٣) التحرير والتنوير (١٦/١٤٢).

٣- الصبّار: مبالغة تعني الكثير الصبر ،المتنوّع الصبر،فهو يصبر على الطاعة ويصبر على المعصية ويصبر على البلاء وعلى أذى الغير .. قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾[إبراهيم: ٥]. نلاحظ في الآية وصف الله تعالى للمؤمن بالصبار وليس الصبور فلم يصف الله تعالى أياً من عباده بهذه الصيغة فقد قال في أيوب عليه السلام:﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾[ص: ٤٤] . بينما في صفة الشكر جاء بأبلغ وصف وهو الشكور . ويظهر أن تعليل ذلك قد يكون من وجهين :

أولا: أنه دليل على شدة وطأة الصبر وأن لفظ (صبّار) حدّ لمقام الصبر ودرجته الذي وصل إليها أصبر عباده أما الصبور فلم يصِف بها الله أحداً من عباده فالصبور على الحقيقة هو وصف لله تعالى قال الرسول ﷺ : (مَا أَحَدٌ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنَ اللَّهِ، يَدَّعُونَ لَهُ الوَلَدَ، ثُمَّ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ)[(١)]. فصبره وحلمه على كفر عباده واستكبارهم وتطاولهم عليه سبحانه وتعالى عما يصفون ،أما درجة (الشكور) وصف الله بها بعض عباده وفي مقدمتهم نوح عليه السلام : ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾[الإسراء: ٣] والشكور معرّفة بأل أبلغ من النكرة حيث قال تعالى في داود عليه السلام :﴿ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٩/ ١١٥/ ح٧٣٧٨)،وأخرج نحوه مسلم (٤/ ٢١٦٠/ح٢٨٠٤) .

ٱلشَّكُورُ﴾[سبأ:١٣] أي قليلٌ من العباد من يصل إلى هذه المرتبة التي يوصف بها بأنه شكور ، كما وصل نوح و آل داود عليهم السلام ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم حيث قال : (أفَلا أكونُ عبداً شكوراً)[١].

ثانياً : أن أعلى درجات الصبر والتي تضمنت كثرة الصبر وتنوع أسبابه مع الصبر الجميل إنما هي دليل على الشكر،فلا يصبر على المكاره والطاعات إلا المحب الراضي والشاكر لربه ولذلك فإن أعلى مقامات الصبر إنما هي حاصل جمع صبرٍ و شكر ،فكلما صبر العبد صبر رضا على حكم ربه كان ذلك صعودا في منازل الشكر ،والله أعلم.

– فئة المتوكلين:قال تعالى:﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾[آل عمران: ١٥٩].

والتوكل عبادة جليلة لا تكون إلا لله وحده؛ لأنه هو القادر على كل شيء، والمالك لكل شيء،بل هي شرط من شروط الإيمان وهو : تفويض الأمور إلى الله تعالى والاعتماد عليه سبحانه، والثقة به ،والاستعانة به وحده ،مع بذل الأسباب .فعلى قدر الإيمان يكون حسن التوكل ،وعلى قدر

١–انظر الحديث في صحيح البخاري (٢/ ٥٠/ ١١٣٠).

التوكل تكون من الله الكفاية ،قال أهل العلم : التوكل هو الاستعانة وهو نصف الدين ،فالدين عبادة واستعانة وهو تحقيق قوله تعالى: ﴿إِيَّـاكَ نَعْبُـدُ وَإِيَّـاكَ نَسْـتَعِينُ﴾[الفاتحة: ٥].

وقيل في التوكل هو : "اعتماد القلب على الله إيمانا بكفايته سبحانه لعبده" [١].وقيل هو انطراح القلب بين يدي الرب ،فيكون العبد بين يدي ربه كالميت بين يدي غاسله يقلبه كيف يشاء[٢].

والتوكل لا يكون إلا على الله أما إسناد بعض الأمور للبشر فيما يقدرون عليه من غير تعلق القلب بهم فيسمى توكيلاً لا توكلاً[٣] .

قال ابن القيم: " والعبد آفته إما عدم الهداية وإما عدم التوكل فإذا جمع التوكل إلى الهداية فقد جمع الإيمان كله"[٤] .

فهي صفة عظيمة يحبها الله وفي حديث السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب قال النبي ﷺ: (هُمُ الَّذِينَ لاَ يَتَطَيَّرُونَ، وَلاَ يَسْتَرْقُونَ، وَلاَ يَكْتَوُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) [٥].

(١) الجديد في شرح كتاب التوحيد لمحمد القرعاوي ص:٣٠٥
(٢) مدارج السالكين (٢/ ١١٥).
(٣) ينظر شرح الأصول الثلاثة للفوزان ص: ١٣٩.
(٤) مدارج السالكين (١/ ١٥٤).
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه (٧/ ١٣٤/ ح٥٧٥٢)،وأخرجه مسلم (١/ ١٩٨/ح٢١٨).

فحقيقة التوكل أنه مركب من مجموعة أمور وعناصر مترابطة لا تتم حقيقة التوكل إلا بالإتيان بها مجتمعة ،ومن استكملها فقد استكمل مقام التوكل ,وقد بينها ابن القيم في مدارجه وهي:

أولاً : معرفة الرب سبحانه واليقين بكفايته وإحاطة علمه.

ثانياً: إثبات الأسباب ،ولكن عدم الركون إليها ،وقطع علاقة القلب بها .بل بذلها والاعتقاد الكامل في المسبب لا السبب.

ثالـثاً : تجريد التوحيد من علائق الشرك فبقدر تجريد التوحيد وتنقيته من الشوائب يكون صحة التوكل .

رابعـاً: اعتماد القلب على الله والركون إليه كاعتماد الرضيع على ثدي أمه،واطمئنانه على صدرها.

خامساً: حسن الظن بالله تعالى والرجاء به فعلى قدر حسن الظن يكون التوكل. والتوكل يدعو إلى حسن الظن .فهما مرتبطان لا ينفكان.

سادساً: استسلام القلب لله ،ودرء جميع ما ينازعه ،واعتقاده بأنه لا يملك من الله شيئاً إلا ما يتفضل الله به ،واعترافه بالعجز والخروج من حوله وقوته إلى حول الله وقوته.

سابعاً: التفويض وهو روح التوكل وحقيقته كما قال تعالى: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤] تفويضاً يثمر عن الاعتقاد بأن الله تعالى لن يقضي له في أموره إلا ما هو خير له في معاشه ومعاده .

ثامناً : الرضا فيقابل أحكامه فيه بالتسليم والرضا والقبول،وهو غاية التوكل وثمرته وإن خفيت عليه المصلحة والحكمة[١].

قال الرسول ﷺ: (لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا) [٢].

وقوله: (حَقَّ تَوَكُّلِهِ) يُبين أن التوكل طبقات متفاوتة والمؤمن مطالب بالارتقاء في سلّم التوكل حتى يصل إلى التوكل الحق فالناس في ذلك درجات ومراتب:

١- توكل الأولياء : فأولياء الله وخاصة المؤمنين هم الذين يتوكلون على الله في الإيمان ونصرة الدين ،وجهاد الأعداء ،وفي جميع أمره ونهيه. وهذا هو التوكل الحق ،وهو أفضل التوكل وأكمله

(١) ينظر مدارج السالكين (١/١٢٨).
(٢) أخرجه أحمد في المسند(١/٣٣٢/ح٢٠٥)،والترمذي في السنن (٤/٥٧٣/ح٢٣٤٤)،وابن حبان (٢/٥٠٩/ح٧٣٠) ،وصححه الألباني في صحيح الجامع (ح ٥٢٥٤).

وهو توكل الأنبياء والصالحين وهو الذي يحبه الله ويرفع أهله في أعالي الدرجات.

٢ – توكل المؤمنين : من يتوكلون على الله في استقامة النفس وحفظ الحال . وهو توكل يقبله الله ويجازي عليه بقدر توكل صاحبه .

٣– توكل العامّة و من دونهم : فمنهم من يتوكل على الله في الرزق بأنواعه،والله يجازي عليه بقدر توكل صاحبه ،ولكنه توكل ناقص فالتوكل يعلو بحسب علو همّة صاحبه،فمن الناس من يتوكل في إقامة الدين ،ومنهم من يتوكل في طلب الرغيف والطحين، والمطلوب التوكل على الله في كل آن وحين.

٤ – توكل المفرّطين : وهو توكل المفرطين والجهلاء فقد بلغ بهم جهلهم أنهم يتوكلون على الله في حصول الإثم والفواحش فيستعينون بالله على المعاصي ،ويلقون بأنفسهم في المهالك معتمدين على الله أن يسلمهم ويحفظهم وقد قال تعالى:﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾[البقرة: ١٩٥][1].

ومن صدق توكله على الله في حصول شيء فإنه يناله،فإن كان هذا الشيء مما يحبه الله ويرضاه انتفع بتوكله من جهتين : في نيل ما توكل فيه و في العاقبة المحمودة بسبب توكله فيما يرضي الله. وإن كان الأمر مباحاً حصلت له بتوكله منفعة التوكل فقط وتيسير الحصول عليه .

(١) ينظر أسماء الله الحسنى لابن القيم ص: ٤٦٤.

وإن كان التوكل فيما لا يحبه الله ولا يرضاه فإن الله ييسره له وكان حاصل توكله وما تحقق له مضرة عليه [١].

وللتوكل آفات تعوقه وتضعفه

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ فتحقيق الحسب بقدر قوة التوكل وبذل أسبابه وموجباته وأن يخلو من آفات ثلاث:

١. التفات القلب إلى قضية التوكل وذات المتوكل والانشغال بذلك عن الوكيل .

٢. التفات القلب إلى السبب والانشغال بأنواعه وأبوابه عن المسبب.

٣. التفات القلب إلى ترقب النتائج وشغل الفكر بها بدلا من الانصراف للواجبات وسائر العبادات مما يقوّي التوكل ويزيده فاعليّة[٢].

****

(١) ينظر المصدر السابق ص: ٤٤٦. و مدارج السالكين (٢/ ١١٤).
(٢) ينظر مدارج السالكين (٢/ ١٣٦).

- فئة المقسطين:

قال تعالى: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[المائدة: ٤٢].
والقسط يأتي بمعنى العدل ويأتي بمعنى الجور،فهو من أضداد اللغة ،وقَسَط قِسطاً أي عَدل عدلاً،وقَسط قُسوطاً أي جار جوراً ،والمقسط هو العادل ،والقاسط هو الجائر . ويقال أقسط وقسط إذا عدل . ففي العدل لغتان قَسَط وأقسَط وفي الجور لغة واحدة وهي قسَط ومصدرها القُسوط [(١)].

والله تعالى يحب العدل وهو وضْع الشيء في موضعه . ويجازي على العدل بما لا يجازي على غيره،قال الرسول ﷺ: (إِنَّ الْمُقْسِطِيَن عِنْدَ اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا) [(٢)].
إن الله يحب الَّذين يعدلُونَ فِي أقوالهم فيقولون الحق ،يعدلون في أفعالهم وتطابق أقوالهم أفعالهم . فالله تعالى هو الحكم العدل في أقواله وأفعاله ويقرب إليه من اتصف بالعدل والقسط ويجعلهم بأرفع مقام وأكرمه قال عليه الصلاة والسلام :(سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ...) وذكر منهم (إِمَامٌ عَادِلٌ) [(٣)].

(١) ينظر لسان العرب (١١/ ١٦٠)،والصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للفارابي(٣/ ١١٥٢).
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٣/١٤٥٨/ح١٨٢٧) .
(٣) ينظر الحديث في صحيح البخاري(٨/ ١٦٢/ح٦٨٠٦) .

وبما أن الظلم ثلاثة كما في الخبر [(١)] فمفهوم المخالفة يدل على أن القسط كذلك أنواعٌ ثلاثة:

١- القسط مع الله تعالى :هو إفراده بالعبودية ,فإن الشرك بالله أظلم الظلم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾[لقمان: ١٣] ومن القسط مع الله وصفه سبحانه بما يستحق وبما هو أهله،وموافقة أمره والامتثال لنهيه ،وتقديره حق قدره.

٢- القسط مع النفس :و هو حفظها من الشرك و الذنوب ووقايتها من عذاب الله ،وعدم إلقائها في المهالك سواء في الدنيا أو في الآخرة قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ﴾[التوبة: ٣٦].

٣- القسط مع الغير :وهو ردّ الحقوق ،والأمانة في المعاملات المختلفة ،وقول الصدق والوفاء بالعهود... إلخ [(٢)] قال تعالى:﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ

(١) قال ﷺ: (الظُّلْمُ ثَلاثَةٌ: فَظُلْمٌ لَا يَتْرُكُهُ اللَّهُ، وَظُلْمٌ يُغْفَرُ، وَظُلْمٌ لَا يُغْفَرُ، فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يُغْفَرُ فَالشِّرْكُ ، وَأَمَّا الَّذِي لَا يُتْرَكُ فظلم العباد, فيقتصّ اللَّهِ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ) السلسلة الصحيحة **١٩٢٧** وقال الألباني: حسن بشواهده (**٣/٥٧٩**/ح**٢٢٢٣**)،وحسن نحوه الألبانيّ في صحيح الجامع (ح **٣٩٦١**) .

(٢) ينظر روح البيان (**٩/ ٤٨١**)، والتفسير الوسيط للقرآن الكريم (**٢/ ١٠٠٤**).

ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ ﴾[النساء: ٥٨].

وأفضل المقسطين هم الذين يحققون القسط بأنواعه الثلاثة فيقسطون مع أنفسهم ومع غيرهم ومع ربهم سبحانه وتعالى .فمن جاء بالعدل على وجهه المطلوب كان من المقسطين الذين امتدحهم الله تعالى واجتباهم وخصهم بالمحبة .

****

- فئة التوابين والمتطهرين:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ﴾[البقرة: ٢٢٢].

والتوابون هم الذين يكثرون التوبة والرجوع إلى الله ،بالندم والاستغفار والإقلاع عن الذنب [١]،ولذلك جمع الله تعالى في هذه الآية حبه للتوابين والمتطهرين ،لأن التوبة تطهير معنوي من دنس الشرك ،والنفاق ،وسائر الذنوب والسيئات ،و الغسل أو الوضوء تطهير حسي من الأقذار وسائر النجاسات وهو كذلك تطهير معنوي فقد قال الرسول ﷺ: (مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ

(١) ينظر شرح العقيدة الواسطية لابن عثيمين ص: **٢٣٢** .

الْوُضُوءَ، خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْ جَسَدِهِ، حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ تَحْتِ أَظْفَارِهِ)[١]. ففيهما طهرة للنفس والبدن قلباً وقالباً. وإنك لا ترى التوّاب الحريص على الاستغفار ونيل عفو ربه في وضوئه وغسله مفرّطاً ،بل تراه حريصاً على الاتيان بهما على وجههما ،أما المفرط الغافل فهو كذلك في طهارته الحسية تجده ينتقص الوضوء ،ولا يتم الغسل على الوجه الصحيح ،وذلك لغياب الحرص الذي يتميز به التوّاب ،المستحضر لذنبه عند كل وضوء واستشعاره بتساقط سيئاته كما في الحديث الآنف الذكر وكما قال ﷺ: (مَنْ تَوَضَّأَ فَمَضْمَضَ وَاسْتَنْشَقَ، خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْ فِيهِ وَأَنْفِهِ، فَإِذَا غَسَلَ وَجْهَهُ خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْ وَجْهِهِ، حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ تَحْتِ أَشْفَارِ عَيْنَيْهِ، فَإِذَا غَسَلَ يَدَيْهِ خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْ يَدَيْهِ، فَإِذَا مَسَحَ بِرَأْسِهِ خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْ رَأْسِهِ، حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ أُذُنَيْهِ، فَإِذَا غَسَلَ رِجْلَيْهِ خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْ رِجْلَيْهِ، حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ تَحْتِ أَظْفَارِ رِجْلَيْهِ، وَكَانَتْ صَلاَتُهُ وَمَشْيُهُ إِلَى الْمَسْجِدِ نَافِلَةً)[٢].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١/٢١٦/ح٢٤٥).

(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن (١/١٠٣/ح٢٨٢) ،والحاكم في المستدرك (١/٢٢٠/ح٤٤٦) ،والنسائي في السنن(١/٧٤/ح١٠٣)،ومالك في الموطأ (٢/٤١/ح٣١) ،وقال الألباني: (صحيح) في صحيح ابن ماجة.

والتواب الكثير الرجوع إلى ربه ويتميز بثلاثة أمور :

١- الخوف واستشعار مغبّة بالمعصية .

٢- الندم على مخالفته أمر الله .

٣- العزم والتشمير عن ساعد الجد لاستدراك ما فات .

فالخوف هو الإحساس بالذنب والاعتراف به ،مما يُلجئ العبد إلى الندم والحسرة على مقارفة الذنب وإظهار الضعف والذلة وكيف غرّه ستر الله عليه فتجرّأ على انتهاك محارم الملك الجبار،ثم هذا الندم يدفعه إلى اللجوء إلى طلب العفو والمغفرة ،وعقد العزم على عدم العودة واستدراك ما فرط منه (١).

وهذه الأمور الثلاثة هي حقيقة التوبة النصوح فهي تجتمع في العبد التواب وتلازمه من غير أن تؤدي به إلى اليأس والقنوط ،فتراه دائما مشفقاً من لقاء الله ،وجلاً من ذنبه ،ناهضاً لاستدراك ما فات . ولذا كان سَيِّدُ الاِسْتِغْفَارِ أَنْ يَقُولَ الْعَبْدُ: (اللهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ أَبُوءُ لَكَ بِذُنُوبِي، وَأَبُوءُ

(١) ينظر مدارج السالكين (١/ ٢٠٤).

لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ فَاغْفِرْ لِي إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبُ إِلَّا أَنْتَ)[١].

وقد ذكر ابن القيم أن هَذَا الاسْتِغْفَارُ تضمّنَ اعتراف العبد بربوبية الله ، وإلهيته وتوحيده، وبأنه الخالق العالم به ، وَالاعْتِرَاف بِأَنَّهُ عَبْدُهُ المنطرح بين يديه وفي قبضته، لَا مَهْرَبَ لَهُ مِنْهُ، وَلَا وَلِيَّ بِهِ سِوَاهُ، ثُمَّ الْتِزَام الدُّخُولِ تَحْتَ عَهْدِهِ - وَهُوَ أَمْرُهُ وَنَهْيُهُ - والاعتراف بالنعمة، والإقرار بالذنب، فَمِن الله النِّعْمَةُ وَالْإِحْسَانُ وَالْفَضْلُ، وَمِن العبد الذَّنْبُ وَالْإِسَاءَةُ، ولِهَذَا كَانَ هَذَا الدُّعَاءُ سَيِّدَ الاسْتِغْفَارِ، فهُوَ مُتَضَمِّنٌ لِمَحْضِ الْعُبُودِيَّةِ، ، مَعَ مُشَاهَدَتِهِ عُيُوبَ نَفْسِهِ وَعَمَلِهِ، وَمِنَّةَ اللَّهِ عَلَيْهِ؟ فَهَذَا الَّذِي يُعْطِيهِ نَظَرُهُ إِلَى نَفْسِهِ وَيُشعره بنَقْصِه وتقصيره[٢].

والله تعالى يفرح بتوبة عبده ،وفرح الله تعالى يستلزم قبوله ورضاه ومحبته ورحمته ومغفرته للعبد التائب فكيف بالتوّاب،وفي الحديث: (لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ، مِنْ رَجُلٍ فِي أَرْضٍ دَوِّيَّةٍ مَهْلِكَةٍ، مَعَهُ رَاحِلَتُهُ، عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَنَامَ فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ، فَطَلَبَهَا حَتَّى أَدْرَكَهُ الْعَطَشُ، ثُمَّ قَالَ: أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِيَ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ، فَأَنَامُ حَتَّى أَمُوتَ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ، فَاسْتَيْقَظَ وَعِنْدَهُ رَاحِلَتُهُ وَعَلَيْهَا زَادُهُ وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَاللهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ

---

(١) ينظر الحديث بتمامه في صحيح البخاري (٨/٦٧/ح٦٣٠٦).
(٢) ينظر مدارج السالكين ص: ٢٣٧.

المُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ وَزَادِهِ)[١] .

وينبغي الإشارة إلى أن التوبة والإكثار منها لا يشترط أن تكون عند إحداث الذنب فحسب،بل التوبة مطلوبة على الدوام للعاصي والمطيع وتجديد التوبة صفة التوابين ،فعمل العبد لا يخلو من تقصير ،و نوايا العباد قد يشوبها شيء من حظوظ الدنيا ،وقد لا ترقى العبادة في أدائها لتناسب قدر المعبود جل جلاله فيحسن الاستغفار والتوبة على الدوام[٢] قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١] .

وقيل التوبة سبع مراتب: ﴿ توبة الكفار من الكفر، وتوبة المخلطين من الذنوب الكبائر، وتوبة العدول من الصغائر، وتوبة العابدين من الفترات، وتوبة السالكين من علل القلوب والآفات وتوبة أهل الورع من الشبهات، وتوبة أهل المراقبة عن الغفلات﴾[٣].

❋❋❋❋

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه(٤/٢١٠٣/ح٢٧٤٤) .
(٢) ينظر تفسير ابن رجب (روائع التفسير) (٢/ ١٦٧) ،والبحر المحيط في التفسير (٨/٣٧).
(٣) كتاب التوحيد المسمى بـ (التخلي عن التقليد والتحلي بالأصل المفيد) للحملاوي ص:٢٤٩.

- فئة المنيبين :

أمر الله تعالى بالإنابة فقال:﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ ﴾ [الزمر:٥٤] وأثنى سبحانه وتعالى على المنيبين إليه ووعدهم بالجنة حيث قال عزّ مِن قائل: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝٣١ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝٣٢ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝٣٣ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ۝٣٤ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾[ق: ٣١ – ٣٥].

واختص خليله إبراهيم عليه السلام بالثناء على هذه الصفة الكريمة فقال﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾ [هود: ٧٥].والإنابة الرُّجُوع إِلَى الطَّاعَة ولَا يُقَال لمن رَجَعَ إِلَى مَعْصِيّة إِنَّه أناب [١].

وذكر ابن القيم أن لفظ (الإنابة) يوحي بالإسراع والتقدم فالمنيب هو المسرع إلى مرضاة ربه.

وقيل في الفرق بين التوبة والإنابة: أن التوبة هي الندم على ما سبق . والإنابة: ترك المعاصي في المستقبل[٢] .

---

(١)ينظر مختار الصحاح ص: **٣٢١** ،والفروق اللغوية لأبي هلال العسكري ص: **٣٠٣**.
(٢) ينظر معجم الفروق اللغوية للعسكري ص: **١٤٦** .

قال الماوردي : ((وفي أصل الإنابة قولان: أحدهما: أنه القطع. ومنه أخذ اسم الناب لأنه قاطع، فكأن الإنابة هي الانقطاع إلى الله- عز وجل- بالطاعة. والثاني: أن أصله الرجوع، مأخوذ من ناب ينوب إذا رجع مرة بعد أخرى، ومنه النوبة لأنها الرجوع إلى عادة))(١).

وفي الاصطلاح : عرفها ابن القيم بأنها:((عكوف القلب على الله عز وجل كاعتكاف البدن في المسجد لا يفارقه، وحقيقة ذلك عكوف القلب على محبته وذكره بالإجلال والتعظيم وعكوف الجوارح على طاعته بالإخلاص له والمتابعة لرسوله))(٢).

وبين ابن القيم أن الإنابة إنابتان :

الأولى : إنابة ربوبية : وهي إنابة المخلوقات كلها لله والبشر مؤمنهم وكافرهم فكلهم يرجعون إلى الله عند الاضطرار ،وعند الخوف والحاجة إلى ذي قوة قال تعالى ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾[الروم: ٣٣].

الثانية : إنابة ألوهية : وهي إنابة عبودية ومحبة ،وهي إنابة أوليائه المؤمنين إليه وتتضمن أموراً أربعة : وهي محبته ،والخضوع له ,والإقبال عليه ،والإعراض عما سواه.

---

(١) تفسير الماوردي (٤/٣١٣).
(٢) الفوائد ص:١٩٦.

و الإنابة رجوع عن ثلاثة أشياء مُلخّصها :

١- رجوع إصلاح عما بدر واعتذار.

٢- رجوع إلى العهد وفاء .

٣ - رجوع استجابة ،ورجوع حال وامتثال[1].

إذن فالإنابة للسائر كمن ضلّ الطريق ثم لاح له نور الهداية فالتفت إليه ،فهي الالتفات إلى الله عزوجل ،والرجوع إليه ،ودعوة السائرين للعودة ،مع الإسراع والإقبال والدخول إلى حظيرته والتزام بابه ويتجلى ذلك في قوله تعالى عن داود عليه السلام: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩﴾ [ص: ٢٤].

ومن الفئات الذين خصهم الله تعالى بالقبول الأوابون وقد وصف بها بعض أنبيائه فقال في سليمان عليه السلام : ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[ص:٣٠] وقال :﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾[الإسراء: ٢٥].

كما أجمل الله تعالى في كتابه الكريم عدداً من الصفات التي يحبها في عباده في الآيات

---

(١) ينظر مدارج السالكين (١/ ٤٣٢).

التالية فقال :﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾[الأحزاب: ٣٥].

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾[آل عمران: ١٦ – ١٧].

وقال جلّ جلاله :﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[التوبة:١١٢].

وكلما جمع العبد من صفات هذه الفئات ،فكان محسناً تائباً منيباً طاهراً إلى آخر تلك الصفات كان مقامه أكرم وأرفع وأشرف وهو مقام الأنبياء والصديقين والصالحين نسأل الله من فضله.

****

الفصل الثالث :

أساليب القرآن في الحث على طلب القبول

حث القرآن الكريم على القبول بأساليب متنوعة يدعو الناس إلى الله وكشف لهم حقيقة مآلهم وما هم مقبلين عليه من لقائه عز وجل ،ومجازاتهم بأعمالهم ،ليسارعوا ويبادروا ليقبلهم ربهم في عباده الصالحين ،ومن تلك الأساليب :

١) أسلوب الترغيب والترهيب .
٢) الأسلوب القصصي.
٣) أسلوب ضرب المثل.
٤) الأسلوب الإنشائي.
٥) الأسلوب الوعظي.
٦) أسلوب العرض والإغراء.
٧) الأسلوب العقلي.
٨) الأسلوب الوجداني.

أولاً: أسلوب الترغيب والترهيب

أسلوب الترغيب

أوجب الله تعالى على نفسه الرحمة بعباده فهو الودود يتودد إليهم ويرغبهم في طاعته حتى يكونوا عنده في عداد المقبولين ،فيرضى عنهم ،ويدخلهم جناته التي خلقها لهم ; إذ من الممتنع على عدله المطلق سبحانه أن يُدخل الناس كلهم الجنة مع أنه القادر على ذلك بغير عمل ،ولكن لا يستوي العامل وغير العامل ،كما لا يستوي العاصي والمطيع ،فابتلاهم بالأوامر والنواهي ،ثم رغبهم في الطاعة ونيل الجنة كجائزة مؤجلة ،وقد جاء القرآن الكريم مشوقاً للعباد بمختلف الصور ومعرفاً لهم بشتى الأساليب بما يصلحهم وما يدلهم على طريق الفوز والفلاح ، واستدعاءهم إلى موجبات القبول ،وإلى تحصيل كرامته و مرضاته غير أن كثيراً من الناس معرضون عازفون،وإلى شهوات الدنيا منكبّون مائلون والله المستعان . فبالقبول تكفّر السيئات،وتمحى الخطايا ،ويُرفع العبد أعلى الدرجات ،فقد يُفتح على العبد باب العمل ويغلق عنه باب القبول عياذاً بالله فيعمل العبد من الأعمال أمثال الجبال ثم تكون هباء منثوراً،قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ

خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾[الغاشية: ٢ - ٤] ولذلك تعددت أساليب الترغيب في القرآن ،فالله تعالى يريد لعباده الرحمة وهم يقحمون أنفسهم في موجبات سخطه وعذابه . ولعل من المهم تعريف الترغيب لالتباس المعنى وخفائه فقد جاء في بعض المؤلفات المعاصرة (١)بمعنى التشويق والتشويق أخص منه فالترغيب أعم ويدخل فيه التشويق(٢).

والترغيب لغة: هو الإطماع في الشيء لطلبه وإرادته والحرص عليه (٣).

وهذا المعنى اللغوي يقود إلى التعريف شرعاً لمفهوم الترغيب حيث يمكن القول بأنه : كل ما يدفع المدعو إلى طلب الشيء والطمع فيه والحرص عليه وإرادته. قال تعالى:

﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠] رغبا أي طمعا فيما عنده ،ورغبة وعزيمة في الأمر للحصول على ما يرجون منه ومن رحمته وفضله .ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ

(١) جاء بيان معنى الترغيب بأنه هو (كل ما يشوق المدعو إلى الاستجابة)أصول الدعوة للدكتور عبد الكريم زيدان ص ٤٣٧.

(٢) التشويق في كتب اللغة جاء بمعاني نزاع النفس و التعلق بالشيء وشاقه الشيء أي هيجه. ينظر العين (٥/ ١٨٤) والصحاح تاج اللغة (٤/ ١٥٠٤) ،ومجمل اللغة لابن فارس (١/ ٥١٦) ،وكتاب الأفعال (٢/ ٢٢٢).

(٣) ينظر الألفاظ لابن السكيت (١/ ٣٨٨)،والنهاية في غريب الأثر (٢/ ٢٣٧) ،والتعريفات ص١٢٣ ،والقاموس المحيط ص ١٧٩ ،والمعجم الوسيط ص٣٥٦.

فَٱرْغَـــب ﴾ [الشرح: ٨] أي اجعل رغبتك ونيتك وقصدك لربك وطلب ما عنده[١] .

ومن أساليب الترغيب :

١- الترغيب ببيان عظمة الله مما يدعو ويدفع إلى الخشية والخضوع له والرغبة فيما عنده فقوله تعالى :﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾[البقرة: ٢٥٥].

وقوله عز وجل :﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[الزمر: ٦٧].

وقوله تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾[الإسراء: ٤٣ – ٤٤] وقوله جلّ شأنه: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ

---

(١) ينظر تفسير الطبري (٤٩٨/٢٤)،وتفسير ابن كثير (٤٣٣/٨)،وتفسير السعدي ص**٩٢٩**.

وَقَارًا ﴾[نوح: ١٣] دليل على الدعوة إلى تعظيمه وتعظيم أمره ونهيه .

ففي إظهار أسمائه وصفات جلاله وكمال عظمته،وسعة سلطانه ،واتصافه بالحياة والعلم والقيومية ،والملك والقدرة والإرادة دليل على أنه المستحق للإلهية والوحدانية ،وترغيب في الانقياد له تعالى والتعظيم له.

٢ - الترغيب في التماس رضوان الله: ورد الحث على رضا الله في كثير من الآيات منها: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[النساء:١١٤]. ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾[البقرة: ٢٠٧]. ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

يغرس القرآن الكريم في الألباب معنى أصيلا وهو أن يكون الباعث على عمل العبد رضا الله تعالى ،وأن يكون العمل خالصاً لله وحده ،بعيداً عن الرياء ،بعيداً عن السمعة ،فقد يعمل العبد العمل الصالح في ذاته فيكتب في سجل السيئات ،بصرفه إلى غير الله .

فعلى العبد أن يحرص على توجيه جميع أعمال البرّ إلى الله ، حتى يصل بعمله إلى مرفأ القبول،وفي فلك رضوان ربه يجول.

٣– الترغيب بقبول العمل :

قال تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾[الأحقاف: ١٦]. نوّع المنهج الرباني الفريد في الترغيب بالقبول ،وذلك لاختلاف الأفهام ومدارك العقول ،فقلّب الترغيب بطرائق شتى للتنبيه والتذكير ،فتارة بالتصريح وتارة بالتلميح ،وفي التصريح بقوله تعالى ﴿ نَتَقَبَّلُ ﴾ وعدٌ منه تعالى ومن أوفى بوعده من الكريم سبحانه ،فالجزاء بحساب أحسن الأعمال ،والسيئات متجاوز عنها. ثم الجنة بعد ذلك خير منزل ومآل[١] .

٤ – الترغيب بتثقيل الميزان:

قال تعالى ﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[الأعراف:٨] وقال تعالى:﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ٧﴾[القارعة: ٦ – ٧]. حثت الآيات الكريمة بأسلوب ترغيب إنشائي على الأعمال الصالحة التي تثقل موازين العبد يوم القيامة،وكل ما أثقل الميزان يوم القيامة فهو مما تقبله الله عز وجل ورضيه .

---

(١) ينظر في ظلال القرآن (٦/ ٣٢٦٣) ،والتفسير الوسيط للقرآن الكريم (٩/ ٩١٨).

فيجدر بالعبد أن يستحثه ذلك على السعي لتثقيل ميزانه ،واستثمار أيامه فيما يعود عليه بنفع معاده فقد علق سبحانه وتعالى الفلاح على من أثقل ميزانه بالطاعات ،فهو الذي حاز القبول،وفاز بالنعيم وسائر المكرمات.

٥- الترغيب بإخفاء الأجر تشويقاً: قال تعالى:﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[السجدة: ١٧]. فمن الترغيب في العمل تعظيمُ الجائزة ، وإخراجُها عن حيّز التصور البشري ،وإخفاؤها حتى يسعى شوقاً إلى نيلها العاملون ،حيث أعد الله تعالى لعباده المقبولين عنده مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. فما تقرّ به الأعين كثير كثير ..لا حدود له،فهو يعمّ كل ما يهتز له القلب ،وتطرب له النفس،وتسرّ له الحواس . فالتعبير القرآني يدعو لتحفيز النفس ،وإرسال الخيالات والتساؤلات، والتطلع إلى ذلك الأجر الخفي والسعي لنيله والفوز به.

٦ – الترغيب بمضاعفة الحسنات ،أو تبديل السيئات : قال تعالى ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٦١] ومما يؤيد ذلك قول النبي ﷺ: (مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللهِ؛ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لاَ أَقُولُ: ﴿الٓمٓ﴾ حَرْفٌ، وَلَكِنْ: أَلِفٌ

حَرْفٌ، وَلاَمٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ) (١).

ويستثمر الأسلوب القرآني الكريم غريزة حب العباد لجمع منافع الدنيا وزخرفها وهي الفانية،في الترغيب بمضاعفة الحسنات والدلالة إلى جمع أرقى وأنفع ،بل إلى مالا ينتهي نفعه ولا يحصى عدده ,وذلك لحث الهمم للجمع والتحصيل والاستكثار،وكلما أكثر العبد أكثر الله له وقربه وأعلى منزلته.

ومن صور الترغيب في نيل ما عند الله الإغراء بتبديل السيئات الماضية الفاسدة المذمومة إلى حسنات مُرضية مقبولة إما بتوفيقهم للتوبة والعمل الصالح أو بالعفو عنهم ،أرأيت لو أن حاكماً نادى في رعيته أن أحضروا جميع ما عطب في بيوتكم وفسد فإني أبدلكم به بجديد نافع،ألا يهرع القوم إليه ويتسابقون ؟ فكيف إذا كان ذلك الجديد مصحوباً بالمكافئة فوق ذلك – ولله المثل الأعلى– قال الله تعالى:﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[الفرقان: ٧٠].

٧ – الترغيب بالبشارة بالجنة ورؤية الله عز وجل :قال تعالى﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٥/١٧٥/ح٢٩١٠) ،والطبراني في الكبير (٩/ ١٣٠/ح٨٦٤٦) وقال الألباني: (صحيح) في صحيح الترمذي.

رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥]. ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۚ وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥].

من أساليب الحث على طلب القبول والترغيب فيه،البشارة بالجنة لمن آمن بالله و عمل الصالحات،وجاءت الآيات بالإسهاب في تعريفها ووصفها بذكر محاسنها بما يملأ الطرف ،وذكر دقائقها وتفصيل نعيمها من مساكن ومطاعم وحور وأنهار مما يجل عن الوصف. ثم بالزيادة في التشويق برؤية ذي الجلال والإكرام ،مما يستثير في النفس التطلع بالفؤاد إلى ما فوق الغمام ،ويحدو بالعبد الرجاء في الوصول إلى الجنة دار السلام ،قال تعالى:﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾[الكهف: ١١٠].

٨ – الترغيب في التوبة ومحو الذنوب والخطايا :

قال تعالى:﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٤].

تتجلى رحمة الله تعالى وسعة عفوه في وعده عباده بالعفو عن الزلات ،وحثّهم على الإقبال عليه بالتوبة والإنابة ،وكتاب الله زاخر بآيات الرجاء والعفو وذِكر أسماء الله وصفاته الدالة على ذلك كـ(العفوّ) و(الغفور) و(الغفار) و(الرحمن) و(غافر التوب) و(قابل التوب).

والمتأمل في الكتاب الكريم يجد أن الحث على القبول ،والسعي لالتماس عفو الله ومغفرته لا يقتصر على الكافر والفاجر دون غيرهم بل تعمّ جميع فئات الناس من أتقاهم إلى أفجرهم،فالله تعالى يدعو لالتماس العفو والقبول ،ويدعو لدخول الجنات،ويدعو للارتقاء فمن ذلك دعوته تعالى الكفار للإيمان والتوبة:﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾[الأنفال:٣٨].وقوله:﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣١].

ودعوته للمسرفين في الذنوب إلى الرجوع إليه ليقبلهم ،فيفتح لهم أبواب الرجاء ،ويشفي سقم قلوبهم بالدواء : ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:١٣٥]. وقوله عز من قائل :﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[الزمر: ٥٣].

ودعوته الصالحين أمثال أبي بكر الصديق رضي الله عنه للكمال ،وللارتقاء في سلّم القبول: ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾[النور: ٢٢]. بل إنه يدعو الرسل والخطاب للرسول ﷺ ليستحثّ في الأمم الهمم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٥١ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ﴾[المؤمنون: ٥١ – ٥٢] . فكأن القبول فضائل متعددة يمنّ الله بها على العبد بداية ثم تُكتسب بالطاعات ،وكلما حاز العبد على فضيلة ارتقى عند الله ،فهي قبول نجاة،وقبول عفو، وقبول إثابة ،وقبول رفعة .

ثم نجد الدعوة والترغيب لحيازة السبق إلى الله والرجوع إليه ويتمثّل ذلك في قوله تعالى عن سحرة فرعون بعد مسارعتهم للإيمان :﴿إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[الشعراء: ٥١].
ثم الترغيب في تدارك الوقت أو التحذير من فوات الأوان : ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾[الزمر: ٥٤].
﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٥٥ أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾[الزمر:٥٥–٥٦] .

٩- الترغيب في الاستغفار والرجوع إلى الله:

قال تعالى:﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ١١٠].

قال تعالى:﴿إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا﴾[الإسراء: ٢٥].

وقال تعالى:﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾[هود:٣].

وقال عز وجلّ: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا﴾[نوح:١٠ – ١٢].

وقال تقدست أسماؤه : ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾[هود:٥٢].وقـال سبحانه : ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[البقرة: ١٩٩].

ومن خلال استقراء أقوال المفسرين يتبيّن أن الاستغفار يتحدد معناه بحسب من توجه إليه الخطاب ، فإن كان الخطاب للكافر والمشرك فهو بمعنى الإيمان لأنه هو المطلوب ،فالمطلوب الرجوع عمّا كانوا عليه من الشرك قبل كلّ شيء ، ثُمَّ التوبة لما يستقبل من العمل ،إذ لا يُقبل من الكافر استغفاراً وهو مقيم على شركه وكفره ،وإن كان الخطاب للمؤمن فإن الاستغفار هو التوبة من الذنوب صغارها وكبارها لما سلف وما يستقبل من العمل.

و هل يقبل الله تعالى الاستغفار بدون توبة ؟

بيّن ابن تيمية رحمه الله أن الاستغفار لابد أن يقترن مع التوبة وهذا عام في كل من يستغفر ، ولكل معصية . فإن الاستغفار بدون التوبة ، لا يستلزم المغفرة، وَلَكِنْ هُوَ سَبَبٌ مِنَ الْأَسْبَابِ. لكن يوجد استغفار بدون توبة وقد ينفع في حق بعض الناس دون البعض، فبعض الناس يستغفر ولم يتب ، لكن يحصل له عند الاستغفار من الخشية والإنابة ما يتجاوز الله به عن خطاياه بسبب ما قارن ذلك الاستغفار من الانكسار والخشية والإنابة إلى الله كما في حديث البطاقة المعروف، وهو أرجى حديث للعصاة عند أهل السنة والجماعة، (يُصَاحُ بِرَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُؤوسِ الْخَلَائِقِ، فَيُنْشَرُ علَيه تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ سِجِلاًّ، ...)[١] فصاحب البطاقة لم يُعذب ،وجميع أصحاب الكبائر هم ممن قالها ولكن منهم من يعذب بالنار، كما ثبت في الصحيح،أما صاحب البطاقة فقد قالها عن توبة وإخلاص ، ولهذا إذا تاب فالتوبة تكفيه، وقد ثقلت بطاقته بتلك السيئات مع أن السيئات لم تُمح عنه ؛ لكن قوله إياها بصدق وإخلاص استغرقت جميع سيئاته وطغت عليها فغفرها الله له ، وكثير من الناس يقولونها وليس عندهم صدق وإخلاص فيعذبون بسيئاتهم. ولا يقبل استغفارهم،ومع أن صاحب البطاقة لم يستغفر

(١) ينظر الحديث في صحيح ابن ماجة للألباني (٥/٦/ح٤٣٠٠).

ولكن ذكر الشهادتين خالصا من قبله[١] وقياساً على ذلك الاستغفار ،فالشهادة على أي حال متضمنة للرجوع إلى الله والاعتراف له بالوحدانية . وكما قال أحد السلف: إن استغفارنا هذا بحاجة إلى استغفار. فالاستغفار المطلوب هو ما صدقت فيه النية وواطأه اللسان ،وحصل فيها طلب العفو الصادق من المنان ، فيشعر فيه المستغفر بتعظيم للغفار واعتراف بما أتى من تعد لحرماته. ولذلك قال النبيِّ ﷺ: (سَيِّدُ الاِسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ) قَالَ: (وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا، فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا، فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ) [٢]

ومعنى الاستغفار : طلب المغفرة من الله تعالى وذلك بالإجابة باللسان ،ثم الإنابة بالجنان ،ثم المداومة عليهما [٣].

---

(١) ينظر جامع المسائل لابن تيمية(٦/٢٧٨)،ومجموع الفتاوى(٧/٤٨٨).
(٢) أخرجه البخاري(٨/٦٧/ح٦٣٠٦).
(٣) ينظر تفسير لباب التأويل في معاني التنزيل (٢/٤٨٩)،والطبري(١٢/٣١٢).والثعلبي(٥/١٧٤).

١٠- الترغيب ببيان المفاضلة بين العاملين: قال تعـالى ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٩٥ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[النساء: ٩٥ – ٩٦].

ما أبرع أسلوب الترغيب الرباني في الحضّ على حيازة الأفضل والأمثل ففي قوله: ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾ حثٌّ لتتطلع الهمم إلى القمم ،ولا تُحط الرحال إلا بعد إدراك غاية الآمال،ففضل الله تعالى لا يتساوى فيه جميع العباد ،فمنهم السابق،ومنهم المقتصد،ومنهم من كبا به الجواد .فتلك الدرجات هي عين ما يقتضيه عدله ,وما تستلزمه مغفرته ورحمته جلّ جلاله.

فدقّة التفاضل في الآخرة ،ميزان ذو حساسية مرهفة،أرأيت ميزان الذهب ودقته بل هو أشدّ ،ميزانٌ وحْدته الذرّة والهباءة التي لا ثقل لها ولا تُرى للعَيان،ولكنها لا تفوت ولا يعجز عن تسجيلها الملكان ،قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾[الزلزلة: ٧] فعَنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ، أَنَّ رَجُلَيْنِ مِنْ بَلِيٍّ قَدِمَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَ إِسْلَامُهُمَا جَمِيعًا، فَكَانَ أَحَدُهُمَا أَشَدَّ اجْتِهَادًا مِنَ الْآخَرِ، فَغَزَا الْمُجْتَهِدُ مِنْهُمَا فَاسْتُشْهِدَ، ثُمَّ مَكَثَ الْآخَرُ بَعْدَهُ سَنَةً، ثُمَّ تُوُفِّيَ، قَالَ طَلْحَةُ: فَرَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ: بَيْنَا أَنَا عِنْدَ بَابِ الْجَنَّةِ، إِذَا أَنَا

بِهِمَا، فَخَرَجَ خَارِجٌ مِنَ الْجَنَّةِ، فَأَذِنَ لِلَّذِي تُوُفِّيَ الْآخِرَ مِنْهُمَا، ثُمَّ خَرَجَ، فَأَذِنَ لِلَّذِي اسْتُشْهِدَ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَيَّ، فَقَالَ: ارْجِعْ، فَإِنَّكَ لَمْ يَأْنِ لَكَ بَعْدُ، فَأَصْبَحَ طَلْحَةُ يُحَدِّثُ بِهِ النَّاسَ، فَعَجِبُوا لِذَلِكَ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَحَدَّثُوهُ الْحَدِيثَ، فَقَالَ: (مِنْ أَيِّ ذَلِكَ تَعْجَبُونَ؟) فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا كَانَ أَشَدَّ الرَّجُلَيْنِ اجْتِهَادًا، ثُمَّ اسْتُشْهِدَ، وَدَخَلَ هَذَا الْآخِرُ الْجَنَّةَ قَبْلَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَلَيْسَ قَدْ مَكَثَ هَذَا بَعْدَهُ سَنَةً؟) قَالُوا: بَلَى، قَالَ: (وَأَدْرَكَ رَمَضَانَ فَصَامَ، وَصَلَّى كَذَا وَكَذَا مِنْ سَجْدَةٍ فِي السَّنَةِ؟) قَالُوا: بَلَى، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (فَمَا بَيْنَهُمَا أَبْعَدُ مِمَّا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)[(١)].

وقال الإمام مالك: « بَلَغَنِي أَنَّ مِسْكِينًا اسْتَطْعَمَ عَائِشَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ وَبَيْنَ يَدَيْهَا عِنَبٌ، فَقَالَتْ لِإِنْسَانٍ: (خُذْ حَبَّةً، فَأَعْطِهِ إِيَّاهَا، فَجَعَلَ يَنْظُرُ إِلَيْهَا وَيَعْجَبُ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: (أَتَعْجَبُ كَمْ تَرَى فِي هَذِهِ الْحَبَّةِ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ) »[(٢)].

١١- الترغيب ببيان تفاوت أهل الجنة بحسب الأعمال: قال تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١].

---

(١) أخرجه ابن ماجة في السنن(٢/ ١٢٩٣/ ح٣٩٢٥) وقال الألباني صحيح ،وأحمد في المسند (٣/ ٢١/ ح١٤٠٣)،والبيهقي في السنن الكبرى (٣/ ٥٢٠/ ح٦٥٣٠) .

(٢)أخرجه الإمام مالك في الموطأ (٥/ ١٤٥٢/ ح٣٦٥٦)،والبيهقي في الشعب (٥/ ١٣٢/ ح٣١٩١) .

دلت الآية الكريمة على عظيم التفاوت في درجات الجنة ترغيباً في إحراز أعلى الدرجات ، فما بين كل درجة والتي تليها كما بين السماء والأرض قَالَ رَسُولَ اللهِ ﷺ: (إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ)[1].

كما بيّن النبي ﷺ بُعد المسافة بين كل درجة وأخرى في الحديث الصحيح بأن أهل الجنة يتراءون من هم أعلى منهم في الدرجات كالكوكب الغابر في السماء فقال ﷺ: (إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنُ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا يَتَرَاءَوْنُ الْكَوْكَبَ الدَّرِّيَّ الْغَابِرَ فِي الأُفُقِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوِ الْمَغْرِبِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ)[2].

وفي قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾[الواقعة: ٧ – ١١].

بيان للتفاوت بحسب الأعمال فالسابقون هم الذين سبقوا بِالنَّوَافِلِ بَعْدَ الْفَرَائِضِ وَتَرَكُوا مَا لَا بَأْسَ بِهِ خَوْفًا مِمَّا بِهِ بَأْسٌ ،وَمَا زَالُوا يَتَقَرَّبُونَ ففاقوا غيرهم إيماناً و عملاً وامتثالاً وهم الأنبياء والرّسل والصّديقون والشهداء وأمثالهم وهم في أعلى المنازل ، وأصحاب الميمنة في منزلة أدنى في الجنة وهم الَّذِينَ اقْتَصَرُوا عَلَى الْتِزَامِ الْوَاجِبَاتِ وَاجْتِنَابِ الْمُحَرَّمَاتِ فَلَمْ يَزِيدُوا عَلَى

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/١٦/ح٢٧٩٠).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/١١٩/ح٣٢٥٦) ، وأخرج نحوه مسلم (٤/٢١٧٧/ح٢٨٣١).

ذَلِكَ وَلَمْ يَنْقُصُوا مِنْهُ [١] ثم كل منهم درجـات متفاوتة ما بين كل درجة وأخرى كما بين السماء والارض .قال صاحب معارج القبول في تفاوت أهل الجنة : "وَمُتَفَاوِتُونَ فِي المِلْكِ،وَمُتَفَاوِتُونَ فِي الْحُسْنِ وَالْجَمَالِ وَالنُّورِ وَمُتَفَاوِتُونَ فِي قُرْبِهِمْ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ،وَمُتَفَاوِتُونَ فِي تَكْثِيرِ زِيَارَتِهِمْ إِيَّاهُ،وَمُتَفَاوِتُونَ فِي مَقَاعِدِهِمْ يَوْمَ الْمَزِيدِ،وَمُتَفَاوِتُونَ تَفَاوُتًا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ " [٢] .

١٢ – الترغيب بالمنافسة والمسارعة لنيل أعلى درجات القبول:

قال تعالى:﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾[الواقعة: ١٠ – ١١].

وقال: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾[المطففين: ٢٦] .

وقال عز وجل: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[آل عمران: ١٣٣].

وقال سبحانه وتعالى :﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا

(١) ينظر تفسير الوسيط للزحيلي (٣/ ٢٥٦٧) ومعارج القبول للحكمي (٣/١٠٠٨) .
(٢) معارج القبول للحكمي (٣/١٠٠٨) .

كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[الحديد: ٢١].

ما أجمل التعبير القرآني وهو يشحذ الهمم ،ويضمّن بالمفهوم ذمّ التراخي والفتور والإبطاء،فالعبد إن لم يلتفت لآخرته،ويسابق إليها ،أخذته الدنيا مع أعاصيرها وزوابعها وكان أمره فرطا . قال أهل التفسير في قوله تعالى : ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[الحديد: ٢١] أي : لتكن منافستكم ومكاثرتكم في غير ما أنتم عليه بل احرصوا على أن تكون مسابقتكم في طلب الآخرة إلى ما كُلفتم به من الأعمال فتدخل فيه التوبة وغيرها. وسابقوا فيما تنالون به عند الله أعلى الدرجات. وسارعوا مسارعة المسابقين في المضمار إلى ما يوجب العفو و المغفرة ,و التوبة من الذنوب (١).

١٣ – الترغيب بالشكر من الله للعبد :

قال تعالى:﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾[الإسراء: ١٩].

(١) ينظر لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن (٤/ ٢٥١) .

وقال تعالى ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ١٥٨].

لا مثيل لكرم الله عز وجل وسعة عطائه ,تأمل كيف يؤدي العبد الطاعة التي هي من واجباته كعبد تجاه سيده ومولاه ،وخالقه ووليّ نعمته ،ثم يجد قبولها والشكر والثناء من الله عليها مع أن نفعها عائد إلى العبد نفسه ،فكأن الله تعالى يشكره على معروف صنعه لنفع نفسه .فلا يخفى أن التعبير بالشكر فيه ترغيب في السعي لعمل الآخرة ،وحثّ للإكثار من عمل الخير وجميع أعمال البرّ على إطلاقها ،فإن الله تعالى يقبل طاعة العبد ويشكره عليها ،قال الزجاج [١]: ((الشُّكْر من الله تَعَالَى هُوَ إثابته الشاكر على شكره فَجعل ثَوَابه للشكر وقبوله للطاعة شكرا)) [٢].

والشكر: عرفان الإحسان ونشره.

ومن أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وصفاته أنه (الشَّكُورُ) فهُوَ الَّذِي يَزْكُو عِنْدَهُ القَلِيلُ مِنْ أَعْمالِ الْعِبَادِ فيُضاعَف لَهُمُ الجَزَاء بالكثير الذي لا حصر له ولا عدّ ،فهو الواسع العطاء سبحانه [٣].

(١) هو أَبُو إِسْحَاق إِبْرَاهِيم بن السَّريّ الزَّجَّاج ،من أكابر أهل اللغة العربية، وكان حسن العقيدة، جميل الطريقة. لَهُ كتاب (مَعَانِي الْقُرْآن وَشرح إعرابه)، وَله كتاب (الِاشْتِقَاق)،ومصنفات أخرى ،تُوفي سنة ستَّ عشرَة وثلاثمائة. ينظر تاريخ العلماء النحويين للتنوخي ص: ٣٨ ،ونزهة الألباء في طبقات الأدباء ص: ١٨٣ .

(٢) تفسير أسماء الله الحسنى للزجاج ص: ٤٧ .

(٣) ينظر النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/٤٩٣).

فالشكر درجة فوق مجرد الإثابة ،بل وفوق الرضا. فهي الرضا مع الزيادة والعطاء الجزيل والقُرب.

فعند التأمل في تذييل الآية السابقة واقتران العلم مع الشكر بقوله تعالى : ﴿فَــإِنَّ ٱللَّهَ شَــاكِرٌ عَلِيــمٌ﴾ يظهر التأكيد على أمور منها:

- أنها تأكيد يفيد الترغيب في عموم الطاعات بأنواعها.

- ورود صفة العلم بعد الشكر فيه تأكيد وتذكير بالإخلاص وإن الله مطّلع على نية العامل.

- و لفظ (شاكر) فيه مدحٌ للعبد وثناء على عمله،ومجزٍ له فوق ما يستحق[1].

- كما نجد في صفة (عليم) إشارة خفية تزيد على مجرد الشكر بالإثابة فهي تحمل في طياتها الاطلاع على العمل بما يفيد التشريف والتقدير للعمل وعامله إذ أن الشكر في ذاته يستلزم العلم،ولكن إيراد العلم هنا يفيد التقدير إذ كفى بالعلم والاطّلاع على العمل من صاحب المكانة العالية تشريفاً للعمل وصاحبه وإن لم يَشكر.

---

(١) ينظر تفسير السعدي ص:٧٦ ،والتحرير والتنوير(٢/ ٦٤) ،وتفسير البغوي (١/ ١٧٥) .

وكذا في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾[الأنبياء: ٩٤]. ومعنى﴿فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ﴾ أي : لا يُجحد ولا يُبطل سعيه بل يُشكر ويثاب عليه ,ثم جاء بعد ذلك بالتأكيد بكتابة العمل في اللوح المحفوظ وصحيفة العبد ، مع ما يحمل اللفظ في طياته من إشارة لطيفة إلى تقدير العمل ورفع مكانة صاحبه بقوله: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾.

ومن خلال تأمل الآية الكريمة يلاحظ أنها تضمّنت أربعة مؤكدات على الشكر ،وعدم كفران السعي وضياع الثواب ، بحرف التوكيد أولاً ونون العظمة ثانياً ﴿وَإِنَّا﴾ الدال على التشريف،ثم بالضمير ﴿لَهُۥ﴾ ثم بالتقيد والكتابة بصيغة الجمع وما فيها من دلالة كذلك على شرف المكانة للمكتوب ﴿كَٰتِبُونَ﴾ فالمعنى بذلك يتضمّن كتابة حفظ وتقييد ،وكتابة شهادة وحجة ,وكتابة عرفان وتشريف. والله تعالى أعلم.

١٤ – الترغيب بالإشارة إلى آلاء الله في الكون :

قال من أبدع الكون سبحانه :﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ۝٦ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا

فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٧ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ٨ وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ٩ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ١٠ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ﴾[ق: ٦ – ١١].

وقال الباريء جل جلاله : ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]. وقال جلّ شأنه :﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ٢٠ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ﴾[الغاشية: ١٧ – ٢١].

يستنهض القرآن الكريم ذوي العقول السليمة للنظر في آلاء الله ،والتفكّر في بديع خلقه ،فالتّأمل في هذا الكون العجيب ،يقود الكافر إلى الله ، ويزيد المؤمن على إيمانه يقيناً بأن هذا الكون لم يخلق عبثاً ،ولم يُنشأ سدى ،مما يحدو بالعبد إلى استصغار ذاته ،وتعظيم أمر ربه و الجثو عند باب الخالق العظيم ،طالباً العفو ،راجياً القبول [(١)].

١٥–الترغيب بالإضافة إليه جل وعلا و الإشادة بالصفات الحسنة ،وبيان صفات المؤمن الحق:

(١) ينظر التفسير الوسيط للقرآن الكريم(٥/ ٥٨٧)،والتيسير في أحاديث التفسير (٤/ ١١٠) .

وهو أسلوب تربوي قرآني كريم قال تعالى:﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴾[الفرقان: ٦٣] إلى آخر آية ٧٥ فبين أن هؤلاء هم الذين شرفهم الله تعالى بالإضافة إلى ذاته بأنهم عباده فوصفهم بأعلى مقامات الشرف للمخلوق وهي عبوديته عز وجل [١].

ثم قال تعالى في وصفهم : ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ٢٣ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ٢٥ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ٢٦ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ﴾إلى آخر الآيات [المعارج: ٢٣ – ٢٧].

فالقرآن الكريم يُلقي الضوء على الصفات التي يقبلها الله ويحبها ،فهؤلاء الذين تحلوا بفضائل الصفات ،فإن لهم من الله فضائل الدرجات . وقد قال النبي ﷺ: (إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِساً يَوْمَ القِيَامَةِ أَحَاسِنكُمْ أَخْلاَقاً، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِساً يَوْمَ القِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ وَالمُتَشَدِّقُونَ وَالمُتَفَيْهِقُونَ) [٢].

---

(١) ينظر بدائع الفوائد (٣/٦٧) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن، (٤/٣٧٠/ح٢٠١٨)،وأخرج نحوه البيهقي في الشعب(١٠/٣٥٩/ح٧٦٢٢)،وروى نحوه ابن حبان في صحيحه (٢/٢٣١/ح٤٨٢)، وأحمد في المسند (٢٩/٢٦٧/ح١٧٧٢٣) وقال الألباني: (صحيح) في صحيح الترمذي.

وقال عليه الصلاة والسلام : (إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ)[١] .

***

ب - أسلوب الترهيب

وكما لأسلوب الترغيب من أثر بالغ في جذب السائرين إلى الله ،وحسن توجههم إليه ،فإن أسلوب الترهيب جاء لتحقيق التوازن التربوي ففيه التحذير من خطر الانحراف عن الطريق ومغبّة البعد عن مناهل القبول وعذب موارده ،ومن عاقبة الولوج في مفاوز الجدب والقحط من الخير. ومن ذلك:

١– الترهيب بالمماثلة في الوزر:

قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾[النساء: ١٤٠].

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٤/ ٢٥٢/ح٤٧٩٨)،والبيهقي في شعب الإيمان (١٠/ ٣٦٤/ح٧٦٣٢) ،وقال الألباني : (صحيح) في صحيح أبي داود .

إن الترهيب بالمماثلة في الوزر يدلّ ضمناً على ولوج درب شائك ،و تباعد عن درب القبول ،فلا يُتصور أن يكثر العبد الذنوب ثم يكون من الله مقرباً ومحبوباً ،وانظر إلى نوع الذنب وشدة مقت الله لصاحبه ،فبحسب موقع الذنب عند الله وبغضه له يكون بعد صاحبه عن مناهل القبول وأسباب المغفرة . ففي الآية السابقة تشديد في التحذير من التمادي مع أهل الباطل ،وممالأتهم على ما هم فيه من ضلال ،والمعنى إنكم إن جالستم من يكفر بآيات الله ويستهزئ بها وأنتم تسمعون، فإن لم تقوموا عنهم في تلك الحال ، فقد أتيتم من معصية الله نحو الذي أَتَوْه منها، فأنتم إذاً مثلهم في ركوبكم معصية الله، ومثلهم في استحقاق العقوبة[1]. فهؤلاء الذين يستهزئون بالدين ،ويستهينون بحرمات الله ،أولئك على نأيٍ من أسباب القبول ،ومجالستهم إنما هي على شفا جرف هار ،ولسوف يحملون معهم ما حملوا من آثام وأوزار.

٢- الترهيب بضرب المثل:

من أبلغ الوسائل الوعظية والترهيبية تصوير حال أهل الضلال والزيغ ،وتمثيل حالهم بأمور محسوسة في الواقع لدى المتلقي ،ليكون ذلك أوقع في الإقناع ،وأبعد من سيء تلك الصفات

---

(١) ينظر تفسير الطبري(**٩/ ٣٢٠**) ،وتفسير ابن كثير (**٢/ ٤٣٤**)،وتفسير القاسمي (محاسن التأويل)(**٣/ ٣٧٣**).

والطباع . فيصور حال الذين طُردوا و كيف أنهم في انحدار وسفول، وأنهم لم يجدوا عند الله حُظوة ولا قبول ، وذهب كل ما جمعوا فوقفوا بائرين حاسرين. ومنهم ذاك الذي غرر به الشيطان فتشبث بالدنيا عن الدين،وحوّلته الأهواء والشهوات إلى حال الظالمين الخاسرين .

قال جل في علاه ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[آل عمران: ١١٧]. أي : مثل ما ينفقون ولو كان في ظاهره الخير فلا يُقبل منهم ، كمثل زرع نبتَ وتهيأ للحصاد ، فأصابته ريحٌ شديدة البرد ، فأهلكت ذلك الزرع وأيبسته ،وذهبت بالثمر فأفسدته . وكذلك هم أنفقوا فأهلكهم شِرْكهم،وأذهب ثواب أعمالهم هباء[(١)] .

ومن الأمثال قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾[إبراهيم: ٢٦]مثل للترهيب من كلام الكفر والنفاق وسائر خبيث القول والعمل ومن معاني هذه الآية ما رُوي عن ابن عباس أنه قال هيَ الكافر لأنه لا يقبل عمله فليس له أصل ثابت ولا يصعد إلى السماء، فالكافر لا خير فيه ولا يصعد

(١) ينظر تفسير الطبري (٧ /١٣٥) ،وتفسير القرآن الكريم لابن القيم (١/ ٢١٨) .

له قول طيب ولا عمل صالح وهي ترهيب من عموم كلام السوء الذي يضر ولا ينفع[(١)].

٣- الترهيب بعدم القبول :

ما أحوج المرء إلى من يُنير له الطريق ليتبيّن معالمه ,و يبتعد به عن درب الشقاء لينعم بالسعادة،وهذه طريقة الكتاب المبين الذي جاء نوراً وهدى ،فهو منارات يهتدي بها السائرون، ويعين الله فيه العبد على فعل ما يحبه ويرضاه ،وينهاه عن انتهاك حماه ،فها هو يقرر للجميع بصريح اللفظ أن من أتى بغير دين الإسلام يوم القيامة فلن يُقبل عمله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[آل عمران: ٨٥].

وها هو يبيّن في قوله تعالى:﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾[التوبة: ٥٣] أن الله لن يقبل من منافق صدقة ولا عملاً لكفره ،ولا يقبله من أحدٍ لا يريد به وجهه الكريم[(٢)].

٤- الترهيب بنار جهنم وأحداث الساعة :

ويأتي الترهيب بأحداث يوم القيامة ومشاهد البعث ،و بجهنم وأغلالها ،ودركاتها ،ووصفها

(١) ينظر تفسير الخازن (لباب التأويل في معاني التنزيل) (٣/٣٥)،وتفسير ابن عطية (المحرر الوجيز)(٣/٣٣٦).
(٢) ينظر تفسير الخازن (لباب التأويل في معاني التنزيل) (٢/ ٣٧٠) ،وتفسير ابن كثير (٤/ ١٦٢).

الذي تنخلع له القلوب ،و تطير من هَوْله النفوس،موقظاً لها من غفلتها ، لتفيء إلى ربها راجية منه الصفح والقبول قال تعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٞ ١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾[الحج: ١ – ٢]. ويدعو الله تعالى الناس في هذا النصّ القرآني المهيب لِيَنْظُرُوا إِلَى تِلْكَ الأحداث بِبَصَائِرِهِمْ، وَيَتَصَوَّرُوهَا بِعُقُولِهِمْ لِيَكُونَ ذَلِكَ حَامِلاً عَلَى تَقْوَاهُ والرجوع إليه ، إِذْ لَا نَجَاةَ مِنْ تِلْكَ الشَّدَائِدِ إِلَّا بِالتَّقْوَى (١). يدعوهم لتجنب تلك الأهوال وليكونوا من ذلك كله في مأمن،ولا يتحقق ذلك بعد رحمته تعالى إلا بالقبول الذي من أسبابه البعد عن ظلم النفس وتعريضها للمخاطر باقتراف الشرك والذنوب كما قال عز من قائل :﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢] ومن آيات الترهيب قوله جلّ شأنه : ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ٢٥ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ٢٦ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ٢٧ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْۜ ٢٨ هَلَكَ

---

(١) ينظر البحر المحيط في التفسير (٧/ ٤٨١) ،والتفسير الوسيط للقرآن الكريم(٦/ ١١٧٢)،وتفسير البيضاوي (٤/ ٦٤).

عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾[الحاقة: ٢٥ – ٣٤]. في الآيات تذكير بعظم الحسرة، مما يقذف في القلوب الرعب والفزع أن يمثُلَ العبد بين يديّ ربه وهو مثقلٌ بالأوزار، جائرٌ عن المحجة، فيحقّ عليه القول، وتحيق به العقوبة.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾[البقرة: ٢٠٦]. وقال تعالى ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾[النساء: ٣٠].

٥ – الترهيب بالسخط والمقت واللعنة:

والترهيب باللعنة والمقت سياطاً تلهب ظهور أولئك المائلين عن الصراط، والزائغين عن الحق، لتعود بهم إلى الجادة، ولتسوقهم إلى حظيرة القدس والطهر.

قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [آل عمران: ٨٧]. ترهيب للزائغين عن الصراط، المرتدّين إلى الظلمات، باللعن والطرد، بل

بانصباب وابل اللعنات عليهم لبشاعة ما أقدموا عليه من خيانة لربهم ،وجـحود لوليّ نعمـتهم،قيل : يُوقَـفُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَلْعَنُهُ اللَّهُ، ثُمَّ تَلْعَـنُهُ الْمَلائِكَةُ، ثُمَّ يَلْعَـنُهُ النَّـاسُ أَجْمَعُونَ(١) ، وذلك كما قال تعالى :﴿ وَيَقُـولُ ٱلۡأَشۡـهَٰدُ هَـٰٓـؤُلَآءِ ٱلَّذِيـنَ كَذَبُـواْ عَلَىٰ رَبِّهِـمۡۚ أَلَا لَعۡنَـةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[هود: ١٨].وانظر إلى التعبير بكبَر المقت وما يوحي به من شدة البغض والكراهية وما فيه من استشعار لإغلاق أبواب القبول ،وإيصاد منافذ الرحمة يوم القيامة في وجه من جادل في آيات الله تعالى ليبطـلها بغـير بيّـنة ولا حجّة ،وذلك في قولـه :﴿ٱلَّذِيـنَ يُجَٰدِلُـونَ فِيٓ ءَايَٰـتِ ٱللَّهِ بِغَـيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُـمۡۖ كَـبُرَ مَقۡتًـا عِنـدَ ٱللَّهِ وَعِنـدَ ٱلَّذِيـنَ ءَامَنُـواْۚ كَذَٰلِـكَ يَطۡبَـعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡـبِ مُتَكَـبِّرٖ جَبَّـارٖ﴾[غافر: ٣٥]. وفي الآيـة تصوير لعظم الفعل ،و شـناعته و كأنه لفرط قبحه هو المقت عينه(٢) ، فكأنه مخلوق شديد القبح قد غُلّف به قلب ذلك المتكبر كالران والصدأ فيُطبع عليه فلا يدخله خير ولا يخرج منه خير.

***

(١) ينظر تفسير ابن أبي حاتم (٢ /٦٩٩) ،وتفسير الطبري (٣/ ٢٦٢)،وتفسير السمعاني (١/ ٣٣٩).
(٢) ينظر معجم وتفسير لغوي لآيات القرآن لحسن الجمل (٤/ ٢٥٩)،وفتح القدير للشوكاني (٤/ ٥٦٤).

ثانياً : الأسلوب القصصي

الأسلوب القصصي في القرآن من أكثر الأساليب تأثيراً ،ولذلك فقد توسع القرآن الكريم في القصص الذي يحكي مواقف الأمم السابقة مع أنبيائهم ،ومصارع المكذبين ،ونوعّ فيه من الإطناب والإيجاز فتارة يفصّل ويسهب في العرض كقصة موسى وفرعون ،وتارة يترك القصة تعبر عن نفسها كقصة إبراهيم وإسماعيل،ويطلق العنان لخيال القارئ للتحليق في أجوائها،ولا يخفى ما في ذلك من إثارة ومتعة فنية مع تحقيق غاية مقصودة لذاتها فالقرآن الكريم جاء لترسيخ حقيقة الغائية في خلق الكون وخلق العباد ،ونفي اعتقاد العبثية ،أنزله الله تعالى لغاية وهدف مقصود ،غاية دينية تربوية ليتحقق عن طريقها الإيمان والتسليم المؤدي للقبول.

كما أن الأسلوب القصصي من أكثر الأساليب توجيهاً وبياناً لخلاصة تجارب أقوام ضلّت عن الحق عقولهم ،وتاهت عن النور بصائرهم ،ويبيّن من خلال ذلك مصارع قوم حُرموا القبول،وأسباب حرمانهم ،وقومٌ تقبلهم الله وموجبات قبولهم.لاستخلاص العبر والعظات،والإذعان لجبّار السموات كما قال تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[يوسف: ١١١]. فهذه قصة قوم سبأ ،حرموا القبول لكفرهم نعمة الله وجحودهم

لآلائه قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾[سبأ: ١٥ – ١٧]. وهذا فرعون وقومه الذي بسط الله رزقه وسلطانه ،فاستكبر وأظهر في الناس ظلمه وطغيانه ، فحُرم وقومه القبول،لاتباعهم له ونبذهم دعوة الرسول[(١)] ، قال تعالى في شأنهم:﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ۖ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ [هود: ٩٦ – ٩٩]. ومن القصص ذكر سمات بعض من تقبلهم الله تعالى ومنهم لقمان الحكيم ،حيث بين طرفاً من حياته التربوية مع ابنه،و ذكر وصاياه القيمة ،ومواعظه النافعة ،لتكون النهج السديد ،وهدياً يُتبع لكل أب رشيد[(٢)] ،قال تعالى:﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ

---

(١) ينظر تفسير القرطبي (١/ ٩٣)،والتفسير المنير للزحيلي (١٢/ ١٣٩)،والتفسير القرآني للقرآن (٩/ ٩٣٩).
(٢) ينظر تفسير الطبري (١٨/ ٥٥٩)،وتفسير ابن كثير (٦/ ٣٤٠)،والتيسير في أحاديث التفسير (٥/ ٦٣) .

فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾[لقمان: ١٢].

و قصة ابني آدم إذ تقبل الله من أحدهما وهو التقي الذي تصدق بأفضل ما عنده ، ليُلقي الضوء من خلال السياق على جوانب متعددة ،منها أثر الإخلاص وتقديم محبة الله على محبة النفس،ثم عاقبة الحسد والظلم ،وقتل النفس البريئة بغير حق ،ثم بيان موجبات القبول وهي أن الطاعة لا تقبل إلا من مؤمن يتقي الله بأن يقدمها بين يدي ربه بإخلاص فقال تعالى :﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٧ – ٢٨].

****

ثالثاً : أسلوب ضرب المثل

وأسلوب ضرب المثل من أوقع وسائل إيصال المعلومة و فعاليتها في نفس المتلقي.

ويتميز المثل القرآني بصدق الصورة ،حيث تبدو وكأنها صورة حية متحركة ،تتحرك لها المشاعر والأحاسيس ،كما يمتاز بدقة المماثلة بين المشبّه والمشبّه به،و التنويع في العرض فتارة بإسهاب مع بيان ركني التشبيه وتارة باقتضاب وتلميح يُفهم من السياق[1].

قال تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٥].

و المثل : كما قال ابن القيم : ﴿هو تَشْبِيهُ شَيْءٍ بِشَيْءٍ فِي حُكْمِهِ، وَتَقْرِيبُ الْمَعْقُولِ مِنَ الْمَحْسُوسِ أَوْ أَحَدِ الْمَحْسُوسِينَ مِنَ الْآخَرِ وَاعْتِبَارُ أَحَدِهِمَا بِالْآخَرِ﴾ [2].

و أغراض المثل في القرآن متنوعة تدور جميعها حول سبل نيل القبول وتحصيل أسبابه والبعد عمّا يضاده ،ويمكن تلخيصها في التالي:

-للحث على الطاعة والاستقامة ،و للتحذير من مغبة الوقوع في دائرة غضب الله وسخطه كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ

(١) ينظر تفسير القرآن الكريم لابن القيم ص: **٣٩٥** .
(٢) أعلام الموقعين عند رب العالمين (١/ ١١٦) .

كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[البقرة: ٢٦٤].

لتوضيح المطلوب من العبد عن طريق التشبيه بالمحسوسات من حوله ليسهل تصور الأمر كقوله تعالى في مثَل المنفق صدقته رياء ونفاقاً وكيف أنها يُمحق ثوابها وتذهب أدراج الرياح ،وهو مثل ضربه الله في بيان الحسرة عن سلب النعمة عندما يكون صاحبها أشد ما يكون حاجة إليها مع عظم قدرها ومنفعتها [١]فقال:﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ فِيهِ نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ﴾[البقرة: ٢٦٦].

تمثيل بديع لصدقة المنافق في عالم الحس: كأنها جنة وارفة ذات ثمر وظل.. وكذلك هي الصدقة في أصلها ومردودها لمعطيها وللمعطى إليه.. كلها خير وبركة، ونماء وعطاء ، فمن ذا يحب أن تكون له مثل هذه الجنة ، ثم إذا بحسبان النفاق والرياء يأتي عليها فيمحقها محقاً،فيذرها قاعاً

---

(١) ينظر أمثال القرآن لابن القيم ص: **٥١** .

صفصفاً ، كما يمحق الجنة إعصار فيه نار،وفي أشد الوقت حاجة لها ،وأشد سني عمره كبراً وعجزاً عن إنقاذها، وحاجة إلى وارف ظلها ،ويانع ثمارها !فقال: ﴿وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾[البقرة: ٢٦٦]. من ذا الذي يُحبّ ذلك ويودّه ؟ إن المرء ليتخيل مثل هذا الأمر ويتمثّل مصير جنته التي أنفق فيها وبذل الجهد في ريّها و نمائها حتى اكتملت وإذْ بها تتحول إلى هشيم في أحوج ما يكون إليها فيرى هول المصيبة.. هكذا هي صدقة المنافق يعظُم في الدنيا حمد الناس على صاحبها وثناؤهم عليه،من حسنها وطيب جناها فيما يظهر للناس،فتحسُن في أنظارهم ويُرفع في أعينهم صاحبها،حتى إذا جاء بها إلى الله تعالى يوم العرض الأكبر لم يقبلها الله ،ولم ينظر إليها عياذاً بالله.

- للإقناع بأمر معين والإذعان للمطلوب من ورائه كقوله تعالى:﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[آل عمران: ٥٩].

مثّل الله لخلق عيسى بخلقه لآدم لكشف الْمَفْتُونِينَ به والمنكرين لخلقه كونه خُلق عَلَى غَيْرِ السُّنَّةِ الْمُعْتَادَةِ وَالْمُحَاجِّينَ فِيهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، فبيّن لهم إِنَّ شَبهَ عِيسَى وَصِفَتَهُ فِي خَلْقِ اللهِ إِيَّاهُ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ

سَبَقَ كَشَأْنِ آدَمَ فِي ذَلِكَ (١).

- لتقريب الصورة إلى ذهن المخاطب كقوله تعالى يمثّل أعمال الكافر: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾[إبراهيم:١٨].

ومشهد الرماد الذي تشتد الريح بتطاير ذراته في يوم عاصف ، مثلٌ يجسد ضياع العمل سُدى، وذَهاب الجهود بددا ، هكذا بلا جدوى ،فلا يقدر أصحابه على الإمساك به أو استرجاع شيء منه فضلا عن الانتفاع به.

إنه مثل يصف حال الكفار ،تراهم جاهدين في أعمالهم ،مستغرقين فيها يرجون نفعها ،ولكنهم بَنوها على أساس غير صحيح ،على غير الإيمان الذي ينبغي أن يكون هو باعث العمل والذي بانتفائه يكون العمل مقطوعاً لا جذور له ،فانهار كل ما عملوا رماداً أحوج ما كانوا إليه قط،واحتمله الريح فعصف به فتطاير هشاً خفيفاً كالرماد إذْ تذروه الرياح ،وتفَرّق وتبعثر هباء في الهواء. وهكذا يبين المثل مشهداً مصوراً بأسلوب مؤثر لاستشعار هذه المأساة ولتصحيح

(١) ينظر تفسير المنار(٣/٢٦٣)،ودرج الدرر في تفسير الآي والسور (١/٤٠٤).

الوضع الذي ينبغي أن يكون والذي ينبني عليه القبول(١).

- للتزيين أو التنفير من أمر معين كقوله تعالى في التنفير من الغيبة : ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾[الحجرات: ١٢]. مثل شبّه فيه الوقوع في عرض المسلم كأكل لحمه ميتاً وهو أمر منفّر تعافه النفس ,وكأنه يقول: فكما كرهتم أكل لحم الميت فاكرهوا ذكر إخوانكم بسوء والوقوع في أعراضهم.

- للمدح أو الذم كقوله في ذمّ الكفار المعرضين عن الحق ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[البقرة: ١٧١]. فهم الذين عُدموا الفهم والعقل ،فأصبحوا بمنزلة البهائم التي لا تسمع إلا صوت الراعي ولا تفهم ما يقول فهم صُمٌّ عَنْ سَمَاعِ الْحَقِّ، بُكْمٌ لا يَتَفَوَّهُونَ بِهِ، عُمْيٌ عَنْ رُؤْيَةِ طَرِيقِهِ(٢).

- للحثّ والتوجيه كقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[البقرة: ٢٦٥].

(١) ينظر في ظلال القرآن (٤/ ٢٠٩٤)،و البلاغة العربية للميداني (٢/ ١٩٦) .
(٢) ينظر تفسير ابن كثير (١/ ٤٨٠).

مثل ضربه الله تعالى لبيان كيف يزكو المال وينمو ويتقبله الله بيمينه فيربيه ويضاعفه ،فمثل المؤمنين المنفقين أموالهم لوجه الله وابتغاء رضوانه ، وتصديقاً بما وعدهم الله من الجزاء إيماناً واحتساباً، كمثل جنة وارفة الشجر، عظيمة الخصب والثمر ، سُقيت بوابل المطر فأضحى ثمرها مثلي ما كانت عليه ، وإن لم يُصبها الوابل الغزير فمطر خفيف يكفيها لجودة تربتها وكرم منبتها ،فمن الناس من يكون إنفاقه وابلاً ومنهم من يكون إنفاقه طلاً ،وكثير البر كثير الجود إن أصابه خير كثير أغدق ووسّع في الإنفاق، وإن أصابه خير قليل أنفق بقدره، فخيره دائم ، وبره لا ينقطع[1] .

– للعظة و العبرة كالذي أغرته الدنيا ،فأخلد إليها،ولهث خلفها فارتد عن دين الله قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الأعراف: ١٧٥ – ١٧٦]. فهذا بلعام بن باعوراء كان من علماء بني إسرائيل وكان مستجاب الدعوة،وكان قومه يقدمونه في الشدائد ليدعو الله لهم. بعثه موسى عليه السلام إلى ملك مدين يدعوهم إلى الله عز وجل فأطعمه وأقطعه وأعطاه فأغرته الشهوات

(١) ينظر تفسير المراغي (٣/٣٦) ،وأمثال القرآن لابن القيم ص: ٥١ .

فترك دينه وتبع دين الملك[١]. فمثل هذا البلعام الذي افتتن بالدنيا وهام ،وترك دينه لاهثاً خلف دينار من حرام ،كالكلب إن تطرده أو تتركه يُخْرج لسانه في الحالين لاهثاً، والمعنى أنه يظل على كفره ويعود إلى سوء طينته، سواء عليه أدعوته أم أهملته ،فالأمر سيان ،فقد رأى الآيات والمعجزات فما أفلح وما أنجح ،فهو مثلٌ سيق للعبرة به وأخذ العظة [٢].

****

رابعاً : الأسلوب الإنشائي

ينقسم أسلوب الإنشاء إلى قسمين: إنشاء طلبي، وإنشاء غير طلبي.
أما الإنشاء الطلبي: فهو ما يستدعي مطلوبًا غير حاصل أثناء الطلب، ويشمل أساليب الأمر، والنهي، والتمني، والاستفهام، والنداء[٣]. وقد تنوع السياق القرآني في أساليبه.
ففي أسلوب الأمر يحث المؤمنين على الطاعة الموجبة للقبول قال تعالى :﴿يَـٰٓأَيُّهَـا

(١) ينظر تفسير ابن كثير (٣ / ٤٥٧).
(٢) ينظر التفسير الميسر (١ / ١٧٣) ،وتفسير ابن جزي (١/ ٣١٣) .
(٣) ينظر مصطلحات في كتب العقائد ص: ١٦٧ .

ٱلَّذِيـنَ ءَامَنُـوٓاْ أَطِيعُـواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُـواْ ٱلرَّسُـولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡـرِ مِنكُمۡۖ﴾[النساء: ٥٩].
وقد يأتي أسلوب النهي مبيناً حال أو مآل فئة من المقبولين ومنهم الشـهداء قال تعالى:﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِيـنَ قُتِلُـواْ فِي سَـبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢـاۚ بَـلۡ أَحۡيَـآءٌ عِنـدَ رَبِّهِـمۡ يُرۡزَقُـونَ﴾[آل عمران: ١٦٩]. نلاحظ في هذه الآية أسلوب نهي جاء مشتملاً على إغراء وترغيب، فينهى الله تعالى رسوله أن يخطر بباله وحسبانه أن من أنعم عليهم ووفقهم للشهادة بأنهم قد ماتوا وفُقدوا، بل قد حصل لهم أعظم مما يتنافس فيه المتنافسون ،فهم في حياة برزخية يُرْزَقُونَ ويأكلون ويشربون. لم تتوقف عنهم لذة الحياة ومتعتها فهم يتنعمون برزق الله (عنده) في الجنان ، عنديّة شرف ومكانة ورفعة ،وإدناء من ربهم وقُربة،أحياء في دار كرامته. يجري عليهم من أنواع النعيم الذي لا يَعلم وصفه، إلا من أنعم به عليهم،وما ساق إليهم من الكرامة والتفضيل على غيرهم، وما عجّل لهم من رزق الجنة ونعيمها [(١)].
وفي التمني وعتاب النفس: يبين كيف تتقطع نفس الخاسر حسرات يوم القيامة عند معاينته النار وعذابها،والجنة ونعيمها ،ويرى المقبولين كيف دخلوا الجنان زمراً زمراً ،ثم لا يرى طريقه إلا إلى نار تلظى فيقول : ﴿يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾[الفجر: ٢٤] ومثله قوله تعالى مبيّناً حال الذي اتبع قرينه في الصدّ عن سبيل الله متمنيّاً الفكاك منه والبراءة منه:﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ

(١) ينظر تفسير السعدي ص: ١٥٦ ،وتفسير المنار (٤/ ١٩٠) .

بَيۡـنِي وَبَيۡنَـكَ بُعۡـدَ ٱلۡمَشۡرِقَـيۡنِ فَبِئۡـسَ ٱلۡقَرِينُ﴾[الزخرف: ٣٨] .

ويبيّن شدة الأسف والحسرة وتمني العودة والاستقامة في قوله :﴿وَيَـوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِـمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُـولُ يَٰلَيۡتَنِـي ٱتَّخَذۡتُ مَـعَ ٱلرَّسُـولِ سَـبِيلٗا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيۡلَـتَىٰ لَيۡتَـنِي لَـمۡ أَتَّخِـذۡ فُلَانًـا خَلِيـلٗا﴾ [الفرقان: ٢٧ – ٢٨] . فهو أسلوب يبيّن ندم الخاسر وتمنيه حيث لا ينفع التمني ،وتَبرّيه من سوء عمله حيث لا يجدي التبرّي . وكل ذلك تحذير إلى ما ستؤول إليه نفس الغافل حينما توصد في وجهه أبواب القبول،وليس له إلا مواجهة المصير الأسود المحتوم(١) .

وفي الاستفهام: تظهر فئة المكذبين المستكبرين الذين أُغلقت في وجوههم أبواب القبول لافترائهم على الله ،فهم يصفون ما يحويه القرآن من حقائق عن الأولين وعظات للمعتبرين ،وهدى لعلاج القلوب ،ونور للدلالة على أقوم الدروب بأنه أساطير وخرافات :﴿وَإِذَا قِيـلَ لَهُـم مَّـاذَآ أَنـزَلَ رَبُّكُـمۡ قَالُـوٓاْ أَسَـٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِـينَ ﴾[النحل: ٢٤]. لا جرم أن الله تعالى لم يتقبل منهم و أنه أعد لهم أسوء جزاء ومصير. وفي المقابل يُلقي الضوء على المؤمنين المتقين وإلى صدق ردّهم وصوابه عند سؤالهم عن ماذا أنزل الله:﴿وَقِيـلَ لِلَّذِيـنَ ٱتَّقَـوۡاْ مَـاذَآ أَنـزَلَ رَبُّكُـمۡۚ قَالُـواْ خَـيۡرٗاۗ لِّلَّذِيـنَ أَحۡسَـنُواْ فِي هَـٰذِهِ ٱلدُّنۡيَـا حَسَـنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِـرَةِ خَـيۡرٞۚ وَلَنِعۡـمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِـينَ﴾ [النحل: ٣٠].

(١) ينظر التفسير الميسّر ص:٣٦٢ ،وزهرة التفاسير (١٠/ ٥٢٧١) ،والإتقان في علوم القرآن (٣/ ٣١٧).

والاستفهام بمعناه الأساس وهو السؤال عن مجهول ،لا يجوز على الله فالله تعالى عالم الغيب والشهادة ،ولكنه في القرآن يأتي لأغراض مختلفة تشير في مجملها إلى تحقيق الغاية المطلوبة وهي الفوز بالرضوان ،ونيل أسباب التقبّل والغفران ،سواء بالإنكار على من ابتعد عنه وتوبيخه وتقريعه والترهيب من فعله ،أو بالحض عليه والترغيب فيه .

ومثال الإنكار والنفي قوله تعالى : ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾[الأعراف: ١٩٥][1] .

ومثال التوبيخ والتقريع والتضجّر كقوله :﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[الأنبياء: ٦٧][2] .

ومثال الحض والترغيب قوله تعالى:﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾[النور: ٢٢].

ومن أساليب الإنشاء النداء : وهو طلب الإقبال على الداعي[3] . وقد وظف التعبير القرآني الكريم أسلوب النداء لطلب الإقبال على الله ،وعلى خيري الدنيا والآخرة ،وذلك بتوجيه النداء

---

(١) ينظر إعجاز القرآن ومعترك الأقران للسيوطي (٢/٦٣)،والتفسير الوسيط للقرآن الكريم (٣/١٥٦٧) .
(٢) ينظر تفسير ابن جزي (٢/٢٥)،وفتح القدير للشوكاني (٣/٤٨٩) .
(٣) ينظر الإتقان في علوم القرآن ص: ٦٤٤.

لهم ليسترعي انتباههم ،وليقبلوا على ما سيأمرهم به وينهاهم عنه.

ففي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾[البقرة: ٢٠٨] يدعوهم ويهتف بهم ،ليدخلوا في بوابة الإسلام المشرعة،ليدخلوا في الإسلام بجميع شرائعه وأحكامه وحدوده،بكل أوامره ونواهيه ففيه إِشَارَةٌ إِلَى تَرْكِ الذنوب وَالْمَعَاصِي، فذلك أدعى لتحصيل القبول والرفعة والمنزلة عند الله تعالى(١).

ومنها نداؤه لهم والدعوة للتوبة ليشملهم بالمغفرة ويحلّ عليهم رضوانه فيدخلهم جنانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾[التحريم: ٨]. ونداءٌ الغرض منه التحذير والتخويف كقوله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾[التحريم: ٦](٢).

---

(١) ينظر تفسير الرازي (٥/٣٥٣).

(٢) ينظر بصائر ذوي التميز في لطائف الكتاب العزيز (٥/٤٣٤)،وروح المعاني للألوسي (٨/٤٢٢).

ونداء الغرض منه التعجب : ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾[يس: ٣٠][1].

أما الإنشاء غير الطلبي: فهو ما لا يستدعي مطلوباً، وله صيغ كثيرة ؛ منها القَسَم ،وأفعال المدح والذم،والترجي ،ومن ذلك ألفاظ العقود كقول : بعت، واشتريت،ومنها: رب ، وكم الخبرية لدلالتهما على إنشاء التقليل أو التكثير[2]:

فمن القَسَم ما يحذّر الله به عباده من عدم القبول ،عند ولايتهم للشيطان الخذول كقوله تعالى :﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [النحل: ٦٣] . يقسم الله تعالى بنفسه عزّ وجلّ لنبيه محمد ﷺ: والله يا محمد لقد أرسلنا رسلاً من قبلك إلى أممها بمثل ما أرسلناك إلى أمتك من الدعاء إلى إخلاص العبادة، وخلع الأنداد والآلهة فحسَّن لهم الشيطان ما كانوا عليه من الكفر بالله وعبادة الأوثان ، حتى كذّبوا رسلهم، وردّوا ما جاءوهم به من عند ربهم ، فكان الشيطان ناصرهم ووليّ أمثالهم في الدنيا ،فأطاعوه واتبعوه وتولوه،

(١) ينظر البرهان في علوم القرآن (٢/٣٣٨).
(٢) ينظر مصطلحات في كتب العقائد ص:١٦٤.

وبئس الناصر يكون لهم جميعاً في الآخرة فلن يدفع عنهم ما استحقوا من عذاب ونقمة (١).

ويقسم سبحانه على حتمية وقوع يوم الجمع في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾[النساء: ٨٧] تذكيراً الغرض منه الإقبال عليه حتى يثوبوا إلى أنفسهم ويعملوا لذلك اليوم.

ويقسم على استيفاء الجزاء واستحقاق العقوبة على من كفر: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابٗا شَدِيدٗا وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[فصلت: ٢٧].

ويقسم في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾[العنكبوت: ٦٩] لبيان حال من اجتهد في طاعة ربه ،وسعى لرضوانه بأنه لا يضيّعه بل يهديه إلى طريق الاستقامة والهداية.

و يستخدم القرآن الكريم أسلوب المدح والذم في امتداح المقبولين وصفاتهم والثناء عليهم أويمتدح ما ينتظرهم من ثواب جزيل تشويقاً وتحريكاً للهمم والعزائم كقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا﴾[الكهف: ٣١] وقوله ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ

(١) ينظر تفسير الطبري (١٧/ ٢٣٥)، وتفسير السعدي ص:٤٤٣.

ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾[العنكبوت:٥٨].
وفي امتداح العبد قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٣٠]. وكذلك الأمر في ذم غير المقبولين وذم صفاتهم وما يئول إليه مصيرهم يوم القيامة قال تعالى في ذمّ فرعون وقومه: ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾[هود:٩٩].
وقال في ذم ما أعد لأهل النار:﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾[الكهف: ٢٩].

وذم الفسق: ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[الحجرات: ١١].

والمتأمل في أسلوب الترجي في القرآن الكريم يجد معنى توقع المحبوب أوالإشفاق من حصول المكروه، ومع أن الترجي بلعل وعسى في القرآن محقق الوقوع لأن الله تعالى عالم الغيب والشهادة،ولا يجوز عليه الاحتمال لأنه مناف لعلم الغيب[1] فإن الغرض منه التوجيه والحثّ

(١) ينظر تفسير البحر المحيط (١/١٥٥)،قال القرطبي: عسى من الله واجبة في جميع القرآن إلا قوله تعالى ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾[التحريم: ٥] ينظر تفسير القرطبي (٣/٣٩).

على تحصيل أسباب الرحمة والقبول،وطاعة الله و رسوله أولى الأسباب [١] وهي طريقة القرآن حتى لا يصيب العبد الغرور والاتكال. قال تعالى حكاية عن صالح عليه السلام يرجو قومه ويحثهم على الاستغفار والتوبة حتى يتقبلهم الله فيمن رحم ولا يعذبهم : ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾[النمل: ٤٦]. أي هلاّ استغفرتموه ليرحمكم [٢].

وكثيراً ما يرد في القرآن الكريم تذييل الآيات بقوله تعالى:﴿لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾[البقرة:٥٣]، ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة :٢١]،﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾[البقرة :٥٢]،﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾[آل عمران:٧٢]﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ﴾[الأنعام :٤٢]،﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ﴾[البقرة :٢١٩] ،﴿لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾[البقرة :٧٣] ﴿لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[النور: ٣١]. وفي ذلك أوجه :

الأول: أن الترجي راجع إلى العباد لا إلى الله تعالى إطماعاً لهم للحصول على ذلك الفضل ،وليبيّن لهم أسباب تحقيقه ،والنتائج المترتبة عليه وهو القبول في نهاية الأمر والرفعة عند الله .

والثاني : لبيان أن تحصيل مراتب التقوى والهداية والشكر ليست بموجبة على الله إنما هي محض

---

(١) ينظر تفسير الوجيز الواحدي ص: ٩٠١ .

(٢) ينظر تفسير الطبري (٤٧٦/١٩)،وتفسير السمر قندي(٥٨٦/٢)،وتفسير السمعاني (١٠٣/٤).

فضل منه سبحانه وأن المتقي ينبغي أن لا يعتمد على تقواه وعمله ولا يأمن مكر الله.

الثالث : ليدعوهم إلى التوجه بالرجاء إلى من يصحّ منه الرجاء لا إلى غيره.

الرابع : فيه إطماع لهم بأن الترجي إذا كان على وجهه الصحيح فإنه قد يقع ويتحقق للعبد ،فتتحقق التقوى والهداية والرجوع والتضرع ويقبله الله منهم وينعم عليهم بنعمة التفكّر والتعقّل ليكونوا من أولي الألباب (١) .

ومن الأساليب الإنشائية الأعداد و ألفاظ العقود وقد استخدم التعبير القرآني الكريم العدد سبيعين وهو المأثور عن العرب في الدلالة على الزيادة قال تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٨٠] وفي الأعداد عموماً قال عزّ من قائل للحث على الإقبال على ما عنده : ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٦١].

ومنها رُبّ وربما وكم الخبرية : ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾[الحجر:٢].

(١) ينظر تفسير النيسابوري (غرائب القرآن ورغائب الفرقان) (١/ ١٨١) ،والسراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (١/ ٤٨٥،٥٥٣) .

يخبر القرآن الكريم بأن المكذبين الضالين، سيأتي عليهم وقت يتمنون فيه أنهم كانوا مسلمين ،وذلك حينما يعاينون سوء العذاب ويذوقون شديد العقاب. (ربما .. ولكن حيث لا ينفع التمني ولا تجدي الودادة.. ربما.. وفيها التهديد الخفي، والاستهزاء الملفوف وفيها كذلك الحث على انتهاز الفرصة المعروضة للإسلام والنجاة قبل أن تضيع، ويأتي اليوم الذي يودون فيه لو كانوا مسلمين فما ينفعهم يومئذ أنهم يودون!)[١] .

ومن النهج القرآني استخدام (كمْ) الخبرية للدلالة على الكثرة كما في قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾[الأنعام: ٦] لافتاً الأنظار إلى مصارع الأقوام السابقة ،الذين أهلكهم الله بسبب ذنوبهم،وما أكثرهم،وما أشدّ غفلتهم حيث لم يرعوُوا ويتعظوا. فالذنوب مَهلكة، وهي من أسباب المحق،فبعد أن ازدهرت حياتهم وأمدّهم الله من أسباب القوة ،والنعم الوفيرة ،كانت العاقبة أن أباد خضراءهم ، وقطع دابرهم ، بعد عنادهم وإعراضهم عن الحق،فهل من معتبرٍ؟.

****

(١) في ظلال القرآن (٤/ ٢١٢٥) .

خامساً : الأسلوب الوعظي

يزخر القرآن الكريم بالمواعظ والحكم والأمثال إلى جانب الأحكام والأمر والنهي قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٌ﴾[المدثر: ٥٤] والثمرة القصوى من وراء ذلك كله وما تسعى إليه التربية القرآنية هي تحقيق العبودية لله وبيان الطرق الموصلة للقرب والمحصّلة للقبول.

وبأسلوب الوعظ والتوجيه اللين وما قد يشتمل عليه من عتاب يقوّم الله تعالى المجتمع المسلم ،ويرسم له معالم وحدوداً حتى لا ينحرف به الطريق ،فتتعاوره ذئاب الإثم والبغي والمنكر ،وليُقيمه على جادّة ما يرضاه من الأقوال والأفعال ،وينأى به عن مهاوي الزيغ والضلال، ويرشده إلى سبيل الهداية والصلاح ،ويرقى به إلى درجة عالية من درجات القبول والفلاح قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾[النحل: ٩٠].

وقال جلّ شأنه : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾[النساء:٥٨].

وقال تعالى يعظُ ويحذّر عباده المؤمنين من الخوض في حادثة الإفك والنيل من أعراض

الناس بعامة :﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[النور: ١٦ – ١٧].

****

سادساً : أسلوب العرض والإغراء

ومن أساليب الحث على طلب ما عند الله ,والرغبة في كرمه عزّوجلّ وجزيل ثوابه ،أسلوب العرْض والإغراء .

والعرض: هو إبداء الشيء وإظهاره،وعرْض السلعة هو بسطها وإبداؤها للناظرين(١) .

والإغراء: من الغِراء وهو الإلصاق ولزوم الشيء ،وأَغْرَاه: حَسَّنه،وأغري به أي أولع به(٢) .

فالعرض والإغراء هو امتداح السلعة وإظهار محاسنها للمشتري والثناء عليها حتى يولع بها فيسعى لنيلها والحصول عليها.

---

(١) ينظر لسان العرب (٩/١٣٧) ،ومقاييس اللغة (٤/ ٢٧٠).
(٢) ينظر لسان العرب (١٠/٦٣) ،والمخصص لأبي الحسن المرسي (١/٢٣٥) .

فانظر إلى الإغراء في قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[التوبة: ١١١] وفي امتداح هذه السلعة استخدم التعبير القرآني عددا من المؤكدات:

أولها: قوله تعالى:﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ ﴾فالمشتري هو الله سبحانه فهو المقدس عن الكذب والخيانة ..وكافة عيوب المشترين من الخلق. والثاني: أنه عبّر عن إيصال هذا الثواب بصفقة البيع والشراء وهو حقّ مؤكد من الله

الثالث : قَوْلُهُ: ﴿وَعْدًا ﴾ ووعد الله حق .

والرابع : قوله : ﴿عَلَيْهِ ﴾ وَكَلِمَةُ (عَلَى) لِلْوُجُوب.

والخامس: قوله : ﴿حَقًّا﴾ وَهُوَ تأكيدٌ لِلتَّحْقِيقِ.

والسادس: قوله : ﴿فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾وذلك يَجْرِي مَجْرَى إِشْهَادِ جَمِيعِ الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ وَجَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ عَلَى هَذِهِ الْمُبَايَعَة.

والسابع : قوله :﴿وَمَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ﴾وَهُوَ غَايَةٌ فِي التَّأْكِيدِ حيث لا أحد أوفى منه على الإطلاق سبحانه.

والثامن : قوله:﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بايَعْتُمْ بِهِ ﴾ وفيه أيضاً مبالَغَةٌ فِي التَّأْكِيدِ،بمباشرة آثاره،وكونه تحقق حصوله.

التاسع : قوله: ﴿وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ﴾بيان نجاح الصفقة والتفرد بالفوز على نظائرها .

والعاشر : قوله : ﴿الْعَظِيمُ﴾(١) بيان علوّ الصفقة وربحها.

ويضفي التعبير بأسلوب العرض مزيداً من التشويق والإقبال والسعي الحثيث ،ففي قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾[الحديد: ١١]. هتافٌ مؤثّر موجّهٌ للعباد الذين هم أحوج ما هم فيه إلى ربهم ووليّ نعمتهم ،الغنيّ المتفضل عليهم بإقراضه ،نَعَمْ هتافٌ بإقراض الله تعالى ،فوضعك القرض في يد ذي الحاجة فكأنما وُضع في يد الله ،يتكفّل الله عزّوجلّ بسداده ،وكيف يكون سداد الملك الغني الكبير الوهاب الرزاق والكريم سبحانه وقد عجبت اليهود لغبائهم وقصر فهومهم من ذلك

(١) ينظر مفاتيح الغيب للرازي (١٦/ ١٥١) والجدير بالذكر فإن الرازي تاب في آخر حياته ورجع للحق.

فقالوا: إن الله فقير يستقرض! [١]. وإنما هو عرض سخيّ،عرض ميمون ،للحصول على أجر مضمون،وسداد مضاعف ،ثم يعرض لهم شيئاً من ذلك الأجر الكريم ما لو كان في الدنيا لتدافع الناس للحصول عليه،ولو نالوا في سبيل ذلك من المصاعب والمكاره الكثير فقال تعالى: ﴿قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾[آل عمران:١٥]. بعد أن عرَض لهم شهوات الدنيا التي غالباً ما ينكب الناس عليها ويتنافسون،وهي الزائلة الفانية،أخبرهم والإخبار هنا بما يحتويه من أسلوب بياني ،وإثارة للخيال بمثابة العرض لهم لما هو أنفس وأعلى،وهو القمة في أسلوب الإغراء حيث عرَض أفضل ما هو متداول بين الناس ،وأعلى المرغوب عندهم ،ثم يطرح ما يكتسح ذلك كله ،ويصرف تطلعاتهم إلى الأفضل والأبقى .

ويأتي الخطاب لموسى عليه السلام في دعوته وعرضه الهداية لفرعون في قوله: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ١٧ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ١٨ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾[النازعات: ١٧ – ١٩]. بما يحمله من إغراء للإقبال عليه وكما قال: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾[طه: ٤٤]. فإن في هذا الأسلوب مِن لطف

(١) ينظر تفسير الطبري (٧/ ٤٤٤).

القول وسهولته ما لا يخفى على المتأمّل فقد أتى بـ (هل) الدالة على العرض والمشاورة لعله يعود إلى عقله ،ويسلك طريق ربه ،ويرجع إلى الحق في لطف فيُقبل على الله ليُقبل منه إيمانه [١].

****

سابعاً : الأسلوب العقلي

من إعجاز القرآن الكريم التلوين في أساليب العرض و تقديم الشواهد من الماضي و الحاضر، ومن الكون الفسيح،ومن نفس الإنسان التي بين جنبيه،وتعريض النفس الإنسانية لمختلف المؤثّرات رغبة في الهداية والصلاح وتحذيراً من الاعوجاج والجنوح،قال تعالى﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه:١١٣].

ومن أساليب الإقناع ومن المنهج القرآني في الدعوة إلى الله أسلوب مخاطبة العقل والمنطق،وهو أسلوب عميق الوقع ، بالغ التأثير ،يستند إلى الصواب والمصداقية ،و تشترك في أدائه كل خصائص التعبير، و المؤثرات الموضوعية ،يعرضها القرآن من جوانب متعددة وبمذاقات مختلفة،تتسلل إلى العقل أياً كان توجهه ،لتقوده إلى مواطن الحكمة،وتعود به إلى حظيرة القبول .

---

(١) ينظر تفسير الطبري (١٧/ ٤٣٢) ،وتفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢٣٢٤)،وتفسير السعدي ص: ٥٠٦ .

ويدعو الأسلوب العقلي إلى إيقاظ ذوي الألباب من الغفلة ،بالحوار تارة وبالحجة والبرهان تارة ،ولتنشيط الذهن ،وقدح الفكر ،وحمل النفس على التفاعل مع سائر القضايا المطروحة في القرآن فهو تنبيه يحمل في طيّاته الإقناع بالاستسلام للخالق والرجوع إليه[١].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَوَ لَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾[يس: ٨١] يدعوهم لينظروا في عظم خلق السموات والأرض،واتساع هذا الكون ،حيث تنطق الدلائل والبراهين ،أليس خلق البشر أهون على الله من خلق تلك العظائم ،فلا يعجزه بعثهم ؟.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢] دعوة للتبصّر وإعمال العقل لرؤية دلائل و حدانيته،ماذا لو تعددت الآلهة ؟ إذن لفسدت السموات والأرض ، و هلك الكون بمن فيه بوقوع التَّنازع بينهم والخصام على أحقيّة التصرف والتدبير.

---

(١) ينظر البرهان في علوم القرآن (٣/٤٦٨)،المعجزة الكبرى القرآن لأبي زهرة ص:**٢٩٩** .

وقوله تعالى: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾[الرحمن: ٦٠]. فلا يُتصوّر لعاقل أو أن يقول صاحب منطقٍ سليم أن يُقابل الإحسان إلا بمثله ،فهل ثواب من أحسن العمل إلا أن يُحسن إليه بأحسن مما عمِل؟! .

****

ثامناً : الأسلوب الوجداني

إنّ أسلوب الخطاب الوجداني ،بما يحمله من صيغة وجرْس ،وما يتضمّنه من تأثير يحرّك أوتار العاطفة ويسري إلى داخل القلوب فيهزّها ،ويُعالج ما يعتورها من سقم ،فالقلوب سريعة التقلب ،شديدة الارتفاع والانخفاض مع تلاطم موج الوجدان والعاطفة . كثيرة النسيان والغفلة ،فيأتي النص القرآني بطابعه الوجداني ليذكّرها بآلاء الله وسبوغ النعم ، وبفضل الله ورحماته المتدفقة،وبتقصير المخلوق الحقير في جنب خالقه العظيم ، فيستثير في كوامن النفس محبة الله ،والرجوع إلى الوازع والضمير،والتفكر فيما جنَت واقترفت في حق الله ،ويقودها إلى التضرع له والخشوع عسى أن يُقبل الله تعالى عليها ويتقبّلها من جديد،والاستثارة الوجدانية في القرآن الكريم جاءت بأوجه مختلفة فمنها:

١- الاستثارة بواسطة التذكير بالنعم :﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾[قريش: ١ - ٤]. يذكّر قريش بما أسبغ عليهم من أمن ،وأحاطهم به من رعاية ،وما فتح عليهم من أبواب التجارة حيث تجوب قوافلهم الشمال والجنوب ،محملة بالخير ،آمنة من غارات السلب والنهب،فهو يستثير في قلوبهم مكامن الغفلة ،ويذكرهم بعظيم المنّة ،ويحضّهم على التوحيد وشكر النعمة.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[النحل: ١٨] تذكير للنفس بعظيم المنّة وسبوغ فضل الله ,لتعود إلى خالقها وتردد في خشوع واعتراف عبارات الحمد البالغ والشكر الدائم و الثناء الحسَن .

٢- الاستثارة بذكر سعة عفو الله ورحمته لعبادة :وهنا يفتح للنفس أبواب الأمل والرجاء ،ويرفع عنها آصار اليأس والحرج ,ويهوّن عليها شدّة الخوف من فرط الشهوة وعظم الذنب،فتسري في جوانبها الطمأنينة،وتعود منيبة إلى ربها في تذلل وخشية : ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[الزمر: ٥٣] نلاحظ النص القرآني السابق كيف يكشف عن الثقة بعفو الله،وفيض مغفرته،وسعة رحمته مهما بلغ بالإنسان عظم الجناية،ومهما جاء بقراب الأرض من خطايا،وذلك

ليحثّ المذنب على الاعتراف،والرجوع،والإنابة .

٣- الاستثارة بتصوّر مستقبل الحال ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾[النساء: ٩]. يحث الأوصياء المفرطين في حقوق الغير ممن هم تحت ولايتهم ووصايتهم ،أن يستشعروا ما لو أنهم تركوا ذرية ضعافاً لخافوا عليهم الإهمال والضياع فكما يدين المرء يُدان . فهو حثّ على ما يحبه الله ويرضاه من العدل والإنصاف[١] .

٤- الاستثارة بتنبيه الضمير :﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦]. وهنا يستثير القلوب المؤمنة ،ويوجه العتاب في لطف للضمائر ليوقظها من شرور الغفلة ،إلى متى يظلّ إيمان مع ضعف وبطء امتثال،إلى متى ذلك التسويف والفتور والاستثقال، ألم يحن بعد أن ترقّ القلوب وتلين لأمر ربها؟ فكأن تلك القلوب المؤمنة ما إن يصِل إلى أسماعها هذا الخطاب الكريم حتى تردد مقبلة على ربها ،بلى آن يا رب.. آن يارب .

٥- الاستثارة بالتكرار : وأعني به التكرار في اللفظ وليس في المعنى كتكرار قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ في سورة الرحمن خطاب للثقلين ،وعرضٌ لعظيم المنن ،وباهر الآلاء

(١) ينظر تفسير الطبري (١٩/٧)،وفتح القدير للشوكاني (٤٩٤/١).

وفيوض النعم ،تدعوهما ليردّدا في إنابة ويقين : (لَا بِشَيْءٍ مِنْ نِعَمِكَ رَبَّنَا نُكَذِّبُ فَلَكَ الحَمْدُ)[١].

ومن ذلك تكرار قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٦٧ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وقد تكررت الآيتان ثمان مرات في سورة الشعراء ،وفي كل مرة تثير معنى جديداً يتوافق مع السياق ويتواءم مع الصورة العامة،مع التأكيد في كلّ مرة على كثرة الجحود والكفر بآلاء الله ونعمه،ومرة بألوهيته سبحانه وتعالى،ومرة بالبعث والحساب ،وأخرى بالشرع والرسالة ،وبالأنبياء والمرسلين،وبالآيات والمعجزات،وبالأدلة والبراهين ،وبالأمر والنهي ،ثم التأكيد على عزة الله وقدرته في كل مرة على من عصى ،ورحمته بمن استسلم وأطاع. ممهلٌ في عزةٍ وقدرة ،غامرٌ برحمته في كرم ووفرة .فهي مؤثرات توقظ الشعور ،وتحرك في العقل السليم الفكر والتبصر ،وفي القلب الإنصات لصوت الحق والاستجابة والاتعاظ.

****

(١) ينظر الحديث وفيه أن النبي ﷺخرج عَلَى أَصْحَابِه، فَقَرَأَ عَلَيْهِمْ سُورَةَ الرَّحْمَنِ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا فَسَكَتُوا، فَقَالَ:(لَقَدْ قَرَأْتُهَا عَلَى الجِنِّ لَيْلَةَ الجِنِّ فَكَانُوا أَحْسَنَ مَرْدُودًا مِنْكُمْ، كُنْتُ كُلَّمَا أَتَيْتُ عَلَى قَوْلِهِ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[الرحمن: ١٣] قَالُوا: لَا بِشَيْءٍ مِنْ نِعَمِكَ رَبَّنَا نُكَذِّبُ فَلَكَ الحَمْدُ). والحديث في سنن الترمذي ، (٢٥٢/٥/ح٣٢٩١) وحسنه الألباني في صحيح الترمذي.

الفصل الرابع

درجات القبول وأنواعه وأسبابه وآثاره وطرق الارتقاء

أولا :درجات القبول

أ: درجات القبول

من خلال البحث يتضح أن القبول عند الله تعالى درجات في الرفعة والعلو والتفاوت بينها يتعاظم بقدر التفاوت في صلاح العباد،وإذا تأملنا قوله تعالى ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾[الإسراء: ٢٠ - ٢١] نجد أن درجات العطاء والتفضيل في الرزق في هذه العاجلة يتفاوت تفاوتاً كبيراً إذْ هو درجات لا حصر لها ولا عدّ ،تبتدئ من أولئك الذين لا يمتلكون قوت يومهم ولا يجدون ملجأ يأوون إليه فتجدهم يفترشون الأرض ويلتحفون السماء ويقتاتون مما يجود به الناس،ويتدرج التفاوت في التفضيل حتى يصل إلى قارون الذي تنوء مفاتح ما أوتي من خزائن الرزق بالعصبة أولي القوة ،وقس على ذلك جميع أنواع الرزق من علم وصحة وجاه وأرزاق مختلفة . وقد أخبرت الآية الكريمة

بأن تفضيل الآخرة أكبر وأعظم ،وهو أجلّ وأعلى، وإذا كان التفضيل في الدنيا مبنيّ على مقتضى حكمة الله تعالى وعدله ولا علاقة له بالقبول ،فإن التفضــيل في الآخرة مبنيٌّ عليه وعلى ما يقتضيه من تفاضل ما في القلوب ،والسعي إلى الله وسائر الأعمال مما يزيد من ذلك ويرفعه . وإن نظرنا إلى المحصّلة من ذلك نرى كيف أن تفاوت ما في القلوب درجات بالغة التفاوت بدءاً من قلبي الخليلين ونزولاً إلى قلب صاحب البطاقة[١] بل إلى قلوب من دخل النار من الموحدين الذين لم يغادر الإيمان قلوبهم ولو بنسب ضئيلة. ثم انظر إلى السعي لكلٍّ من هؤلاء . فعلى هذا تُبنى درجات القبول التي بها ينال العبد درجته في الجنة والله تعالى أعلم .

فالحاصل أن درجات القبول متفاوتة ومرتبطة بدرجات الجنة فأعلى الدرجات لمن حاز من القبول أعلاه . ولا يُتصور شرعاً ولا عقلاً أن يتقبل الله العبد القبول الحسن ثم يجعله في أدنى الدرجات في الجنة .

فالقبول بعد فضل الله تعالى متعلق بأمرين :

- بعدل الله تعالى الذي لا يغادر مثقال الذرة .

(١) في حديث البطاقة المشهور،سبقت الإشارة إليه في المبحث الأول من الفصل الثالث في الترغيب في الاستغفار.

- بدرجة المحبة التي رقى إليها العبد في عين الله .

وإذا بلغ العبد شأواً في محبة الله له فلا تسل عن ارتقائه،فالله تعالى لا يجازي المحبين بميزانه بل بكريم منّه وعظيم فضله بغير حساب.

وقد ذكر ابن القيم في درجات الجنة أنها قد تكون هناك درجات كبار متضمنة لدرجات أُخَر[1]،وقد يكون القبول كذلك فقبول الرضا على سبيل المثال يتفاوت ،فرضا الله تعالى يتفاضل فيه العباد أشد التفاضل فقد رضي الله تعالى عن صحابة رسول الله ﷺ بقوله : ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[التوبة: ١٠٠]. ولكن لا نقول أنهم بدرجة واحدة من الرضا والمحبة, فهل يتساوى أبو بكر الصديق رضي الله عنه مع أدناهم. وقس على ذلك جميع درجات القبول نسأل الله العظيم من فضله. ولكي نرسم صورة ذهنية لتفاوت درجات القبول يحسن بنا النظر إلى درجات الجنة وعظيم تفاوتها :

(١) ينظر حادي الارواح ص:٧٧.

فالجنة درجات بعضها فوق بعض وما بين كل درجة والتي تليها مسيرة خمسمائة عام كما بين السماء والأرض كما بينت ذلك السنة المطهرة فقال ﷺ: (إِنَّ أَهْـلَ الْجَنَّـةِ يَـتَرَاءَوْنَ أَهْـلَ الْغُـرَفِ مِـنْ فَوْقِهِـمْ، كَـمَا يَـتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَـبَ الـــدُّرِّيَّ الْغَابِـرَ فِي الأُفُـقِ مِـنَ الْمَشْـــرِقِ أَوِ الْمَغْرِبِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ)[١]. ولاشك أن المراد بالتفاضل هو تفاضل ما بينهم في درجات القبول عند الله .

وفي الخبر :(الْجَنَّةُ مِائَةُ دَرَجَةٍ، كُلُّ دَرَجَةٍ مِنْهَا مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ...) [٢]. وقد تتفاوت كذلك درجات القبول [٣] ولعل حسان بن عطية[٤] بيّن شيئاً مما نشير إليه حين قال: ((إن الرجلين ليكونان في الصلاة الواحدة وإن ما بينهما في الفضل كما بين السماء والأرض وذلك أن أحدهما مقبل على الله عز وجل والآخر ساهٍ غافل))[٥].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١١٩/٤/ح٣٢٥٦).
(٢) جزء من حديث أخرجه ابن ماجة في السنن (١٦٢/٢/ح٤٣٣١) ،وأخرج نحوه أحمد في المسند (٢٢٧٣٨/٤٠٤/٣٧)،وابن خزيمة في التوحيد (٢٤٧/١)وقال الألباني : (صحيح) في صحيح ابن ماجة.
(٣) هذا لا ينافي كون درجات القبول معنوية ودرجات الجنة حسية .
(٤) هو حسان بن عطية أبو بكر المحاربي الدمشقي ،مِنْ أَهْلِ بَيْرُوْتَ ،حدث عن طائفة من السلف أمثال أَبِي أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ،وَسَعِيْدِ بنِ المُسَيِّبِ،وَأَبِي كَبْشَةَ السَّلُوْلِيِّ،وَأَبِي الأَشْعَثِ الصَّنْعَانِيِّ،وَمُحَمَّدِ بنِ أَبِي عَائِشَةَ ،قَالَ الأَوْزَاعِيُّ: مَا رَأَيْتُ أَحَداً أَكْثَرَ عَمَلاً فِي الخَيْرِ مِنْ حَسَّانَ بنِ عَطِيَّةَ ،رمي بالقدر ولعله رجع عنه،بقي إلى سنة ثلاثين ومئة. ينظر سير أعلام النبلاء (١٧٦/٦).
(٥) الوابل الصيب من الكلم الطيب لابن القيم ص:٣٦ .

وذكر بعض أهل العلم أن عدد درجات الجنة ربما تكون بعدد آي القرآن أو أكثر، بناءً على قول النبي ﷺ: (يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا)[١]، وقد جاء في بعض أنواع الذكر والأدعية المأثورة أن الله يجازي عليها بمئات بل آلاف الدرجات في كلّ مرّة ،فكذا تفاوت الناس في القبول والله أعلم .

ما سبق يدل على أن درجات القبول عند الله عظيمة التفاوت ،دقيقة التفاضل ،وكل درجة لها مراتب وفضائل يجتني العبد فضيلة بعد أخرى . وأعلى درجات القبول قبول المحبة الخاصة،ويؤيد ذلك قول الرسول ﷺفيما بلّغ عن ربه قائلا : (...وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ[٢] حَتَّى

---

(١) أخرجه أبو داود (٢/٧٣/ح١٤٦٤)، وابن ماجة في السنن (٢/١٢٤٢/ح٣٧٨٠)،وأحمد في المسند (١١/٤٠٤/ ح٦٧٩٩)،والبيهقي في الشعب (٣/٣٨١/ح١٨٤٤). وقال الألباني:(صحيح) في صحيح أبي داود.

(٢) وللفائدة فقد فصل ابن تيمية في شرح التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض فذكر أن التقرب بالنوافل يتفاوت من عبد لآخر بحسب مواردة وطاقته فقال: (فَإِنَّ كُلَّ تَنَوُّعٍ [من أنواع العبادة] يَقَعُ فِي الْوُجُوبِ فَإِنَّهُ يَقَعُ مِثْلُهُ فِي الْمُسْتَحَبِّ وَيَزْدَادُ الْمُسْتَحَبُّ بِأَنَّ كُلَّ شَخْصٍ إنَّمَا يَسْتَحِبُّ لَهُ مِنْ الْأَعْمَالِ الَّتِي يَتَقَرَّبُ بِهَا إلَى اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي يَقُولُ اللَّهُ فِيهَا: {وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ} مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ وَيَفْعَلُهُ وَيَنْتَفِعُ بِهِ وَالْأَفْضَلُ لَهُ مِنْ الْأَعْمَالِ مَا كَانَ أَنْفَعَ لَهُ وَهَذَا يَتَنَوَّعُ تَنَوُّعًا عَظِيمًا فَأَكْثَرُ الْخَلْقِ يَكُونُ الْمُسْتَحَبُّ لَهُمْ مَا لَيْسَ هُوَ الْأَفْضَلَ مُطْلَقًا؛ إذْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى الْأَفْضَلِ وَلَا يَصْبِرُونَ عَلَيْهِ إذَا قَدَرُوا عَلَيْهِ وَقَدْ لَا يَنْتَفِعُونَ بِهِ بَلْ قَدْ يَتَضَرَّرُونَ إذَا طَلَبُوهُ مِثْلَ مَنْ لَا يُمْكِنُهُ فَهْمُ الْعِلْمِ الدَّقِيقِ إذَا طَلَبَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ قَدْ يُفْسِدُ عَقْلَهُ وَدِينَهُ...) ينظر المزيد في مجموع الفتاوى (١٩/١١٩).

أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ)[١] حيث جاء الخطاب مقيداً بحرف الغاية (حتى) مبيناً أن كثرة التقرب تنتهي إلى الوصول إلى درجة المحبة الخاصة أو الولاية الكاملة التي يصبح العبد فيها ولياً مسدداً من الله تعالى ،يحفظ جوارحه وأعضاءه عن الحرام ،ويوجهه للعمل بطاعته فمَنْ تَوَلَّى اللَّهُ أَمْرَهُ لَا يَكِلْهُ إِلَى نَفْسِهِ فإن سمع سمع بالله. وإن أبصر فلله. وإن بطش أو مشى ففي طاعة الله[٢].

ودرجات المحبة متعددة أولها المحبة العامة التي تتحصّل بالاتباع قال تعالى:﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] وعلى قدر صدق الاتباع تكون درجة المحبة ولا يزال العبد يترقّى في قبول المحبة حتى يصل إلى المحبة الخاصة وأعلاها درجة الخُلّة التي لا تتسع إلا للخليلين صلوات الله وسلامه عليهما .

ومن درجات القبول قبول الشكر فإذا بلغ العبد درجة الشكر خاض في خِرافه ،واجتنى من

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/١٠٥/ح٦٥٠٢).

(٢) ينظر مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/١٥٤٤)،وبهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار للسعدي ص:٩٧.

ثماره وكذا قبول الرضا وقبول الإثابة ،وقبول العفو إلى غير ذلك مما لا يعلمه إلا الله.

قال ابن القيم :" وَالْقَبُولُ لَهُ أَنْوَاعٌ قَبُولُ رِضَا وَمَحَبَّةٍ وَاعْتِدَادٍ وَمُبَاهَاةٍ وَثَنَاءٍ عَلَى الْعَامِلِ بِهِ بَيْنَ الْمَلأ الأَعْلَى وَقَبُولُ جَزَاءٍ وَثَوَابٍ وَإِنْ لَمْ يَقَعْ مَوْقِعَ الأَوَّلِ وَقَبُولُ إِسْقَاطٍ لِلْعِقَابِ فَقَطْ وَإِنْ لَمْ يَتَرَتَّبْ عَلَيْهِ ثَوَابٌ وَجَزَاءٌ " (١).

ولعل الشكل التالي يبين احتمالية درجات القبول التي لا يُقطع بترتيبها ولا بعدم وجود سواها :

المحبة الخاصة

قبول الشكر

قبول الرضا

قبول الإثابة والمضاعفات

قبول الإجزاء وإسقاط المساءلة

قبول العفو والنجاة من الدخول في النار

قبول النجاة من الخلود في النار

(١) المنار المنيف لابن القيم ص: ٣٢

يبين الشكل الهرمي درجات القبول المحتملة وهو من أدنى قاعدته كالتالي:

١- درجة النجاة من الخلود في النار :فهذه الأمة المصطفاة قد نجاها الله تعالى بتوحيدها وإيمانها من الخلود في النار،وهو أمر معلوم من عقيدة أهل السنة والجماعة ،وقد تقدم الحديث عن الجهنميين [(١)] الذين يخرجون من النار وهم درجات في مدة مكوثهم وشدة عذابهم ثم يحسب لهم ما عملوا من حسنات بعد استيفاء العقاب.

٢- قبول عفو ونجاة من الدخول في النار :ومن هؤلاء صاحب البطاقة الآنف الذكر[(٢)].

٣- قبول إجزاء وإسقاط للمساءلة : وهو أن يعمل العمل على العادة والغفلة،فإنه يجزئ إن كان فرضاً ويسقط المساءلة ،ولكن لا يثاب عليه بإجماع السلف بأنه ليس له من صلاته إلا ما عقل[(٣)]،قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ الرَّجُلَ لَيُصَلِّي، وَلَعَلَّهُ أَنْ لَا يَكُونَ لَهُ مِنْ صَلَاتِهِ إِلَّا عُشْرُهَا، وَتُسْعُهَا، أَوْ ثُمُنُهَا، أَوْ سُبُعُهَا حَتَّى انْتَهَى إِلَى آخِرِ الْعَدَدِ)[(٤)]. ولربما صعدت الصلاة التي كثرت

(١) ينظر الحديث في حاشية ص: ١٢١.
(٢)ينظر الحديث في المطلب الأول في مبحث أسلوب الترغيب والترهيب من الفصل الثالث ص:٢٥٢
(٣) ينظر الوابل الصيب من الكلم الطيب ص: ٢٣
(٤) أخرجه أحمد في المسند ، (٣١/ ١٧١/ح١٨٨٧٩) ،والنسائي في السنن الكبرى (١/ ٢٠١/ح ٦١٣)،والبزار

غفلته فيها فانتقص من شروطها وأركانها ناقصة ثمّ تكمّل من النوافل إن وُجدت كما في جاء في قوله ﷺ:(فَإِنْ انْتَقَصَ مِنْ فَرِيضَتِهِ شَيْءٌ، قَالَ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: انْظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ فَيُكَمَّلَ بِهَا مَا انْتَقَصَ مِنَ الفَرِيضَةِ، ثُمَّ يَكُونُ سَائِرُ عَمَلِهِ عَلَى ذَلِكَ)[١].

٤- قبول جزاء وثواب :وهو أن يعمل العبد العمل ويجاهد نفسه في أداء الطاعة رغم مشاغل الدنيا،وجواذب الأرض ،فتجده مع الله تارة ومع شهوات الدنيا تارة ،فهو في شد وجذب ،فعمله مقبول وهو مثاب عليه بقدر ما نازع وجاهد. ويتفاوت الناس في ذلك بحسب استحضار معية الله وترك العوائق والعلائق والله تعالى يجزي على ذلك الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة[٢] قال تعالى:﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٦١].

في مسنده ر(٤/ ٢٥١/ ١٤٢٠)،وابن حبان في صحيحه(٥/ ٢١٠/ح ١٨٨٩)،وقال شعيب الأرناؤوط: (إسناده حسن) في صحيح ابن حبان .

(١) ينظر الحديث بتمامه في سنن الترمذي ،أبواب الصلاة ،باب ما جاء أن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة (٢/ ٢٦٩/ح٤١٣)،وروى نحوه النسائي والسنن الكبرى،باب الصلاة ،المحاسبة على ترك الصلاة (١/ ٢٠٦/ح٣٢٢) ، وأبو داود في السنن،أبواب تفريع استفتاح الصلاة ،باب قول النبي كل صلاة لا يتمها صاحبها(١/ ٢٢٩/ح٨٦٤) وقال الألباني: (صحيح) في صحيح الترمذي.

(٢) ينظر الاستقامة لابن تيمية (٢/ ٥٢) .

٥ – قبول الرضا من الله للعبد: والاعتداد والمباهاة والثناء على العامل أو العمل بين الملإ الأعلى مع مضاعفات الأجور وسبوغ الرحمات في الدنيا والآخرة وهو درجات ومراتب ومن ذلك رضا الله تعالى على أدنى الصحابة ورضاه على أعلاهم لما بينهم من التفاضل[١].

قال تعالى في مقام الرضا: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[المائدة: ١١٩] ودليل ذلك قوله ﷺ: (إِنَّ الْعَبْدَ لَيَلْتَمِسُ مَرْضَاةَ اللهِ فَلاَ يَزَالُ بِذَلِكَ، فَيَقُولُ اللهُ لِجِبْرِيلَ: إِنَّ فُلاَنًا عَبْدِي يَلْتَمِسُ أَنْ يُرْضِيَنِي أَلَا وَإِنَّ رَحْمَتِي عَلَيْهِ، فَيَقُولُ جِبْرِيلُ: رَحْمَةُ اللهِ عَلَى فُلاَنٍ، وَيَقُولُهَا حَمَلَةُ الْعَرْشِ، وَيَقُولُهَا مَنْ حَوْلَهُمْ حَتَّى يَقُولَهَا أَهْلُ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ، ثُمَّ تَهْبِطُ لَهُ إِلَى الْأَرْضِ)[٢] فمن لزم محاب الله تعالى وصل إلى مقام الرِّضَا ولَا بُدَّ[٣].

---

(١) ينظر شرح العقيدة السفارينية لابن عثيمين ص: ٥٦٤.
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٧/ ٧٨/ ح ٢٢٤٠١) وحسّنه الأرناؤوط في مسند أحمد ،ورواه الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (١٠/ ٢٧٥/ ح ١٧٥٣٩) وقال: ورجاله رجال الصحيح غير ميمون بن عجلان وهو ثقة.
(٣) ينظر مدارج السالكين (٢/ ١٦٩)

٦ – قبول الشكر من الله للعبد: وفيه الزلفى وعلو الشرف والمكانة وفيض المحبة ومعاملته للعبد بكمال جوده وعظيم منّه وسعة إحسانه ومطلق عطائه،وفيض كرمه الذي لا ينتهي

قال تعالى:﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾[الإنسان: ٢٢] [١].

٧ – قبول المحبة الخاصة : وهي من آثار محبة العبد لله وحرصه على محابه وتكون من الله للعبد فالله تعالى يحب عباده الطائعين وتتفاوت المحبة بحسب الإخلاص وكثرة التقرب، ولا يزال العبد يرتقي في محبة الله له من المحبة العامة للمؤمنين إلى الخاصة لأوليائه ثم إلى الأخص من أصفيائه وأعلاها درجة (الخُلَّة) التي لا تتسع لغير الخليلين صلوات الله وسلامه عليهما[٢] .

****

(١) ينظر مدارج السالكين (٢/ ٢٤٢) .
(٢) ينظر شرح العقيدة الواسطية لابن عثيمين ص: ٢٣٩ .

أسباب التفاضل في درجات القبول

إذا تقبّل الله تعالى العبد ورضي عنه فإنه يترقى في سلّم القبول ،ولا يزال يعلو عند ربه، ويسهّل له الله كل طريق يوصله إلى رضاه ويزيده على ذلك أضعافاً مضاعفة من الثواب والمحبة والزلفى،وإذا تقبل الله العمل نظر إلى جهد العامل وإخلاصه فيه فعلى قدر المشقة والإخلاص تتفاضل الأعمال وتتضاعف الأجور وذلك كما يبدو من خلال الدراسة و تفصيل ذلك بأمور خمسة :

١- بحسب صلاح العامل وقوة إيمانه وفضله عند مولاه:

وكما قال ابن القيم رحمه الله: ﴿فإن تفاضل الأعمال بتفاضل ما في القلوب من حقائق الإيمان﴾[1].

فقد يثاب العامل التقيّ الصالح على العمل نفسه أكثر من غيره ؛ وذلك لأن العمل إذا رُفع إلى الله من عبد صالح معروف في الملأ الأعلى بتقواه ،ومشهود له في السماء بالخير والمحبّة، تقبّله الله وضاعف له الأجر من جهتين:

أ - لأنه عمل طيّب خالص لوجهه تعالى.

ب- لأنه صادر من عبد محبوب ومعروف في الملأ الأعلى بصلاحه وتقواه.

وكما جاء في الحديث القدسيّ: (إذا أَحَبَّ اللهُ العبد؛ نَادَى جِبْرِيلَ: أن الله يُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ

(١) الوابل الصيب ص:١٥ .

جِبْرِيلُ. فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ...)[١]، وكما قال: (وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ)[٢].

فالمحبوب عند الله يفضُلُ غيره ،وما يحصُل عليه من ثواب أعماله وقبولها يفوق غيره بما لا يعلمه إلا الله. وكثيراً ما يحدث هذا التفضيل المبني على السُّمعة الحسنة في مقاييس البشر؛ فالمعلوم أن كثيراً من الشركات والمستشفيات تضاعف أجر الطبيب أو المهندس على سبيل المثال إذا كان (استشارياً) حاصلاً على درجة الأستاذية (بروفيسوراً)، ويزداد أجره إذا كان معروفاً على مستوى البلاد، بغض النظر عن عمله، فقد يتساوى تشخيص الطبيب الأخصائي المبتدئ في المهنة مع ذلك الاستشاري المشهور ولكن الأخير يأخذ من الأجر على سمعته أضعافاً مضاعفة، وتُحسب الساعة من عمله بكذا وكذا ،ولله المثل الأعلى ،وإذا كان هذا التفاضل في الدنيا فكيف به عند أكرم الأكرمين: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا﴾[الإسراء:٢١].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (/٤/١١١ ح٣٢٠٩) ،و مسلم في صحيحه (٤/٢٠٣٠/ح٢٦٣٧).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٩/١٢١/ح٧٤٠٥) .

٢- بحسب موقع العمل من جهتين:

أ - من حيث جدواه ومنفعته، إما بحسب قوة حاجة المنتفع إليه، وإما بعموم نفعه ووصوله إلى شريحة كبيرة من المنتفعين، وقد ورد في الحديث الشريف: (خَيرُ النَّاسِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ)(٣)، وقال عليه الصلاة والسلام: (أَحَبُّ العِبادِ إلى اللهِ تعالى أَنْفَعُهُمْ لِعيالِهِ) (٤) فكلما عظم نفع العمل للعباد، كان أجره عند الله أعظم، كإنشاء المستشفيات والمؤسسات الخيرية التي يتعدى نفعها إلى عدد كبير من الناس، ونشر العلم والكتب النافعة وما إلى ذلك ما دام ذلك خالصاً لوجهه تعالى.

ب - من حيث يقظة العبد فيه وإخلاصه ونيته عند الله؛ فإذا أدى العامل عمله على العادة والغفلة ولكن النية فيه التقرب إلى الله فترى أركانه مشغولة بالطاعة وقلبه ساهٍ لاهٍ لكنه يجاهد نفسه، فهذا مقبول بإذن الله كما قال ابن القيم، ولكن إذا رُفع هذا العمل إلى الله لم يقف تجاهه ولم ينظر إليه، وإنما يوضع حيث تُوضع دواوين الأعمال حتى تُعرض عليه يوم القيامة وتُوزن فيثيبه على ما

(٣) جزء من حديث أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٦/٥٨/ح ٥٧٨٧)،وذكره الألباني في الصحيحة وقال: (حسن صحيح) (ح٤٢٦).

(٤) رواه السيوطي في الجامع الصغير ولم أجده مطبوعاً، وهو في صحيح الجامع الصغير (١/٩٦/ح١٧٢) وحسّنه الألباني في صحيح الجامع برقم (١٧٢)،وذكر نحوه البيهقي في شعب الإيمان (٩/٥٢١/ح٧٠٤٥)، والطبراني في الكبير(١٠/٨٦/ح١٠٠٣٣)، والبزار في مسنده (١٣/٣٣٢/ح٦٩٤٧).

كان منها خالصاً ،ويردّ عليه ما لم يُـردْ بها وجهه تعالى،فيثيبه على هذا العمل بمخلوق من مخلوقاته من القصور والنعيم والحور ، وأما إذا كان العمل كلّه خالصاً لله تعالى، متعلقاً صاحبه بالله على الدوام فإنه إذا رفع إلى الله وقف تجاهه فينظر إليه ،فإذا نظر إليه تقبّله ورضي عنه وأرباه ونمّاه إلى أضعاف كثيرة، وأعلى درجة صاحبه ومنزلته عنده، وأعطاه بغير حساب(١)فانظر التفاوت.

٣- بحسب طاقة العبد وجهده:

سُئِل رسول الله ﷺ: أَيُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: (جُهْدُ المُقِلِّ)(٢)، فقد يبذل العامل القويّ المعافى عملاً مساوياً لما يبذله الضعيف العاجز فيضاعف الله للضعيف ويجزل له الثواب لأنه بذل جُلّ ما في وسعه وطاقته ، فقد ينفق الفقير دراهم معدودة يبتغي بها وجه الله فينال عليها من الأجر ما لا يناله الغنيّ الثريّ الذي ينفق الآلاف المؤلفة، وما ذلك إلا لأن الفقير بذل أقصى ما يستطيع وأفضله، وأحبّه إلى نفسه، وأما الغنيّ فربما يكون قد أنفقه من فضول أمواله التي لا حاجة له بها والتي قد لا تمثل شيئًا بالنسبة إلى رأس ماله الكبير؛ ولذلك قال

---

(١) ينظر الوابل الصيّب ص:٣٨ .

(٢) وهو جزء من حديث أخرجه أحمد في المسند (١٤/٣٢٤/ح٨٧٠٢) ، وابن خزيمة في صحيحه(٤/١٠٢/ ح٢٤٥١) ،وابن حبان في صحيحه(٨/١٣٤/ح٣٣٤٦) ، والبيهقي في الشعب (٥/١٢٦/ح٣١٨٠) ، وغيرهم وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (١١١٢).

ﷺ: (سَبَقَ دِرْهَمٌ مِائَةَ أَلْفٍ) قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! وَكَيْفَ ذلك؟ قَالَ: (رَجُلٌ لَهُ دِرْهَمَانِ فَأَخَذَ أَحَدَهُمَا فَتَصَدَّقَ بِهِ، وَرَجُلٌ لَهُ مَالٌ كَثِيرٌ فَأَخَذَ مِنْ عُرْضِ مَالِهِ مِائَةَ أَلْفٍ فَتَصَدَّقَ بِهَا (١).

وقد دافع الله تعالى عن أولئك المتصدقين من الفقراء ووصفهم بالإيمان حيث أنهم بذلوا ما في وسعهم وغاية جهدهم ودفاع الله عنهم فيه دلالة على حُسن قبولهم والثناء عليهم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[التوبة: ٧٩].

٤- لشرف الزمان والمكان:

كفضل شهر رمضان والعشر من ذي الحجة على غيرهما إذ تُضاعف فيهما الحسنات. ومن أفضل الأماكن عند الله التي يضاعف فيها الأجور الحرم المكيّ ومسجد رسول الله ﷺ والمسجد الأقصى، فمن تحرى الصلاة فيهم كان ذلك أدعى للقبول ،وأرفع للدرجات(٢).

٥- يتضاعف العمل في مكان الغفلة وزمن الغفلة:

---

(١) أخرجه النسائي في السنن (/٥٢٥٢٧/٥٩)، وابن خزيمة في صحيحه (٤/٩٩/ح٢٤٤٣) ، وابن حبان(٨/١٣٥/ح٣٣٤٧) ، والحاكم في المستدرك (١/٥٧٦/ح١٥١٩) ، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٨٨٣).

(٢) ينظر ما يجب أن يعرفه المسلم عن دينه لعبد الله خياط ص:١٠ .

ومن المعلوم أنه كلما اقترب الناس من الساعة ازدادوا غفلة وبُعداً عن دين الله وشريعته؛ لبعدهم عن خير القرون ولكثرة الشهوات وفتح أبواب النعم: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام:٤٤].

وقد فُتحت الدنيا في هذا الزمان على كثير من الناس، وجاشت الأرض بصنوف النعم التي لم يمدّنا الله بها حُبّاً وكرامة، وإلا لكان رسول الله ﷺ وصحابته الكرام أولى بها منّا، ولكنه الابتلاء والامتحان ، فكلما أحدث المفرطون ذنباً ، أحدث الله لهم نعمة، حتى يُغرقهم بالنعم من كل حدب وصوب يستدرجهم بها قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾[المؤمنون:٥٥،٥٦].

وبنظرة سريعة على المجتمعات الإسلامية ،نرى كيف كان فتْح النعم للبعض من الناس نقمة و بُعداً فتمادوا في الترف والتنعّم، وتهافتوا على كل تفاهة تأتيهم من الغرب أو الشرق، قلدوا الكفار في ملابسهم وهيئاتهم وأعيادهم. ولم تعد الخلاعة حكراً على بلاد الكفر والفسق فقد غزت بضاعتهم الفاسدة بلاد المسلمين، ومنذ أن اعتلت تلك الأطباق السوداء أسطح منازلنا، اعتلى قلوبنا الرّان فأحْلكها، وطمس على بصائرنا فأظلمها إلا من رحم الله.

فعلى كثرة هذه الفتن وانهمار وابل الشهوات، فإن أجر العامل آخر الزمان يزداد ويتضاعف لمعاناته وصبره على ما يلقاه،فقبول العمل بذاته في العصور المتأخرة أشد قبولا منه في خير القرون،لكن لا خلاف في أن قبول العبد هناك أفضل وأكرم .

فقد يعمل الصحابي عملاً من صلاة أو صدقة أو غيره ثم يأتي مسلم من آخر الزمان فيعمل العمل نفسه فيضاعف له أجره إلى خمسين ضعف و تفصيل ذلك كما يلي :

إن شروط القبول للدرجات العُلى في عصر الصحابة رضوان الله عليهم لا تحرز إلا بالجد والاجتهاد والمثابرة،ألم يقل النبيّ ﷺلمن سأله مرافقته في الجنة : (فأعنِّي على نَفسِكَ بكثرةِ السُجود) [١].

مثلهم في ذلك مثل من يتنافس لنيل وظيفة عالية المستوى ،فإنه إذا كثر المتنافسون عليها زادت شروطها ومتطلباتها ؛ وذلك حتى تتميز نخبة منهم فتفوز بذلك المنصب بجدارة. لذلك أرهق ثلة الأولين أبدانهم في العبادة، سهروا ليلهم وأظمأوا نهارهم، وقد شغلوا أوقاتهم بالطاعة وحفظوا أنفسهم عن المعصية،كل منهم يريد الفوز بتلك الرتبة العالية، والمنزلة السامية، منزلة المقربين؛ فعزيز أن يتميز فضلاء منهم وكلهم فاضل.

(١) وهو جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه(١/٣٥٣/ح٢٢٦).

مثَلهم في ذلك مثَل طلاب في فصل كلهم أوائل متميزون، كلٌ يسعى لحيازة الدرجات العُلى، فأضحى التنافس بينهم على أشده؛ فما أصعبه من تنافس؛ يواصل أحدهم ليله بنهاره منكبّاً على كتبه ودراسته حتى يفوز ويتفوق على أقرانه.

أما اليوم بعد أن قل المتنافسون على الوظيفة، وبعد أن ألهتهم عنها الفتن والأهواء وشتى الملهيات،قلّت شروطها ومتطلباتها، وفي الحديث : (إِنَّكُمْ فِي زَمَانٍ مَنْ تَرَكَ مِنْكُمْ عُشْرَ مَا أُمِرَ بِهِ هَلَكَ ثُمَّ يَأْتِي زَمَانٌ مَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ بِعُشْرِ مَا أُمِرَ بِهِ نَجَا)[١] . ويؤيده قوله ﷺ: (إنكم اليوم في زمان كثير علماؤه قليل خطباؤه، من ترك عشر ما يعرف فقد هوى، ويأتي من بعد زمان كثير خطباؤه قليل علماؤه من استمسك بعشر ما يعرف فقد نجا) [٢] .

((وَنُقِلَ عَنْ الشَّيْخِ عِزِّ الدِّينِ بْنِ عَبْدِ السَّلاَمِ أَنَّهُ قَالَ: يَحْدُثُ لِلنَّاسِ فِي كُلِّ زَمَانٍ مِنْ الْأَحْكَامِ مَا يُنَاسِبُهُمْ))[٣]. فلعل الله أن يتقبّل أعمالهم بحسب ظروفهم في كل زمان .

ومع ذلك فإن هؤلاء القلة من المتأخرين قد يفضلون في الأجر من سبقهم من الأولين المجتهدين؛

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٧٩) (٤/ ٥٣٠/ح٢٢٦٧) ،وقال الألباني: (صحيح) في صحيح الترمذي.
(٢) رواه العسقلاني في إتحاف المهرة (١٠/ ٥٠١/ح١٣٢٨٩)،وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٥١٠).
(٣) البحر المحيط في أصول الفقه (١/ ٢١٨) .

وقبول العمل الصالح في عصر الفتن يتضاعف خمسين ضعفاً ،قال النبي ﷺ: (فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّاماً: الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ الْقَبْضِ عَلَى الجَمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلاً يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكُمْ). قَالَ عَبْدُ اللهِ ابْنُ المُبَارَكِ: وَزَادَنِي غَيْرُ عُتْبَةَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَجْرُ خَمْسِينَ رَجُلاً مِنَّا أَوْ مِنْهُمْ؟ قَالَ: (لاَ؛ بَلْ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ)[١].

فيظهر هنا أن أجر القليل من الآخرين في زمن الفتن أكبر من أجر الأولين، كيف لا وهم يجدون على الحق معيناً ولا يجد هؤلاء [٢].فالزمن زمن غفلة، أحاطت بأهله الفتن والشهوات والمشاغل، وكلما زاد إعراض الناس وغفلتهم والحرب على دينهم ،زاد أجر العاملين وتضاعف .

قال ابن القيم يصف المؤمن في ذلك الزمان : «فَهُوَ غَرِيبٌ فِي أُمُورِ دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ لَايَجِدُ مِنَ الْعَامَّةِ مُسَاعِداً وَلَا مُعِيناً فَهُوَ عَالِمٌ بَيْنَ جُهَّالٍ، صَاحِبُ سُنَّةٍ بَيْنَ أَهْلِ بِدَعٍ،

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٢/١٠٩/ح ٣٨٥) ،والبيهقي في الشعب (١٢/٢٠١/ح٩٢٧٨) وأبو داود،كتاب الملاحم (/١٢٣/٤٤٣٤١)، وقال الألباني في ضعيف أبي داود: -ضعيف لكن فقرة أيام الصبر ثابتة- .

(٢) وهذا لا ينافي أن فضل صحابة رسول الله ﷺأعظم من غيرهم، وهو كما ذكرت قبول مضاعف للعمل في زمن الفتن فهؤلاء يزيدون عليهم في الأجر وليس في الفضل... فقد قال ﷺ: (خير الناس قرني ثم الذين يلونهم...) رواه الترمذي(٥/٥٦٩/ح٣٨٥٩) وصححه الألباني في صحيح الترمذي . فلن يبلغ أحد مِنْ المتأخرين مُدَّ أحدهم ولا نصيفه.

دَاعٍ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ بَيْنَ دُعَاةٍ إِلَى الْأَهْوَاءِ وَالْبِدَعِ، آمِرٌ بِالْمَعْرُوفِ نَاهٍ عَنِ الْمُنْكَرِ بَيْنَ قَوْمٍ الْمَعْرُوفُ لَدَيْهِمْ مُنْكَرٌ وَالْمُنْكَرُ مَعْرُوفٌ»[1]. وقد يعجب سائل فيقول كيف لمجتهدٍ من هذا العصر أن يصل إلى درجة المقربين ولم يعمل عمل أولئك الثلة من الأولين؟

والجواب: أن الله سبحانه هو الحكم العدل إذا حاسب العبد نظر إلى بيئته وعصره. فلكلٍ بيئته وظروفه التي تساعده على العبادة أو تلهيه عنها.

قال ابن تيمية : «فَلَمَّا طَالَ الزَّمَانُ خَفِيَ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ النَّاسِ مَا كَانَ ظَاهِرًا لَهُمْ وَدَقَّ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ النَّاسِ مَا كَانَ جَلِيّاً لَهُمْ فَكَثُرَ مِنْ الْمُتَأَخِّرِينَ مُخَالَفَةُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مَا لَمْ يَكُنْ مِثْلُ هَذَا فِي السَّلَفِ. وَإِنْ كَانُوا مَعَ هَذَا مُجْتَهِدِينَ مَعْذُورِينَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَهُمْ خَطَايَاهُمْ وَيُثِيبُهُمْ عَلَى اجْتِهَادِهِمْ. وَقَدْ يَكُونُ لَهُمْ مِنْ الْحَسَنَاتِ مَا يَكُونُ لِلْعَامِلِ مِنْهُمْ أَجْرُ خَمْسِينَ رَجُلاً يَعْمَلُهَا فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَجِدُونَ مَنْ يُعِينُهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَهَؤُلَاءِ الْمُتَأَخِّرُونَ لَمْ يَجِدُوا مَنْ يُعِينُهُمْ عَلَى ذَلِكَ»[2].

ولكن المهم.. أن على المرء محاولة سبق أقرانه في بيئته في كل طاعة، وعليه أن يستمر على ذلك فلا

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ١٨٩) .
(٢) مجموع الفتاوى (١٣/ ٦٥).

تفتر عزيمته حتى يصل إلى الهدف المنشود وهو الجنة؛ فمن تطلّع إلى الجنة هدفاً لن يتوقف عن العمل لها طوال حياته لأنها هدف بعيدٌ لا يُنال إلا بانتهاء الدنيا.

ومن أماكن الغفلة على مدى الزمان؛ التي يضاعف فيها الأجر على العمل الصالح، الأسواق وأماكن الملاهي وكل اجتماع لا يذكر فيه اسم الله، وقد ورد في الحديث: (مَنْ دَخَلَ السُّوقَ فَقَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ حَيٌّ لاَ يَمُوتُ، بِيَدِهِ الخَيْرُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، كَتَبَ اللهُ لَهُ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ، وَمَحَا عَنْهُ أَلْفَ أَلْفِ سَيِّئَةٍ، وَرَفَعَ لَهُ أَلْفَ أَلْفِ دَرَجَةٍ)(١)، وفي رواية الحاكم زاد: (وَبَنَى لَهُ بَيْتاً فِي الجَنَّةِ).

واللبيب الفطن هو الذي يحاول الجمع بين هذه البنود الخمسة ما استطاع فيضاعف الله له الثواب أضعافاً مضاعفة ويرفعه في سلم القبول حتى يحوز على المكانة العالية ويصل إلى رضوان الله وجنانه أكمل وصول.

****

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٥/ ٤٩١/ح ٣٤٢٨)،والدارمي في السنن (٣/ ١٧٦٢/ ٢٧٣٤)،والحاكم في المستدرك (١/ ٧٢٢/ ١٩٧٤) ،وقال الألباني: حسن ،وقد أعله بعض أهل الحديث وقال باضطرابه وأنه لا يثبت ،وعلى أي حال فالذكر في مكان الغفلة مطلوب كما قال تعالى(رِجَالٌ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ)[النور: ٣٧].

ثانياً : أنواع القبول

أ : قبول عبد بعينه

بعد القبول العام لأهل الإيمان ،فهناك بون شاسع كما بين المشرقين،بين قبول العمل والقبول الخاص للعبد نفسه عند الله ,فإن قبول العمل وحده مجرداً لا يلزم بالضرورة قبول جميع أعمال صاحبه،أو مغفرة جميع ذنوبه . وفي قبول العبد قال تعالى في شأن مريم عليها السلام :﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ [آل عمران: ٣٧]. وهو الاصطفاء الخاص فالاصطفاء عام لأمة الاتباع وخاص لعبد معين : وقبول العبد واصطفاؤه يكون بأمرين:

الأول: بإخلاصه وطول المداومة على محاب الله ،والعكوف عليها،حتى تكون هي أغلى ما يحرص عليه ،وتكون هي شغله وهمّه ،حتى تفضي هذه المداومة إلى محبة الله تعالى له،واصطفائه في أوليائه الصالحين ،فيتقبله عبداً محبوباً ،ومتى أحبه الله تعالى حبب إليه أهل السموات والأرض وسدده للمزيد من العمل الصالح ،وألهمه الصواب،ويتقبّل الله أعماله كلها،ويضاعف له الثواب فهؤلاء هم فئة منّ الله عليهم بالصلاح وتلقاهم بالقبول ورفع مكانتهم قال تعالى:

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ١٢ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾[الواقعة: ١٠ – ١٤].

وكما جاء في الحديث القدسي عن النبي ﷺ: (إذا أَحَبَّ الله العبد؛ نَادَى جِبْرِيلَ: أن الله يُحِبُّ فُلانًا فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ. فَيُنَادِي جِبْرِيلُ في أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ الله يُحِبُّ فُلانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فِي الأَرْضِ)[(١)].

فالعبد المحبوب لا يحاسبه الله على ما كان منه من هفوات، ولا يعرّضه للمسائلة يوم القيامة في العرصات . قال ابن تيمية رحمه الله :((إن عباده الصالحين لا يعذبهم في النار بل يتقبل عنهم أحسن ما عملوا ويتجاوز عن سيئاتهم))[(٢)].

والعبد المقرّب المحبوب يدافع الله عنه ،ويصرف عنه السوء ،ويكون عند الله من الخاصة الذين يحوطهم برعايته وحفظه وأفضاله. قال عز من قائل في شأن يوسف عليه السلام : ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١١١/٤/ ح٣٢٠٩) ،و مسلم في صحيحه (٢٠٣٠/٤/ح٢٦٣٧).
(٢) ذكر ابن تيمية أن الخوارج والمعتزلة قالوا في ذلك أنه لا تقبل حسنة إلا ممن اتقاه فصاحب الكبيرة عندهم لا يتقبل عمله مطلقا ، وعند المرجئة إنما يتقبل ممن اتقى الشرك فجعلوا أهل الكبائر داخلين في اسم المتقين ، وعند أهل السنة والجماعة يتقبل العمل ممن اتقى الله فيه ، فعمله خالصا موافقا لأمر الله فمن اتقاه في عمل تقبله منه ، وإن كان عاصيا في غيره ، ومن لم يتقه فيه لم يتقبله منه وإن كان مطيعا في غيره. ينظر مجموع الفتاوى (٤٩٥/٧).

عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[يوسف: ٢٤] ومثل هذا العبد في الدنيا ترى على صفحة وجهه مخايل القبول ،من إشراق ونور ومهابة ووقار،وكما قال ابن عباس رضي الله عنه (إن للحسنة ضياء في الوجه ونوراً في القلب وقوة في البدن وسعة في الرزق ومحبة في قلوب الخلق)[١]. والمقربون كما قال تعالى أنهم من الأولين والآخرين:﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ⑬ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْأَخِرِينَ﴾[الواقعة: ١٣ – ١٤] فكلٌ يختاره الله بحسب زمانه وموارده وطاقته وإخلاصه قال ابن القيم رحمه الله:(الفاضل المجتهد في طلب العمل بحسب ما أدركه في زمانه ومكانه إذا كان مقصوده متابعة الرسول بحسب إمكانه هو أحق بأن يتقبل الله حسناته ويثيبه على اجتهاداته ولا يؤاخذه بما أخطأه تحقيقاً لقوله تعالى : ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦])[٢].

الثاني : بعمل معيّن وقع من الله بمكان: قد يقبل الله العبد لا لكثير صيام ولا لطول قيام ،ولكن لعملٍ اطلع الله عليه،ونظر إلى قلب عبده فوجد فيه من الحب والإخلاص ما يرفعه به إلى أعلى عليين. وقد يعمل العبد العمل يستقله ،ولكنه يقع من رضوان الله بمكان ،فيتقبّله ،ويثني على صاحبه في الملأ الأعلى ،ويرضى عنه ومن رضي الله عنه فلا يسخط عليه أبدا.

---

(١) الوابل الصيب ص: ٣٠ .

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٢ / ٣١٥).

ولعلي أوضح ذلك بمثال بشر بن الحارث الحافي أحدُ كبار الزهّاد من أتباع التابعين كان قاطعاً للطريق ،وقُطاع الطريق من أشدِّ الناس أذيةً للخلق ، وكان سببُ توبتِه ,ونحسب أن الله قد تقبّله ورفعه ، أنَّه وجد قرطاساً كُتب فيه اسم الله فعَظُمَ ذلك عليه ورفع طرْفه إلى السماء وقال: ((سيدي اسْمُك ها هنا مُلقَىً)) فرفعه من الأرض وقلع عنه القذرَ الذي أصابه وأتى عطاراً فاشترى بدرهم طِيباً غاليَ الثمن لم يكن معه درهم سواه وطيَّب القرطاسَ بالطِّيب فأدخلَه شقَّ حائطٍ وانصرف إلى صديق له وكان يُجالسه فقال له يوماً : والله يا أخي لقد رأيتُ لك في هذه الليلة رؤيا ما رأيتُ أحسنَ منها ولستُ أقولُ لك حتى تُحدِّثَني ما فعلتَ في هذه الأيام فيما بينَك وبين الله؟ فقال ما فعلتُ شيئاً أعلمُه غير أني ... فذكر له الحادثة. فقال له رأيتُ كأن قَائلاً يقولُ في المنام قُلْ لبشرٍ يرفعُ اسماً لنا من الأرضِ إجلالاً أنْ يُداسَ لَنُنَوِّهَنَّ باسْمِك في الدنيا والآخرة. وفي رواية : طيَّبْتَ اسمي لأُطَيِّبَنَّ اسمك في الدنيا والآخرة(١).

وأصبح بِشرٌ ممن يُشهد لهم بالصلاح بإحسانه في عمل قد يحسَبه هَيِّناً وهو عند الله عظيم. فأنزل الله على قلبه الهدايةَ حتى صار من العلماء الأجِلاَّء وكان الإمام أحمد بن حنبل يُحبه ويُجِلُّه.

---

(١) ينظر حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٨/٣٣٦) ،والبداية والنهاية لابن كثير (١٠/٣٢٧) ،وتاريخ مدينة دمشق (١٠/١٨١).

فقد يتلفّظ العبد بكلمة أو يعمل عملاً لا يراه شيئاً ولا يعتني به، يرفعه الله به إلى مقام الإحسان.

وفي معنى ذلك قال الرسول ﷺ: (إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ، مَا كَانَ يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ فَيُكْتَبُ اللَّهُ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، مَا كَانَ يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ فَيُكْتَبُ اللَّهُ لَهُ بِهَا سَخَطَهُ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ)(١).

وقال: (إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ)(٢).

وبالنظر في أقوال العلماء يظهر أن قبول العبد جراء عمل تقبله الله على نوعين:

أ - قبول محبة ورضا ورفعة: قد يكون العمل صادراً من عبد صالح محبوب عند الله فيصدر منه ضمن أعماله الصالحة عمل ينظر الله إليه ويحبه فيزيده بذلك قربة ومحبة ولعل مثال ذلك ما ذكر في حديث أبي هريرة الذي جاء فيه أن رجلاً جاء إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد بلغ به

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ (٢١٦٣//ح٢٠٧٢)،والحاكم في المستدرك (١/١٠٨/ح١٤١)،وأحمد في المسند (٢٥/١٨٠/ ح٥٨٥٢) ،والطبراني في المعجم الكبير (١/٣٦٧/ح ١١٢٨) وقال الألباني: (صحيح) في السلسلة الصحيحة (ح٨٨٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/١٠١/ح٦٤٧٨).

الجهد والجوع فلم يجد عند نسائه ما يضيف به الرجل فَقَالَ: (مَنْ يُضِيفُ هَذَا اللَّيْلَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ؟)، فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: أَنَا، يَا رَسُولَ اللهِ، فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى رَحْلِهِ، فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ: هَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ؟ قَالَتْ: لَا إِلَّا قُوتُ صِبْيَانِي، قَالَ: فَعَلِّلِيهِمْ بِشَيْءٍ، فَإِذَا دَخَلَ ضَيْفُنَا فَأَطْفِئِ السِّرَاجَ، وَأَرِيهِ أَنَّا نَأْكُلُ، فَإِذَا أَهْوَى لِيَأْكُلَ، فَقُومِي إِلَى السِّرَاجِ حَتَّى تُطْفِئِيهِ، قَالَ: فَقَعَدُوا وَأَكَلَ الضَّيْفُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: (قَدْ عَجِبَ اللهُ مِنْ صَنِيعِكُمَا بِضَيْفِكُمَا اللَّيْلَةَ) (١).

وهذا راعٍ يحتمل أن يكون من هذه الفئة قد عمل عملاً أعجب الله تعالى فتقبله منه قال ﷺ: (يَعجَبُ ربُّك من راعي غنم، في رأسِ شَظيةٍ، يُؤذِّنُ بالصلاةِ ويُصلِّي، فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: انظروا إلى عبدي هذا يُؤذِّنُ ويُقيمُ الصلاةَ، يخافُ مني، قد غفرتُ لعبدي، وأدخلتُه الجنَّةَ)(٢).

فمن عجب الله من صنيعه تقبّله وعظّم ثوابه ورضي عن صاحبه وأثنى عليه (٣).

ب - قبول رحمة ومغفرة: فإذا رأى الله تعالى العبد المؤمن يعمل العمل متجرّداً فلم يُرد فيه

---

(١) ينظر الحديث بتمامه في صحيح مسلم (٣/١٦٢٤/ح٢٠٥٤).

(٢) أخرجه أحمد في المسند(٢٨/٥٤٨/ح١٧٣١٢) ،والمعجم الكبير (١٧/٣٠٩/ح٨٥٥)، والمنذري في الترغيب والترهيب (١/١٦٢/٦٠٠) ،وقال الألباني: (صحيح) في صحيح الترغيب (ح٢٤٧).

(٣) ينظر عون المعبود شرح سنن أبي داود للعظيم أبادي (٤/٥٠) ،ومرقاة المفاتيح (٢/٥٦٥)،وزاد المسير في علم التفسير(٣/٥٣٧).

إلاّ نفع غيره ،تقبله وغفر له،ولكن هذا القبول دون القبول الأول فهو قبول رحمة و قبول مغفرة لكل أعمال العبد. وقد يدخل في ذلك حديث البغي والرجل الذي سقى الكلب فغفر الله لهما(١).

فالأول عمل العمل مخلصاً يبتغي التقرب به إلى الله فغفر الله له وأعلى منزلته.

والثاني عمل العمل متجرّداً يبتغي نفع غيره رحمة ورأفة بهم فغفر الله له لأنه أولى بالرحمة من عبده. فالأول قبول رفعة والثاني قبول مغفرة وشتّان بين هذا وذاك.

****

ب - قبول عمل بعينه

ذكرت آنفاً أن القبول يتفاوت بحسب صلاح العمل ،وبحسب صلاح العامل .

وقبول العمل بعينه لا يدل بالضرورة على نجاة العبد من المساءلة يوم القيامة فقد يكون العمل صادراً عن شخص قد أسرف على نفسه فلم تصل به أعماله إلى درجة المحبة والاصطفاء الخاص أو المغفرة لجميع الأعمال فهؤلاء توزن أعمالهم فما قُبل منها أثيب عليه .

قال ابن بطال في شرح صحيح البخاري: "والله تعالى لا يُخَلِّدُ في النار من عمل عملاً مقبولاً منه،

---

(١) سبق ذكرهما في سمات المقبولين ،السمات الفردية ،صفة الرحمة وإسداء المنفعة للخلق ص :٢٠٣.

إذ قبول العمل يوجب ثوابه ، والتخليد في العذاب يمنع ثواب الأعمال))(١).

والله تعالى يقبل جميع العمل الصالح في ذاته من عبده المؤمن قال تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾[فاطر: ١٠]. وقبول العمل إنما هو اكتساب لثواب يوصل العبد مع الإخلاص والمداومة إلى حيازة المراتب العليا من قبول الرضا والشكر والمحبة قال تعالى في قبول العمل : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾[الأحقاف: ١٦].

ومن الأعمال والعبادات التي ذكرها جلّ وعلا في كتابه سوى الأركان الخمس وأمر بها على سبيل المثال لا الحصر :

- العمرة : ﴿فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨].

- التوبة والصدقة :﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[التوبة: ١٠٤].

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٣ / ٢٣٦).

وذكر الدعاء والتضرع،والأمر بالمعروف النهي عن المنكر ،وبر الوالدين و صلة الأرحام وغير ذلك من أعمال البر فالله تعالى يقبل كل عمل إذا كان صالحاً في ذاته ،خالصاً لوجهه[1].

****

من خلال ما سبق تتضح العلاقة بين العمل والعامل : فإن العامل يترقى في مستويات القبول بعمله - بعد فضل الله تعالى - ومما يؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]. وقد اختلف المفسرون في فاعل (يَرْفَعُ) على أربعة أوجه:

- أنه ضمير يعود على الله تعالى أي والعمل الصالح يرفعه الله إليه.
- أنه ضمير يعود على العمل الصالح أي والعمل الصالح يرفع صاحبه.
- أنه ضمير يعود على الكلم الطيب أي والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب. قال الحسن وقتادة: « أن الكلمُ الطَّيِّبُ ذكر الله والعمل الصلاح أداء فرائضه، فمن ذكر الله ولم يؤد فرائضه ردّ كلامه على عمله وليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلّي لكن ما وقَرَ في القلوب وصدقه الأعمال

(١) ينظر شرح العقيدة الواسطية لابن عثيمين ص: ٢٨٦ .

فمن قال حَسَناً وعَمِلَ غير صالح ردّ الله عليه قوله ومن قال حَسَناً وعمل صالحاً رفعه العمل))[١].

وقَالَ الحسن[٢] : ((الْعَمَل الصَّالح يرفع الْكَلاَم الطّيب إِلَى الله ويعرض القَوْل على الْعَمَل فَإِن وَافقه رفع وَإِلَّا رد)) [٣].

أن ضمير الرفع للكلم أو لله تعالى والنصب للعمل أي يرفع العمل،أي الكلم الطيب يرفع العمل الصالح فلا يُقْبَلُ عَمَلٌ إلا أن يكون صادراً عن التوحيد. أي أن الإخلاص سبب قبول الخيرات من الأقوال والأفعال[٤].

وأحد هذه الوجوه – ويُعتقد أن جميعها من باب اختلاف التنوع فهي صحيحة بكل الوجوه – والذي هو موضوع البحث ،وهو أمر لا يحتاج إلى دليل ،أن العمل الصالح يرفع صاحبه ولابد. فكلما استكثر وأخلص ارتقى ،والله أكثر وأطيب.

(١) اللباب في علوم الكتاب للنعماني (١١١/١٦) .

(٢) هوالتابعي الجليل الحسن بن أبي الحسن يسار البصري ، أبو سعيد، أمه خيرة مولاة لأم سلمة أم المؤمنين المخزومية ، وأرضعته رضي الله عنها . كان جامعًا، عالمًا، رفيعًا، فقيهًا، ثقة، مأمونًا، عابدًا، ناسكًا، كثير العلم، مات سنة عشر ومائة وهو ابن تسع وثمانين سنة.ينظر سير أعلام النبلاء (٥٦٤/٤) ،ومغاني الأخيار في شرح أسامي رجال معاني الآثار (٢٠٧/١).

(٣) الدر المنثور (٧ / ٩).

(٤)ينظر اللباب في علوم الكتاب (١٦ / ١١١).

ثالثاً: طرق الارتقاء في درجات القبول

إيجازاً لما سبق فلكي يرتقي العبد في درجات القبول ،يحسُن به أن يتحرّى شروط القبول وموجباته ويتوقّى محبطاته وأن يوقد جذوة ذكائه ،ويشحذ من عزيمته وذلك بالأمور التالية :

١ - الإخلاص والمتابعة قال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾[آل عمران: ٣١] فالإخلاص شرط القبول وهو سبيل تصفية العمل من شوائب الشرك وحظوظ النفس. والمتابعة كذلك فلا قبول بدون متابعة لما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم.

٢- الإحسان والإتقان وهو الأخلص والأصوب في جميع أنواع العبادات والمعاملات قال تعالى: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾[الملك: ٢].وقال : ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾[الرحمن: ٦٠]فالإحسان مطلب الارتقاء وأهم سبل الوصول .

٣-الإكثار من النوافل بعد الفرائض وقد أثنى الله ورسوله ﷺعلى المكثرين من النوافل فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا﴾[الفرقان: ٦٤]،وقال: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا﴾[الأحزاب: ٣٥] وقد قال النبيّ ﷺ(سَبَقَ

المُفَرِّدُونَ) قَالُوا: وَمَا المُفَرِّدُونَ؟ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: (الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا، وَالذَّاكِرَاتُ)(١).

٤- التنويع من الأعمال الصالحة قال تعالى:﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾[النساء: ١٢٤] وقال النبي ﷺحاثاً على التنويع من أعمال البرّ كلها :(مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، نُودِيَ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ: يَا عَبْدَ اللَّهِ هَذَا خَيْرٌ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلاَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلاَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ)، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عَلَى مَنْ دُعِيَ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ، فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ كُلِّهَا، قَالَ: (نَعَمْ وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ)(٢).

٥ - تقوى الله والبعد عن السيئات قال تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف: ٩٠] .

٦ - الثبات وعدم الانقطاع ،والاستمرار في الصعود وعدم الانحدار.﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٣].ويؤخذ من قوله ﴿دَآئِمُونَ﴾ الدوام على

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٤ / ٢٠٦٢/ح٢٦٧٦).
(٢)أخرجه البخاري في صحيحه(٢ / ٢٥/ح١٨٩٧).

العمل الصالح مهما كان قليلاً فقد سئل النبي ﷺ: أيُّ العملِ أَحَبُّ إلى اللهِ ؟ قال : (أَدْوَمُه وإن قَلَّ) [١].

رابعاً : آثار القبول في الدنيا والآخرة

أ: آثار القبول في الدنيا

إذا تقبل الله العبد أو تقبل عمله فإن لذلك آثاراً في الدنيا وعلامات يستبشر بها العبد ،ولا يغترّ،بل ترفع من همته وتحفّزه،للمزيد ومن هذه الآثار :

١ – الصلاح والهداية إلى طريق الحق ،والعمل وفق المنهج القويم ،والسير في الحياة بقوة وثبات قال تعالى:﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾[النساء: ١٧٥].

٢ – الحياة الطيبة ،ومنها طمأنينة القلب ،وانشراح الصدر ،والسكينة والقناعة بعطاء الله فلا يتسخط ولا يتشكى قال تعالى ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١/٥٤١/ح٧٨٢).

ومن علامات القبول انشراح الصدر للطاعة فيقبل عليها وكأنه مقبل على ربه . ومن الخذلان أن تجد الرجل يُفني عُمره في أعباء دنياه ، ويُرهق بدنه في ملهياتها بل إنه قد يجد اللذة في ذلك،ويستمرئ التعب والنصب في سبيل فوز دنيوي لا مجال لمقارنته بفوز الآخرة ،ثم تجده يستثقل ركعتين يركعهما من الليل ،ويستكثر سورة يتلوها أو ذكراً يتقرب به إلى ربه،وكان الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله يقول «اللهم لا تشغل قلوبنا بما تكفلت لنا به»(١) يعني الرزق ، فالعمل للآخرة من توفيق الله وهدايته قال تعالى :﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

٣ . زيادة في الهدى ,وترقٍ في مراتب الصلاح والتوفيق مما يضفي عليه إشراقة النور والهيبة والوقار،ويحبب إليه الطاعة ويدفعه للمزيد من العمل الصالح فالحسنة تجرّ الحسنة قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦].

٤ ـ يرزقه من حيث لا يحتسب ،ويجعل له مخرجاً من كل ضيق ،قال تعالى:﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ﴾ [الطلاق: ٢ – ٣].

(١) طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى (١/٢٠٥).

قال شارح الطحاوية : ((فَقَدْ ضَمِنَ اللَّهُ لِلْمُتَّقِينَ أَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ مَخْرَجًا مِمَّا يَضِيقُ عَلَى النَّاسِ، وَأَنْ يَرْزُقَهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ، فَإِذَا لَمْ يَحْصُلْ ذَلِكَ دَلَّ عَلَى أَنَّ فِي التَّقْوَى خَلَلاً، فَلْيَسْتَغْفِرِ اللَّهَ وَلْيَتُبْ إِلَيْهِ))(١).

٥ـ نيل ولاية الله الخاصة ،إذا تقبل الله العبد رفعهُ وقربه ونال شرف الولاية التي من آثارهاالأمن وطمأنينة القلب في الدنيا والآخرة وتلقّي المبشرات بالرؤى الصالحة يراها أو تُرى له(٢)قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[يونس:٦٢-٦٤].

٦ـ الإخراج من ظلمات الجهل والهوى إلى نور البصيرة ،ويفتح له أبواب المعرفة والهداية قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾[البقرة: ٢٥٧]. يخرجهم من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن ظلمات المعاصي إلى نور الطاعة، ومن ظلمات الغفلة إلى نور اليقظة والذكر. ومن ظلمات الشرور المتنوعة، إلى ما يرفعها من أنوار الخير العاجل والآجل(٣). ومن

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز (٢ / ٣٥١).
(٢) ينظر تفسير الطبري (١٥ / ١٢٤).
(٣) ينظر التوضيح والبيان لشجرة الإيمان للسعدي ص: ٨٨ .

اتجه إلى ربه واتقاه فإن الله تعالى قال في محكم كتابه : ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[البقرة: ٢٨٢]. فمن اتقى الله أنار الله قلبه ،وبصّره بطريق الحق والباطل،وجعل له فرقاناً يحيا به ،وبيّن له معالم دينه وحدود ما شرع الله له.

٧. الدفاع عنه ،قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۗ﴾ [الحج: ٣٨]. إذا تقبل الله العبد دفع مكر شياطين الإنس والجن عنه ، وشر مكائد الأعداء، وشر الوقوع في الموبقات وشرور الأقوال والأفعال.

قال السعدي رحمه الله : "يدافع عنهم كل مكروه، يدافع عنهم شر شياطين الإنس وشياطين الجن، ويدافع عنهم الأعداء، ويدافع عنهم المكاره قبل نزولها، ويرفعها أو يخففها بعد نزولها"(١).

وقال ابن القيم رحمه الله : " والله يتولى حفظه والدفع عنه فإن الله يدافع عن الذين آمنوا فإن كان مؤمنا فالله يدافع عنه ولا بد وبحسب إيمانه يكون دفاع الله عنه فإن كمل إيمانه كان دفع الله عنه أتم دفع وإن مَزج مُزج له وإن كان مرة ومرة فالله له مرة ومرة كما قال بعض السلف من أقبل على الله بكليته أقبل الله عليه جُملة ومن أعرض عن الله بكليته أعرض الله عنه جُملة ومن كان مرة

(١) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان ص: ٨٨ .

ومرة فالله له مرة ومرة))(١).

٨ ـ نيل محبة الله قال تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ [مريم: ٩٦].

قال المفسرون : أي بسبب إيمانهم وأعمالهم الصالحة ، يحبهم الله ويجعل لهم المحبة والألفة وودّ يشيع في قلوب أهل الإيمان ،ومن أحبه الله وأحبه المؤمنون من عباده حصلت له السعادة والفلاح والذكر الحسن والثناء والدعاء له حياً وميتاً، والاقتداء به، وحصول الإمامة في الدين،وقيل يحصل لهم ما يودون ويتمنون من السعادة والرضا. وقال ابن عطية :((ذهب أكثر المفسرين إلى أن هذا هو القبول الذي يضعه الله لمن يحب من عباده حسبما [جاء] في الحديث المأثور))(٢).

٩ – حسن الخاتـمة:

وقد حثّ الله عزوجلّ عبادة للعمل لها ،والثبات على الإيمان لتحصيلها ،وهي وصية الأنبياء قال تعالى :﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[البقرة: ١٣٢] ،ووصى الله تعالى نبيه بالثبات على الدين حتى يأتيه اليقين

(١) بدائع الفوائد (١/٢٤٥) .
(٢) تفسير ابن عطية (المحرر الوجيز) (٤/٣١٢) .

الذي لا مفرّ منه قال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]وهي كذا الوصية الثمينة لعموم المؤمنين : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[آل عمران: ١٠٢] فلا شك أن من علامات القبول بصفة عامة حسن الختام،والقدوم على الله تعالى بقلب مؤمن سليم ،ونفس طاهرة ،وجوهر نقيّ يستقبل به مولاه عز وجلّ ليقول الله تعالى:(اكتبوا كتاب عبدي في عليين) [(١)]،وهذا لعمر الله الفلاح والفوز نسأل الله الكريم من فضله.

وللسلف الصالح في حسن الختام نماذج كثيرة فهذا الصحابي الجليل عَمْرو بن الْعَاص قَالَ حِينَ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ: (: اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَمَرْتَ بِأُمُورٍ وَنَهَيْتَ عَنْ أُمُورٍ، فَتَرَكْنَا كَثِيراً مِمَّا أَمَرْتَ بِهِ، وَوَقَعْنَا فِي كَثِيرٍ مِمَّا نَهَيْتَ عَنْهُ، اللَّهُمَّ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ). فَلَمْ يَزَلْ يُرَدِّدُهَا حَتَّى قضي[(٢)].

(وقد ذكر أبو الفرج بن الجوزي قال كنّا عند شيخنا أبي الوقت عبد الأول وهو في السياق وكان آخر عهدنا به أنه نظر إلى السماء وضحك وقال : ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾)[(٣)].

(١) ينظر الحديث في مسند أحمد (٣٠/٤٩٩/ح١٨٥٣٤) ،والإيمان لابن مندة (٢/٩٦٣/ح١٠٦٤) وقال الألباني : (صحيح)في صحيح الجامع (ح١٦٧٦).
(٢) ينظر كتاب الولاة وكتاب القضاة للكندي ص:٢٨.
(٣) الروح لابن القيم (١/ ١١)،والآيات من [سورة يس: ٢٦ - ٢٧].

ب-آثار القبول في الآخرة

وإذا تقبل الله العبد قبول رضا وإثابة ومحبة أي قبولاً ليس عليه فيه تبعات ،فيا لسعده وهناه ،فقد ربح البيع ،وفاز بجنة عدن ،وتبدو آثار ذلك واضحة على محياه قال تعالى:﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾[عبس: ٣٨ - ٣٩] . وقوله : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ – ٢٣]. وبينت الآيات كيف يفرح المقبول ويرفع صحيفته متهلل الوجه قائلاً كما حكى ربه عنه :﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ۝١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝٢٣ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ١٩ – ٢٤]. وقوله تعالى:﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴾[الانشقاق:٧ - ٩]. ومن آثار القبول في الآخرة :

١- الولاية الخاصة: وكما للولاية الخاصة آثارها في الدنيا فإن لها في الآخرة آثارها من رحمات الله لوليه بالرعاية والطمأنينة التي تحوطه منذ توسده القبر إلى أن تقوم الساعة ،فعند القيام للنشور

يقومون من قبورِهم في سكينة وطمأنينة لا يفزعون إذا فزع الناس،ولا يحزنون إذا حزنوا ويحشرون ركباناً فتستقبلُهم النوقُ البيضُ عليها رِحالُ الذهبِ فلطالما سهِروا في طاعةِ ربِّهم والناسُ نائمون.. ولطالما وقفوا يتهجَّدون في جُنْحِ الليالي والناسُ في ملذَّاتِهم سادرون. قال تعالى:﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾[مريم: ٨٥]. قال المفسرون: الوفد هم الركبان المكرّمون[١]،وقد رُوي عن علي رضي الله عنه أنه قال : (أما والله ما يحشر الوفد على أرجلهم ، ولا يساقون سوقاً، ولكنهم يؤتون بنوق لم ير الخلائق مثلها، عليها رحال الذهب، وأزمتها الزبرجد، فيركبون عليها حتى يضربوا أبواب الجنة)[٢].و قال ﷺ: (يُحشرُ الناسُ يوم القيامةِ ثلاثةَ أصنافٍ : صنفٌ مُشاةٌ، وصنفٌ رُكبانٌ، وصنفٌ على وجوهِهم)[٣].

٢- الأمن في عرصات يوم القيامة ،والوقاية من فزع يوم الحساب والأمن يوم العرض،والنجاة من النار : ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ

---

(١) ينظر تفسير الخازن (٢/١٠٨)،وتفسير البغوي (٢/١٢٠)،والوجيز للواحدي ص:٦٨٩.
(٢) تفسير الطبري (١٨/٢٥٤) .
(٣) جزء من حديث أخرجه أحمد في المسند(٨/٣٧٦/ح٨٦٣٢) ،والترمذي في السنن (٥/٣٠٥/ح٣١٤٢)، وقال الأرناؤوط: (حسن لغيره) في مسند أحمد.

وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾[الأنعام: ٨٢].

٣- الفوز برضا الله تعالى والتنعم في دار كرامته ,وعلى قدر صلاحه يفوز بالرضوان قال تعالى:﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[التوبة: ٧٢][1].

٤-الرفعة والكرامة في الدرجات ،ونيل أعلى المراتب في الجنات ،قال تعالى:﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ﴾[المجادلة: ١١].فهي دَرَجَات عَالِيَة من الْكَرَامَةِ فِي الدُّنْيَا وَالثَّوَاب فِي الْآخِرَة[2].

٥ – يحط عنه الخطايا ويجازيه بأحسن ما عمل ويبدّل سيئاته إلى حسنات قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾[الأحقاف: ١٦].وقال : ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾[الفرقان: ٧٠].

---

(١) ينظر تفسير الطبري (٣٥٦/١٤),وتفسير الثعلبي (٦٨/٥)،وتفسير ابن كثير (٣٣٧/٧).
(٢) ينظر فتح القدير (٢٢٦/٥),والتفسير الوسيط للقرآن الكريم (١٥٤٢/٧).

خامساً : آثار عدم القبول في الدنيا والآخرة

أ: آثار عدم القبول في الدنيا

إذا حرم العبد القبول ،فليبشر بترادف العقوبات حسية ومعنوية ،و قد لا يشعر بها،فهو في غفلة،في غمرة ،وفي غياب ،إنها سكرة الدنيا ،قال تعالى ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[الحجر: ٣]. وقال : ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٤]. فمن حرم القبول حرم الوصول ،وتاه في ردهات الدنيا وهمومها وأوكله الله إليها ،وذلك مصداق قول النبي ﷺ: (مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ: جَعَلَ اللهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ. وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ: جَعَلَ اللهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ مَا قُدِّرَ لَهُ)[١].

ويمكن أن نوجز بعضاً من آثار عدم القبول في النقاط التالية :

١ – الحرمان من التوفيق إلى ما يرضاه الله من أعمال الخير والبر،فترى عمله منصبٌ على تحقيق مآربه التي تحركها الفحشاء والمنكر،ويجللها فساد الأهواء ،وقد يعمل الخير ولكن لا يكون لله. والله تعالى يُملي

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٠) (٤/٦٤٢/ح٢٤٦٥) ،وابن ماجة في السنن (٥/٢٢٧/ح٤١٠٥) ، وقال الألباني: (صحيح)في صحيح الترمذي.

له بل قد يغدق عليه من أنعامه وآلائه استدراجاً كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٢ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ﴾[الأعراف: ١٨٢ – ١٨٣].

قال بعض أهل العلم: ((كلما أحدثوا ذنباً أحدث لهم نعمة وهي في الحقيقة نقمة))(١) قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ﴾[الأنعام: ٤٤].

٢ – الحرمان من استشعار القرب من الله ولذة الطاعة ،بل يجد فيها من الكلفة والمشقة ما يبعده عنها،فتراه يستلذّ عمل الدنيا ،ويستمرئ اللهث وراء زيفها وبهرجها ،بينما يستثقل الطاعة ولو كانت ذكراً باللسان مما لا يتطلّب منه أن يقوم من مقامه، فإذا ضعفت محبة الله تعالى في قلب العبد لكثرة معاصيه ،وتعلقه بزخرف الدنيا فقد لذة العبادة،قال تعالى فيمن غبط قارون على كنوزه والتهائه بها عن الله : ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٌ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠] قال السعدي :(({ثَوَابُ اللَّهِ} العاجل، من لذة العبادة ومحبته، والإنابة إليه، والإقبال عليه))(٢).

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٩٥) .
(٢) تفسير السعدي ص: ٦٢٣.

٣- طمس البصيرة ،فترى هؤلاء يلبّس عليهم الحقّ ،فيرون الحق باطلاً والباطل حقاً قال تعالى ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾[الحج: ٤٦].

٤- حلول النقم ،قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾[الرعد: ٣١] فغير المقبول بعيد عن الله ،مطرود عن رحمته،من الذين نسوا الله فنسيهم ،ولعل أشدّ النقم هي نقمة البعد عن الله وأن يكله الله إلى نفسه،ويملي له حتى إذا أخذه لم يمهله قال تعالى:﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧].

٥- تعسير الأمور ،وضيق النفس ،وكثرة المخاوف والهواجس والقلق جراء الحرص على الدنيا،والخوف على فوات شيء منها قال تعالى﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾[الأنعام: ١٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾[طه: ١٢٤].

٦- ضعف اليقين ،والإعراض عن الدين :ومن مُخرجاته الشك في الثوابت ،وكثرة الشكوى والتسخّط،وإرضاء الناس بسخط الله، والتخبط في متاهات الضلال ،وإننا لنسمع اليوم عن انتشار الشك والإلحاد و الزندقة و ذلك لعمر الله ما أفرزه هجير الضعف وقلّة الزاد،والبعد عن الله قال تعالى ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف: ٣٦] .

٧ - قسوة القلب ،فترى غير المقبول صاحب قلب صلد ،لا ترويه موعظة ،ولا ينبت في صحرائه إلا زقّوم الجحود والنكران.

****

ب -آثار عدم القبول في الآخرة

قال تعالى:﴿وَلَوۡ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ﴾[الزمر: ٤٧].

لو لم يذكر الله تعالى في القرآن في عاقبة عدم القبول إلا هذه الآية لكفت ،مما تخبّؤه من سوء العاقبة،فلو أن لهم جميع أموال الدنيا وزينتها فَقُبِلَ ذَلِكَ مِنْهُمْ عِوَضًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ لقدموه فداء لينجوا من سوء العذاب وفظاعته بعد ما رأوا هول ما أُعدّ لهم [1].

ويبين القرآن حال الذين حرموا القبول بأوصاف تقشعرّ لها الجلود ،وتختلج لها القلوب فيصِف ما تئول إليه حالهم وأثر ذلك من سواد الوجه واغبراره وذلّته عياذا بالله،ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾[آل عمران: ١٠٦]. وقوله تعالى: ﴿وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ٤٠ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾و[عبس: ٤٠ – ٤١].فالمطرود عن أبواب الرحمة على سعتها ،حاله ذلك

(١) ينظر تفسير الطبري (٢٠/ ٢٢٠) ،وتفسير الخازن (١/ ٣٣٤)،وتفسير السمعاني (٤/ ٤٧٣).

اليوم بأسوأ الأحوال،فتعظم خسارته ويعض على أنامل الندم، ويدعو على نفسه بالويل والثبور حيث قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾[الانشقاق: ١٠ – ١٢].وقال : ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾[الفرقان: ٢٧ – ٢٨]. وعقوبات عدم القبول في الآخرة تتنوع بتنوع الذنب الذي لم يقبل الله العبد بسببه، فقد لا يقبله لشرك أوكفر ،وقد لا يقبله للعناد والاستكبار ،وقد يكون لكلمة قالها هوى بها في سخط الله .

والعقوبات نوعان :

أولا: عقوبة ملازمة لصاحبها وهو خالد فيها كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ۝٧٤ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾[الزخرف: ٧٤ – ٧٥]. وأسبابها الكفر والشرك والنفاق الاعتقادي،والردة وهي دركات بعضها أسفل من بعض،وتتفاوت في الشدة بحسب العناد والجحود عياذاً بالله. وفي عقوبة النفاق قال تعالى:﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾[النساء: ١٤٥].

ثانياً: عقوبات غير خالدة : وهي لعصاة الموحدين أصحاب القبول المؤخر وهي متفاوتة في الزمن والشدة بحسب نوع الذنب كما فصلت في ذلك السنة المطهرة . وهي تعود لمشيئة الله تعالى كما أسلفت قال تعالى:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[النساء: ١١٦]. فإن شاء عاقبه عدلاً منه ،وإن شاء تركه فضلاً منه[١] .

ومن آثار عدم القبول أو تأخيره لعصاة الموحدين اللذين ماتوا على غير توبة أو لم يعف الله عنهم:

١- الطرد من رحمة الله لمدة لا يعلمها إلا هو ،وأحاديثُ اللعنِ كثيرةٌ منها لعنُ النامصةِ والمتنمصةِ والواصلةِ والمستوصلةِ والمتشبهين من الرجالِ بالنساءِ والمتشبهاتِ والمخنثين والمترجلاتِ ومن يُفسدُ المرأةَ على زوجِها وغيرِهم .وقال تعالى﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴾ [النبأ: ٢١ – ٢٣] ذهب كثير من أهل التفسير إلى أنها في عصاة أهل التوحيد[٢] .

٢- الحرمان من الشرب من حوض النبي ﷺ: فقد يحرم العبد لعظم جرمه من الشرب والارتواء من حوض النبي فعلى الحوضِ حراسةٌ مشددَّةٌ وحُرّاسُه كرامٌ برَرةٌ لا يَعصُون الله ما أمرَهم قد

(١) ينظر تفسير الخازن (٤/ ٨٧)،ونظم الدرر في تناسب الآي والسور (٥/ ٢٦٢)،وتفسير القرطبي(٥/ ١٦١).
(٢) ينظر تفسير الطبري(١٥/ ٤٨٣)،وتفسير البغوي (٢/ ٤٦٧)،واللباب في علوم الكتاب (١٠/ ٥٧٤).

وُكِّلوا بكلِّ من لا يستحقُّه أن يَنبذوه، ويدفعونه عن الحوضِ بعصيٍّ من نارٍ وبكلِّ من هو أهلٌ له أن يَحتفُوا به ويُكرموه فيراهم الرسولُ عليه الصلاة والسلام وهم يَدفعون أقواماً فيقولُ أمتي. . أمتي، فيقولون إنَّهم ليسوا من أمَّتِك لا تدري ما أحدَثوا بعدك فيقول : سُحقاً سُحقاً.

ففي الخبر قال ﷺ: (إني فَرَطُكُمْ على الْحَوْضِ من مَرَّ عَلَيَّ شَرِبَ وَمَنْ شَرِبَ لم يَظْمَأْ أَبَداً لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعرِفُهُمْ ويعرفونني ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَأَقُولُ إِنَّهُمْ مِنِّي فَيُقَالُ إِنَّكَ لَا تَدْرِي ما أَحْدَثُوا بَعْدَكَ فَأَقُولُ سُحْقاً سُحْقاً لِمَنْ غَيَّرَ بَعْدِي)[١].

٣- الفزع لعظم الهول الذي تنخلع له القلوب ،وذلك عند رؤية الأحداث المرعبة كالنفخ في الصورِ،والقيام للنشورِ والميزانِ،وتطاير الصحفِ،والصراطِ لأن الله طمأن المقبولين المتبعين لهداه بقوله:﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴾[النمل: ٨٩].

٤- الحُزن والحسرة والنّدم الذي تتقطع له نياط القلب ولات ساعة منْدم وذلك إذا رأى من تقبّلهم الله يُساقون إلى الجنة زمرا ،ثم لا يرى لنفسه إلا سوء المصير قال تعالى:﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾[الزمر: ٥٦].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٩/٤٦/ح ٧٠٥٠).

٥ - وأنواع العقوبات تختلف بحسب اختلاف الذنب وقد ذكر في مطلب مؤخرات القبول بعض أنواع الكبائر وعقوباتها بما أغنى عن الإعادة.

❊❊❊❊

الخـــــاتمة

وبعد هذا الجولة المباركة بين جَنى الكتاب الكريم ،وخمائله العطرة، ونبعه العميم . والنظر المستبصر في نصوصه ،واستقراء عمومه وخصوصه ،وكل ما تعلق بموضوع القبول،وما يؤيده من شواهد ونقول ،تظهر بجلاء حقائق ونتائج هامة أُجملها في النقاط التالية :

١- أن القبول بيد الله وحده ولا موجب عليه ولا مستحق من الخلق بل هو محض تفضّل وتكرّم منه سبحانه.

٢- أن القبول درجات متفاوتة بحسب صلاح القلب، وأنه منوط بالإيمان وجوداً وعدماً.

٣- أن طاعات الموحدين مهما كان تفريطهم فهي مقبولة عند الله إذا استوفت شرائط صحتها ولم يكن هناك ما يفسدها من السيئات.

٤ – أن المقبول من العمل هو الذي تُكفّر به السيئات ، فلا يُكفَّر من السيئات إلا بما قُبل من الصلاة ،وما قُبل من الصيام وكذا سائر الأعمال.

٥– أن الإصرار على السيئة والكبيرة يمحو ما يقابلها من حسنات فيمنع قبولها،كما تذهب الحسنات بالسيئات ،وذلك كالعجب والإدلال بالعمل والمن بالصدقة ،ولكن لا تمحو صفة الإسلام عن صاحبها،مادام على الإيمان.

٦ – أن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً ,فلا يقبل الله نفساً موحدة فيها خبث يوم القيامة حتى يُطهّرها فإن طابت تقبّل منها طيب أعمالها.

٧– أن أدنى درجات القبول قد تستلزم تقديم المؤاخذة والعذاب كما في حال الظالم لنفسه،إن لم يعفُ الله عنه.

٨– يجب ألا يكون مستند حسن الظن بالله معوّل على مجرد صفاته عز وجل الدالة على سعة الرحمة والعفو وعظيم المغفرة كما قال ابن القيم مع أنه سبحانه أجل وأكرم ،ولكن لابد أن يكون مستند ذلك العمل .

٩- كشف البحث عن عظم درجات القبول وأنها متعـددة ومتفاوتة كتفاوت درجات الجنة .

١٠- أن العلاقة وطيدة بين درجات الجنة ودرجات القبول فكلما ارتقى العبد في سلم القبول ارتقى في درج الجنة.

١١- أن جميع ألفاظ الوعيد ,من لعن ومقت وغضب و خلود في نار جهنم، الموجهة لعصاة هذه الملّة على اقترافهم الكبائر الموبقة إنما تُحمل على تأخير القبول لاستيفاء العقاب وطول المكث،وشدة التقريع وليس حبوط الأعمال بالكلية.

١٢- إذا تقبل الله العمل أثاب صاحبه وتقبله ،وكثرة العمل المقبول يوصل إلى ارتقاء العبد في مراتب القبول قبول الرضا والشكر والمحبة.

١٣- سؤال الله القبول ينبغي أن يتخلل ويتبع جميع الأعمال التي يتوجه بها العبد إلى الله.

١٤ - القبول متعلق بفضل الله تعالى وكرمه وبعدله الذي لا يغادر مثقال الذرة ،وبدرجة المحبة التي رقى إليها العبد في عين الله ،ومع أن القبول متعلق بالمشيئة وقد تفرّد به الحق سبحانه ،إلا أن

له أسباباً ينبغي الأخذ بها. فينبغي تحري موجباته ،والتطلع إلى أعلى درجاته .

١٥- التفضيل في الدنيا مبني على مقتضى حكمة الله تعالى وعدله ولا علاقة له بالقبول ،أما التفضيل في الآخرة فمبنيٌّ على القبول و على تفاضل ما في القلوب ، والعمل الصالح يزيد ذلك ويرفعه.

١٦- ما أجمل أن يعيد الإنسانُ النظر في أعماله ،ليتعرف على ما وافق أشراط القبول،وما بعُد عنها، ليثبت على الصواب ،ويستقيم على الجادة .

١٧ - شرع الله تعالى لنا هذا الدين ليهدينا سواء السبيل، ويرسم لنا الطريق لنحظى بالقبول،ونفوز بالوصول. ولا يعلم العبد أي العمل قُبل منه فينبغي أن يسعى بعد الإخلاص والمتابعة إلى الإحسان والإكثار والتنويع من جميع ألوان البر.

و ما ذلتِ الأمةُ ،ولا هانت على عدوها إلا لضعف الأخذ بأسباب القبول والبعد عن الحبل

المتين ، والدرع الحصين ، فنسأل الله عز وجل أن يردنا إليه رداً جميلا ،وييسر للأمة سبيل العزة والتمكين ،وما فيه صلاح الدنيا والدين... اللهم آمين.

وختاما .. فهذا ما تيسّر جمعه وفهمه واستقصاؤه أسأل المولى الكريم أن تكون هذه الدراسة لي ولكم علماً ومعرفة ،ولقلوبنا نوراً وهدى ،و علماً نافعاً وإضافة متواضعة للمكتبة الإسلامية ،وأن يتقبله مني ويعفو عمّا بدر من تقصير أو زلل ،فإنه سبحانه أجود من أعطى وأكرم من سُئل .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

****

فهرس الموضوعات

الموضــوع الصفحة

الفصل الأول

مسلمات وشروط القبول وموجباته وعلاماته ومحبطاته

الفصل الثاني

أسماء و سمات ومنازل المقبولين

الفصل الثالث

أساليب القرآن في الحث على طلب القبول

الفصل الرابع

درجات القبول وأنواعه وأسبابه وآثاره وطرق الارتقاء

❊❊❊❊